الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر
كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

المنحى الوظيفي
في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور
" سورة البقرة نموذجا"

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية

تخصص: الدراسات اللغوية النظرية

إعداد الطالب:

الطاهر شارف

السنة الجامعية : 2006/2005

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر
كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

المنحى الوظيفي
في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور
" سورة البقرة نموذجا"

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية

تخصص: الدراسات اللغوية النظرية

إعداد الطالب:
الطاهر شارف

إشراف الأستاذ:
د/ أحمد شامية

أعضاء لجنة المناقشة :

1- د/ عبد الرزاق عبيد رئيسا
2- أ. د/ أحمد شـــامية مقررا
3- د/ أحمد بلحوت عضوا

السنة الجامعية : 2006/2005

إهداء

يطيب لي أن أهدي زبدة الأفكار، وثمرة قيام الأسحار، وشقاء الأسفار إلى كل الذين كانوا لما احتجت ملبين:

أستاذي المشرف الدكتور أحمد شـــــامية .

أمّي التي حملتني وهنا على وهن، وعانت الكثير لأسعد، ثمّ رجعت إلى ربها وما تركتني فردا . غفر الله لها وأدخلها فسيح جناته .

أبي صاحب القلب الرّحيم الذي تعب ومازال يتعب من أجل راحتي . نسأل الله أن يبلغه ما نوى .

أخويّ أحمد ومحمد ، هذا الأخير الذي تعب في إخراج هذا البحث، ونال من جهده الكثير .

الزوجة الفاضلة التي كانت أكبر من ضحى بجهده وحقه وراحة باله، وانتظر إخراج هذا البحث بفارغ الصبر . وما أنقص ذلك شيئا من إخلاصه ووفائه .

أخواتي الكريمات اللواتي ما رعيتهن حق رعايتهنّ . عفا الله عني .

الابن البار أســـامة .

إلى كل الأصدقاء الذين عمتهم الحيرة وطال شوقهم لرؤية هذا البحث شيئا مذكورا .

إلى كل غيـــــور على دينه، ولغته، ووطنه .

إلى كل طـــــالب علم أخلص القصد .

الطاهر

شُكْرٌ وتَقْدِيرٌ

عملا بقوله ﷺ :(لا يشكر الله من لا يشكر الناس) رواه أحمد إنّني أتقدم بالشكر والعرفان لكل من أسهم معي في إتمام هذا البحث المتواضع ، وأخص بالذكر الأستاذ المشرف الدكتور أحمد شامية الذي اتسع صدره لكل ما كان منّي من ثقل، وأنا شاكر له تفهمه ونزاهته واحترامه لأفكار غيره، كما أنعم في ظل البحث العلمي بنصائحه وتوجيهاته التي تنم عن رعايته الخالصة لأبنائه الطلبة ووفائه المنشود للغته . والأستاذ الدكتور مسعود صحراوي الذي تشرف باقتراح هذا الموضوع ومناقشة الخطة الابتدائية التي سطرناها له، ولم يبخل علينا بكل ما رآه مفيدا من مادة علمية ورؤى فكرية وتشجيعات معنوية، وفتح لنا بيته وقلبه كما لا أنسى أن أنوه بتوجيهات الأساتذة: الدكتور محمد الحباس، الدكتور محمد العيد رتيمة، الدكتورة خولة طالب الإبراهيمي، الدكتور عبد الجبار توامي، الأستاذ جلول بن سالم، الأستاذ مفتاح بن عروس ، وجميع الأساتذة الذين نلنا منهم الكثير في جامعتنا العريقة والذين سنتشرف منهم بقراءة هذا البحث لمناقشة أفكاره، وتصويب أخطاء صاحبه. . .

حفظ الله الجميع، وجزاهم خير الجزاء .

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

التجديد ضرورة حضارية، والتغيير جُبلنا عليه وهو فطرة إنسانية. والحداثة ليست نبذ القديم أو إقصاءه؛ فالقــدم لــيس عيبا، بل كل قديم جديد في زمانه، وقد يكون إبداعا. وليس من التحضر أو العدل تجاهل تراثنا اللغوي أو النحوي أو طيّ صفحاته ساعين -زعما منا- إلى العصرنة أو التبسيط، وفي هذا المضمار يحــدّد الدكــتور عمارة موقفه من التراث قائلا: «هكذا، نجد أن السبيل إلى نهضة أمتنا هذا إنما يكمن في مواصــلة النهج التجديدي الذي سعى أعلامه إلى بعث الأمة وإنهاضها وتجديد حياتها دون أن تنسلخ هذه الأمــة عن تراثها الخلاق وحضارتها المبدعة، ذلك أن هذا الانسلاخ -مثله كمثل الجمود- عدوّ النهضة الحقيقــية، وبهمــا معا تقر عين الأعداء الذين لا يريدون لهذه الأمة بعثا ولا تقدّما ولا إحياء .»[1]، وقد أنصف كثير من العلماء العرب المعاصرين بأنْ واصلوا إحياء النحو بناء ونقدا وتصفية غير منكرين ما لــه ولا متناسين ما عليه وأسهموا بما أنجزوا في تطويره واستخراج كنوزه وهذا ما جعل غير العرب من علماء الدنــيا يعتــرفون بذلك؛ فهذا مارتيني(A.Martinet) يصرح [*] :« وأنا أقول إنّ كثيرا من البحوث العربية ساعدت بل ساهمت في بناء ما يسمّى علم اللسانيات الحديث.» [2] وقيمة موروثنا اللغوي فرضت على غير المتزمتين من العلماء الاطلاع عليه بل والاستفادة منه وبهذا يعترف بعضهم -رغم عبقريته- بأنه درس الــنحو العــربي واســتفاد منه، يقول تشومسكي(N.Chomsky) [**]:«قبل أن أبدأ بدراسة اللســانيات العامــة كــنت أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات السامية، وما زلت أذكر دراستي للآجــرّومية مــنذ عدة سنوات خلت أظن أكثر من ثلاثين سنة ...وكنت مهتما بالتراث النحوي العربي والعبري...ولكنّني لا أشعر أنّني كفء للحديث عن البحوث اللسانية التي كان العرب قد أسهموا بها لبناء علم اللسان الحديث»[3].

هذا ونبتغي بمحاولتنــا هذه ربط الفكر اللغوي العربي بالفكر المعــاصر وذلك من خلال قراءتنا لمصدر

(1) عمارة في: جعفر دك الباب: **النظرية اللغوية العربية الحديثة**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا،ط1، 1996، ص163.

(*) وهو يجيب عن أسئلة الوعر في حوار أجراه معه في 20 آب 1978في كندا.

(2) مارتيني في: مازن الوعر: **دراسات لسانية تطبيقية**، طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، سوريا، 1989، ص285.

(**) وهو يجيب عن أسئلة الوعر في لقاء أجراه معه يوم 31 كانون الثاني 1980في كامبردج.

(3) تشومســكي في: مــازن الوعر: **النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية والتوليدية:** محاولة لسبرها وتطبيقها على النحو العربي، مجلة اللسانيات، يصدرها معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، العدد6 ، 1982، ص72.

لغوي ثري" تفسير التحرير والتنوير" في ضوء اللسانيات الحديثة (وخصوصا نظرية النحو الوظيفي) وذلك قصـــد إبراز ما اشتمل عليه من أفكار ورؤى انتبه إليها صاحب هذا السفر الضخم قد تفوق ما اشتهر في أحدث النظريات، ومن خلال هذا الكتاب تبرز نضارة التراث العربي كله، وببحثنا هذا نسهم في « رفع الضـــيم الحاصل في مجال تقييم التراث اللغوي وإعادة الاعتبار إلى فكر لغوي عمره أكثر من ألف عام بعد إعطائـــه ما يستحق من الاهتمام والتقدير على مستوى الفكر اللغوي العالمي »[1]، وفي هذا الصدد يرى الدكـــتور أحمـــد المتوكل أنّ المبادئ المنهجية التي اعتمدها اللغويون القدامى تشابه من قريب أو من بعيد المبادئ المنهجية التي تحكم الدرس اللغوي الوظيفي المعاصر[2].

وانطلاقـــا من اطلاعنا على بعض الدراسات-على ندرتها- في التراث العربي (عبد القاهر الجرجاني، أبو يعقـــوب الســـكاكي) والتي تظهر فيها ملامح المنحى الوظيفي، وبقراءتنا بعض أجزاء تفسير الشيخ محمد الطاهـــر ابـــن عاشور " تفسير التحرير والتنوير" لمسنا مدى تأثّر الشيخ بالاتجاه الوظيفي في النحو العربي وبخاصـــة بالأفكار الوظيفية عند الجرجاني و السكاكي، ومدى ظهور مبادئ المدارس الوظيفية مطبقة في تفســـيره دون أن يقصد ذلك، وخاصة المبادئ المنهجية لنظرية النحو الوظيفي لسيمون ديك(Simon Dik)حسب ما نقله إلينا أحمد المتوكل الذي هو من أبرز أتباعها ومنظريها.

وقد كان **عنوان** بحثي هذا :

المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة البقرة نموذجا"

ونقصـــد بالمنحـــى الوظيفي المنهج الذي يركّز في التحليل اللغوي لتراكيب اللغة على وصف وتفسير العبارات اللغوية المعينة في حالة تأدية أغراض بعينها في مقامات محدّدة، بالنظر إلى الوظيفة الأساسية للغة، وهـــي التواصـــل، وبمـــراعاة علاقة البنيات بالوظائف التي تؤديها في الكلام؛ فبحسب المعاني المقصودة والأغـــراض المـــرجوة تكون البنيات، و المنحى الوظيفي العربي يتجلى في المزج بين النحو وعلم المعاني. ويقابل المنحى الوظيفي المنحى الشكلي"الصوري" الذي يدرس البنيات اللغوية معزولة عن واقع إنتاجها.

وفي بحثـــنا هذا نحاول إبراز بعض السمـــات الوظيفية التي تبين أن المنحى اللغوي الذي انتهجه الإمام ابـــن عاشـــور في تفسيره هذا كان في عمومه وظيفيا غير شكلي يركز فيه على الوظيفة الإبلاغية ومقام الخطاب القرآني وملابساته وحال المخاطبين، وينهل من كل فروع المعرفة العربية دينيةٍ أو لغوية (النحو،

(1) ميشال زكريا: **بحوث ألسنية عربية**، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1992، ص7.

(2) انظر: **اللسانيات الوظيفية**، مدخل نظري، منشورات عكاظ، 1989، ص84.

البلاغة، علم أصول الفقه، علوم التفسير،...)

والذي حدا بنا إلى اختيار هذا الموضوع هو ميولنا إلى دراسة التراث العربي لإظهار كنوزه، والنظر في مـــدى مواكبـــتها للبحث اللغوي الحديث في العالم، و محاولةُ البحث في موضوع الوظيفية لكونها توجها لسانيا حديثا أغرى كثيرا من الباحثين، وسعيا منا إلى الاستفادة من الموروث اللغوي العربي واستثمارِه في إطـــار مـــا توصـــل إليه علماؤنا الأفذاذ من نظريات وما وصلت إليه النظريات الغربية الحديثة في ميدان اللســـانيات عامـــة واللسانيات الوظيفية التداولية خاصة، ثم ضرورة معرفة الأدوات اللغوية التي استعملها علماء اللغة والمفسرون في الكشف عن أسرار اللغة ومعانيها ومقاربتها بما توصل إليه الباحثون المعاصرون في مجـــال التحلـــيل الوظيفـــي للغـــة العربية. ومن ثمّ تحديد بعض السمات الوظيفية التي تبين أن الشيخ ابـــن عاشـــور كان ينحو منحىً وظيفيا وإن استعان في قليل من تحليله بظواهر شكلية. وكذلك إعجابنا بتفسير التحرير والتنوير لكونه يخدم القرآن الكريم واللغة العربية معا ثم هو في متناول الباحث الناشئ، و لم نعثر على دراسة تتناوله وفق الاتجاه الذي أردنا البحث في إطاره" نظرية النحو الوظيفي".ولا ننكر هنا أنّ هـــناك الكثير من تفاسير القرآن الكريم اللغوية التي تحتاج إلى إثراء ودراسة. وقد وقع اختيارنا على سورة البقرة بالذات لكونها عينة مقبولة لدراسة هذا الموضوع، ولا تضطرنا إلى إضافة سور أخرى، بالإضافة إلى ذلك موافقة المجلد الأول من التفسير للجزء الأول من القرآن، وكذلك الثاني والثالث، فلا تطرح إشكالية عدم مطابقة الأجزاء للمجلدات في هذه السورة بالذات.ثم لكون المفسر يركز في بداية التفسير على أشياء قـــد يضـــطر إلى تركها مع باقي السور اختصارا رغم أهميتها، وقد يحيل إليها إحالة تُرهق الباحث بعدم دقتها.

وبحثـــنا هذا يسعى إلى استجلاء الملامح الوظيفية في تفسير التحرير والتنوير معتمدا التمفصل الوظيفي الحديث الذي أصاب الدراسات اللغوية في السنوات الأخيرة ممثلة في الاتجاهين الوظيفيين: البنوي التقليدي المتأثّر بدي سوسير(F.de saussure)، والتداولي الحديث المتأثر بسيمون ديك وغيره. والجانب الذي نحن بصدد دراسته هو إبراز السمات التي تبين أنّ تفسير التحرير والتنوير تفسير وظيفي يهتمّ بالدلالة ولا يركز على بنية الكلمات والعبارات في غير واقع الاستعمال، ثم هو دراسة تطبيقية في مصدر ثري بالظواهر اللغـــوية بأنـــواعها يجعل كل من يخوض غمار البحث فيه يتعلم الكثير من أسرار لغته، وتكون نتائج بحثه علامات ترشد على طريق البحث في مثله من المواضيع.

وبمجـــرد الـــتفكير في هذا الموضوع رأيت أنه يتوجب عليَّ الإجابة عن تساؤلات منها:ما هي الخلفية الفكرية للاتجاهين الوظيفي والشكلي؟ ما أسس التفريق بينهما؟ علامَ يقوم المنهج الوظيفي؟ هل اعتمـــاد

الـــنحو وعلم المعاني في دراسة وتفسير التراكيب اللغوية هو إجراء وظيفي؟ هل الاتجاه الوظيفي هو الأليق بدراسة التراث اللغوي العربي ومصـــادره أم الاتـــجاه الشكلي؟ وفي الأخير هل يعتبر تفسير الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور تفسيرا وظيفيا؟ وما هي السمات الوظيفية عند صاحبه؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات سطرت خطة– عُدِّلت عدة مرات– قسّمتُ على أساسها بحثي بالشكل:

مقدمـــــة:

مدخــــــل: لمحة عن التيارين الأساسيين في اللسانيات المعاصرة: التيار الشكلي، والتيار الوظيفي.

الفصل الأول: "الوظيفية"في الفكر اللساني المعاصر:

1- الوظيفية البنوية: أ – الوظيفية عند مارتيني

ب- النموذج الوظيفي عند رومان جاكوبسون

ج – الوظيفية عند البنويين العرب"تمام حسان نموذجا"

2 – الوظيفية التداولية(سيمون ديك/أحمد المتوكّل)

3 – ملامح المنحى الوظيفي في التراث العربي

الفصل الثاني: نماذج من التحليل الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير

(التحليل في ضوء المبادئ المنهجية لنظرية النّحو الوظيفي)

1- الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي وظيفة التواصل

2- تحدِّد وظيفة اللغات الطبيعية الخصائص البنوية لهذه اللغات (تبعية البنية للوظيفة)

3- السّعي إلى تحقيق الكفايتين: التداولية والنفسية

الفصل الثالث: السِّمات الوظيفية عند ابن عاشور

(ملامح المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير)

خـــاتمــــة : أهم نتائج البحث.

الدراسة في هذا الموضوع تتطلّب أن نجمع بين المنهجين الاستقصائي والوصفي؛ فبالاستقصاء نجمع المادة العلمية التي منها نأخذ شواهدنا على ما نطرح من أفكار وما نناقش من قضايا، وبالوصف والتفسير نحلل معطيات هذه المادة .

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وتفسيره التحرير والتنوير

الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور(1879-1973) :

آل عاشور أسرة عرفت بالعلم، نشأت وترعرعت في الأندلس أيام الحكم الإسلامي، وبعد سقوط الحكم

الإسلامي فرّت من الأندلس إلى "سلا" من بلدان المغرب ومنها انتقلت إلى تونس لتستقر بها [1] .

ولد الشيخ في قصر جدّه للأم الوزير محمد العزيز بوعتور بضاحية المرسى في شمال تونس سنة1879، أبوه الشيخ محمد بن محمد بن الطاهر الأول[*] بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور[2]، وأمه فاطمة بنت محمد العزيز بوعتور الوزير في عهد علي باي والرجل العالم الذي نقل عنه ابن عـــاشور الكثير في تفسيره[3] . وله أكبر الأثر في حياته « فقد بلغ من عنايته بحفيده أنه آنس إقبال سبطه على العلم ونبوغه في اللغة وتوفره على الأدب وهب له خزانة كتبه فكانت خير هدية أهديت إليه حيث عكف على مخطـــوطاتها وأمعـــن في قـــراءته لنفائسها »[4]، هذا الجد هو الذي « كتب لـــه بخطه نسخة من المفتاح للسكاكي ونسخ له متن البخاري في جزء فريد، وجمع له في دفتر كبير نصوصا من عيون الأدب» [5].

تعلُّمه ودراسته :

حفـــظ القرآن وعمره لا يتجاوز الست سنوات في العام 1302هـــ، وفي مسجد أبي حديد بدأ يتلقى دروسا في اللغة العربية ومبادئ الشريعة الإسلامية[6]، وفي جامع الزيتونة ظهر نبوغه أكثر[7] ، وفيه حصل علـــى شهادة التطويع[8] . وعن مجال دراسته يقول ابن الخوجة:« درس الشاب محمد الطاهر ابن عاشور الـــنحو فقرأ سيدي خالد والقطر والمقدمة والمكودي ولامية الأفعال و الأشموني المغني بشرح الدماميني . ودرس البلاغة فقرأ الدمنهوري على السمرقندية والسعد على التلخيـــص والمطول وفي المنطق قرأ السلم

---

(1) انظر :حواس بري: **المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور**، (مخطوط رســالة دكتوراه) ، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر، إشراف: د.عبد القادر هني، (1995-1996)، ص15.

(*) نشير هنا إلى أن جد الشيخ الذي نترجم له يسمى أيضا محمد الطاهر ابن عاشور (توفي سنة 1868هـــ) وهو عالم كذلك.

(2) انظر: هيا ثـــامر مفتاح العلي: **الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره "التحرير والتنوير"**، دار الثقافة، الدوحة، قطر، 1994، ص19.

(3) انظر: حواس بري: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، ص15.

(4) عبد المنعم خفاجي: مهرجان ابن عاشور، ص3. نقلا عن:(هيا ثامر: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، ومنهجه في تفسيره، ص29، 30.).

(5) محمد الحبيب ابن الخوجة: جوهر الإسلام، عدد3، 4، ص12. نقلا عن:(هيا ثامر: المرجع نفسه، ص30.).

(6)، (7)، (8) انظر: حواس بري: المقاييس البلاغية ، ص15.

والـــتهذيب. وفي الكـــلام قرأ الواسطي والعائق والنسفية والمواقف. وفي الفقه درس الدردير وميارة على المرشد والكفاية على الرسالة والتاودي على التحفة وفي الفرائض قرأ كتاب الدرة. وفي فن الأصول درس الخطـــاب علـــى الورقات والتنقيح للقرافي والمحلى للسبكي وفي الحديث شرح غرامي صحيح وفي السيرة الشفاء بشرح الشهاب الخفاجي »[1]، كما أن الشيخ درس الفرنسية وأخذ في تعلمها سنة1216 [2].

تعليمه وتدريسه :

قـــال عنه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي :« عَلَم من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره. فهـــو إمـــام متبحـــر في العلوم الإسلامية، مستقل في الاستدلال، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بـــتحملها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها. أقرأ وأفاد، وتخرجت عليه طبقات ممـــتازة في التحقيق العلمي.» [3]، ومما قام بتدريسه: « الشرح المطول للتفتازاني، وكتاب دلائل الإعجاز للجـــرجاني في الـــبلاغة، وشرح المحلى لجمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه، ومقدمة ابن خلدون،... وديـــوان الحماســـة لأبي تمام. ودرَّس أيضا في الحديث موطأ الإمام مالك، وأقرأ تفسير البيضاوي بحاشية الشهاب »[4].

شيـــوخه :

مـــن شيوخ ابن عاشور : محمد الصالح الرضوي السمرقندي، وصالح الشريف، إبراهيم المرغني، سالم بـــوحاجب، وعمر بن الشيخ، محمد النجار، ومحمد بن يوسف، ومحمد النخلي[5]، الشيخ محمد الشيخ، الشيخ صالح المحمودي...يقول صديقه وقرينه الشيخ محمد الخضر حسين: « شب الأستاذ على ذكاء فائق وألمعـــية وقّـــادة الشاهد، والشيخ أحمد جمال الدين، الشيخ أحمد بن بدر الكافي والأستاذ أحمد وناس فلم يلبث أن ظهر نبـــوغه بين أهل العلم، ولما كان بيني وبينه من الصداقة النادرة المثال،كنا نحضر دروس

(1) ابن الخوجة: الهداية، عدد3، 4، ص11. نقلا عن:(هيا ثامر مفتاح العلي: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره، ص26).

(2) انظر: عبد الملك ابن عاشور"الابن الثاني لابن عاشور"، رسالة مكتوبة، ص3. نقلا عن:(هيا ثامر: المرجع نفسه، ص27).

(3) محمد الحبيب ابن الخوجة: **محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقـــاصد الشريعة**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر،2004/1425، 169/1.

(4) المرجع نفسه، 165/1.

(5) انظر: هيا ثامر مفتاح العلي: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره، ص30، 31.

بعـــض الأســـاتذة جنـــبا إلى جنب مثل درس الشيخ سالم أبو حاجب لشرح القسطلاني على البخاري والأســـتاذ عمر بن الشيخ لتفسير البيضاوي ودرس الشيخ محمد النجار لكتب المواقف وكنت أرى شدة حرصه على العلم ودقة نظره متجليتين في لحظاته وبحوثه»[1].

من تلامذته:

مـــن العلمـــاء الذين تخرجوا عليه الإمام عبد الحميد ابن باديس رائد النهضة الجزائرية و الشيخ البشير الإبراهيمي وابنه الفاضل محمد الفاضل وأعلام كثيرون[2].

مؤلفـــاته :

لـــه مؤلفات كثيرة وفي فنون مختلفة في الشريعة الإسلامية وفي الدراسات اللغوية والأدبية، بالإضافة إلى الشرح والتحقيق والتعليق،منها المطبوع ومنها المخطوط، وأهم هذه المؤلفات وأضخمها شكلا ومضمونا "تفسير التحرير والتنوير" الذي يقع في خمسة عشر مجلدا .

تفسير التحرير والتنوير:

سمـــى ابـــن عاشور تفسيره بـــ" تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" ثم اختصر هذا الاسم باسم" التحرير والتنوير من التفسير"[3]، ومن أهم مصادر هذا التفسير: تفسير الكشاف للزمخشـــري، والمحـــرر الوجيز لابن عطية، ومفاتيح الغيب للرازي، وتفسير البيضاوي ، وتفسير الشهاب الآلوسي، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على البيضاوي وتفســـير أبي الســـعود وتفســـير القرطبي، والموجود في تفسير الشيخ محمد ابن عرفة التونسي، وتفاسير الأحكـــام، وتفســـير الطـــبري، وكتاب درة التتريل المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما نسب للراغب الأصبهاني[4].

منهجه في التفسير:

يقـــول ابـــن الخوجة عن الطريقة التي انتهجها ابن عاشور في تفسيره « يسلك في تفسيره وفي تحريره للمعاني والمقاصد الطريقة التطبيقية التي جرى عليها الزمخشري وابن الأنباري وابن الشجري وأمثالهم.فإذا

---

(1) محمد الخضر حسين: تونس وجامع الزيتونة، ص125. نقلا عن:(حواس بري: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير، ص 16.).

(2) انظر: حواس بري: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير، ص18.

(3) انظر:محمد الطاهر ابن عاشور: **تفسير التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس،و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، 8/1، 9.

(4) انظر: ابن الخوجة: محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة، ص319، 320.

مـــا قصـــرت هـــذه عن الوفاء بما أراد، عاد إلى محفوظه ومروياته من كلام العرب وأشعارها مستشهدا ومستنبطا، معلنا عن ابتكاراته وأفهامه الخاصة بقول "وعندي" وهكذا يضم هذه الطريقة الاستنتاجية التي كـــان عليها المبرد إلى الطريقة التطبيقية، وهذا الاجتهاد هو ما لا يتسنى لكل أحد، ولا نأنسه بكثرة عن أمثاله من المتقدمين في هذا العلم.» (1) .

كمـــا أننا نجد الشيخ يستفيد مباشرة من علم اللغة والنحو وعلم المعاني وعلم البيان ...ويستشهد بأقوال علماء السلف كالزمخشري و السكاكي، «ولعل أبرز ما يمتاز به العلامة الشيخ-ابن عاشور-في هذا المجال بيان معاني مفردات القرآن وأساليب استعمالها بدقة لا نكاد نجد الكثير منها في قواميس اللغة وموسوعاتها، فهو يتوسع في ذلك توسعا يدل على مدى تمكنه من اللغة العربية وتبحره في علومها، وتوقفه في الاستدلال على المعنى المراد وصحة حمل الألفاظ على الاستعمال.»(2).

العربية في التحرير والتنوير

قام تفسير التحرير والتنوير على أصول ثلاثة هي اللغة والمأثور والرأي. ويجد المتتبع البصير لهذا التفسير أن اللغـــة هـــي التي نالت الحظ الأوفر وهذا مرده لخلفيته اللغوية وتمكنه من علومها، بحيث يمكننا اعتبار تفسيره تفسيرا لغويا(3). يرى الشيخ ابن عاشور أن العربية استحقت بجدارة أن تكون لغة القرآن لما تتميز بـــه عن سائر اللغات، بكونها :1- أوفر اللغات مادة. 2- أقلها حروفا. 3- أفصحها لهجة. 4- أكثرها تصريفا في الدلالة على غرض التكلم .5- أوفرها ألفاظا (4).

(1) المرجع السابق، ص320.

(2) التهامي نقرة: بحث بعنوان"عينة من أدلة الترجيح والتعلل في التحرير والتنوير."، ص1، ضمن مهرجان ابن عاشور. نقلا عن:(هيا ثامر مفتاح العلي: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره، ص387).

(3) انظر: هيا ثامرمفتاح العلي: الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره، ص385.

(4) انظر: التحرير والتنوير، 98/1.

مَدْخَلٌ : لمحة عن التيارين الشكلي و الوظيفي

أسهم كل من التراث اللغوي العربي والدراسات المتعلقة به في بعث اللسانيات وجعلها كيانا علميا مثل مـــا أسهمت الدّراسات والنّظريات غير العربية في ذلك. والنظريات اللسانية المعاصرة تنقسم انطلاقا من نظرتها لماهية اللسانيات وموضوعها والمبادئ المنهجية التي حددتها لدراستها للغات الطبيعية إلى تيارين:

أولا: نظريات لسانية شكلية "صورية":

وهي النظريات التي تتناول الجانب الصوري أو الشكل الظاهر للبنية اللغوية بغض النظر عن الوظيفة التي وجدت من أجلها اللغة في ذاتها أو الوظيفة التي شُكلت هذه البنيات لتأديتها «وتشمل النظريات اللغوية الـــتي تعتـــبر أن اللغـــات الطبيعية أنساق مجرّدة يمكن دراسة بنياتها بمعزل عن وظيفتها في التواصل داخل المجتمعات» [1]، ومن هذه النظريات النظرية **البنوية الأوربية**، والنظرية **البنوية الأمريكية**.

نحاول أن نتعرض لبعض ما يهمنا فقط مما تناولته النظريتان بعد أن نحدّد المقصود بالبنية و البنوية.

مفهوم البنية :ورد في لسان العرب « البِنية و البُنية ما بنيته، ... البِنية الهيئة التي بُني عليها مثل المِشية والرِّكبة »[2].

وبنـــية الشـــيء: مـــا هـــو جوهري فيه، و« البنية مفهوم عربي دقيق متقدم على ما هو موجود الآن في اللســـانيات البنوية »[3] وتعني بنية الشيء ما هو أصيل فيه وثابت لا يتبدل بتبدل الأوضاع والحالات[4]، وهي أنوع: بنية كلمة وبنية جملة وبنية نص، وبنية الكلمة عند نحاتنا العرب هي صيغتها أو وزنها أو هيئتها المتمثلة في عدد حروفها المرتبة أصلية وزائدة وحركاتها المعينة وسكونها[5].

---

(1) أحمد المتوكل: **دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، (د ت)، ص26.

(2) ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر ، بيروت ،ط1، 1997، 258/1.

(3) عـــبد الـــرحمن الحاج صالح: **مقارنة بين التحليل البنوي الأوربي، و التحليل البنوي الأمريكي**، مقياس: المدارس اللسانية، محاضرة على طلبة الماجستير، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، بوزريعة، الجزائر، 2004/2003.

(4) انظر: عمر مهيبل: **البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1991،ص 16.

(5) انظـــر:عـــبد الرحمن الحاج صالح: **المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم المعاصر**، ضمن: تقدُّم اللسانيات في الأقطار العربية، وقائع ندوة جهوية، أفريل، 1987، الرباط، هامش ص373.

والبنـــية هـــي نظام يقوم على قوانين داخلية تتحكم فيه. كما أنها علاقات تربط المكونات بعضها ببعض « دون الـــرجوع إلى عناصـــر خارجية، وهي تتميز بما يلي: بالشمولية والتحويل، والتنظيم الذاتي.» [1]
ويـــؤكد هـــذا المعنى هلمسليف *L.Hjelmslev(1899-1965)* [*] حيث يقول:« إنّ البنية كيان مســـتقل من العلائق بينها تبعية وخضوع داخليين، تماما كهذه البنية التي تعتبر كلا لا يتجزأ، فهي تشكل وحدة مستقلة بين عناصرها المكونة تساند داخلي ولها قوانينها الخاصة ولا يمكن إطلاقا وجود عنصر من البنية قبل وجود الكل سواء على المستوى السيكولوجي أو الفيزيقي »[2].

مفهـــوم البـــنوية: كلمة بنوية *Structuralisme* مشتقة من كلمة بنية *Structure* وهي بدورها مشـــتقة مـــن الفعل اللاتيني *Struere*، و البنوية توجه فلسفي أساسه الشكل المجرد والصورة الظاهرة و البنوية هي نظرية المعرفة ...أي أن البنية موجودة في كل المعارف في العلوم والفيزياء....

البنوية الأوربية: ظهرت مع سو سير ويعتبر أول منشئ لها مدرسة مستقلة ووضع لها أسسا قائمة بذاتها رافضة مبادئ المدرسة التاريخية والدرس المقارن.

يـــرى فردينان دي سو سير *F.de saussure"(1857-1913)* أنّ موضوع اللسانيات الوحيد هو اللغة في ذاتها ولذاتها واللغة عنده هي شكل تنتظم وفقه الأصوات والمتصورات [3] ، والشكلية هنا عند ســـو سير غير شكلية المنطق الرياضي وتحديداته ورسومه إنما هي مقيدة بالواقع الزماني والمكاني « إلا أنه وقع تأويل هذه الفكرة[شكلانية سو سير] تأويلا مبالغا فيه حاد عما أراده سوسير، وأخلّ بأهمّ ما وضعه من المبادئ .ويتمثل فساد التأويل في اعتبار اللغة نظاما شكليا على غرار الأنظمة المنطقية الرياضية...والتي لا تُخضِع البعدين الزماني والاجتماعي...» [4]، والشكلانية تدرس اللغة كبنية في وضع آني، فسوسير يرى

---

(1) محمد الخناش: **البنيوية في اللسانيات**، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1980/1401، ص101، 102.

(*)هلمســـليف هـــو أحـــد أتـــباع المدرسة الألمانية"مدرسة النحاة الجدد"وكان يطمح في بناء نظرية جديدة تغني عن "دروس سو سير ومنوال تروباتسكوي (1890-1939) وأعمال بلومفيلد" انظر: عز الدين مجدوب: **المنوال النحوي العربي**، قراءة لسانية جديدة، كلية الآداب، سوسة، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 1998، ص51.

(2).L.Hjelmslev.Sémantique structurale .Essais1951,P100 نقلا عن:(محمد الخناش:البنيوية في اللسانيات،ص103)

(3) انظر: محمد الشاوش: **سو سير والألسنية**، ضمن: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990، ص14.

(4) المرجع نفسه، ص22 .

أنّ الفعـــل اللغوي ينتج عن الجمع بين الأصوات والمعاني وتشكلهما معا لا بالفصل بينهما، وهذا يُحدث شـــكلا أو بنـــية هي جوهر اللغة سمي فيما بعد بالمنحى الشكلاني وطبع جلّ الدراسات البنوية[1]، وكان أساســا لكـــل المدارس الحديثة ومحل تأثير بشكل أو بآخر، في أوربا وفي كثير من بلدان العالم خاصة في النصف الأول من القرن العشرين بعد ظهور كتاب"دروس في اللسانيات العامة" لفردينان دي سوسير[2]، غـــير أنّ هذا المنحى كان محل انتقاد فيما بعد من طرف كثير من الدارسين وعدُّوه خطرا على اللغة وبهذا أصـــبح حافـــزا علـــى ظهور مدارس وتيارات مستقلة[3] ترى في نفسها القدرة على الإغناء عن البنوية وشكلانيتها وتعسّفها في التحليل[*]،وقد زادت حدة هذه الانتقادات إلى أن صار« بعض اللغويين البنيويين لا يقبل أن يطلق عليه بنيوي أو على الأقل يتردّد في ذلك، فهو يقبل أن ينعت بوظيفي بدل بنيوي »[4].

البـــنوية الأمريكية : نشأت البنوية الأمريكية في استقلال تام عن البنوية الأوربية والتفكير السوسيري وجـــاءت لـــتحل مشـــاكل متعلقة بعلم الأجناس وتتمثل « في إيجاد منهج لدراسة لغات القبائل الهندية الأمـــريكية الرائجة في أمريكا الشمالية »[5]، ويعتبر إدوارد سابير"*E.Sapir*"(1884-1939) أحد أبرز روادها ونجده يعطي أهمية كبرى لمفهوم الصورة أو الشكل[6]؛ فهو يرى أن اللغة مجموعة وحدات أو بنـــيات أو رموز. غير أنه لا يهمل الجانب الوظيفي في اللغة برغم احتفائه بالبنية أكثر من الوظيفة، فنجده يصـــرح بأن الوظيفة الأساسية للغات هي التواصل، يقول: « إن اللغة وسيلة لا غريزية خاصة بالإنسان، يستعملها لإيصال الأفكار والمشاعر والرغبـــات عبر رموز يؤديها بصورة اختيـــارية وقصدية »[7]، ومن

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص15.

(2) انظـــر: ســـعدي الزبير: **العلاقات التركيبية في القرآن الكريم**، دراسة وظيفية(مخطوط رسالة دكتوراه)، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، إشراف: محمد بلقايد (1410/1989)، ص 20.

(3) انظر: محمد الشاوش: سو سير والألسنية، ص17.

(*) مـــثلا عـــند تقطيع أيّ كلمة تدل على جمع التكسير يتعسّف البنوي في إيجاد القطعة التي تدل على الجمع. انظر: عبد الرحمن الحاج صالح: المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم المعاصر، ص373.

(4) محمد الحناش: البنيوية في اللسانيات، ص102.

(5) عبد القادر المهيري: **اللسانيات الوظيفية**، ضمن: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990، ص39.

(6) انظر: طيب دبة: **مبادئ اللسانيات البنوية**،دار القصبة، الجزائر، 2001، ص 140، 141.

(7) سابير في: ميشال زكريا: بحوث ألسنية عربية، ص67.

النظــريات البنوية الأمريكية التي ذاع صيتها النظرية التوليدية التحويلية، وهي من النظريات التي ترى أنه يمكـــن دراسة اللغة باعتبارها بنية وبمعزل عن وظيفتها[1]، فقد جعلت النحو عملية ميكانيكية لها قواعدها التي تحقق العناصر اللغوية بشكل آلي، كما أنها لم تهتم بوظائف البنيات اللغوية عند حدوث عملية التحويل في مـــراحل توليد الجمل.ثم هي لم تراع الواقع النفسي للمتكلم ولا سياق الحديث، «واعتبرت اللغة مجرّد نشاط عقلي.» [2] وهذا هو الذي جعلنا نعتبرها نظرية بنوية غير وظيفية.برغم مناهضتها لكثير من الأفكار البـــنوية السوســـيرية؛ فهي تعيب عليها وقوفها عند وصف الصورة (الشكل) وعدم تجاوزها إلى التفسير، كتوضيح أشكال التحويل من البنية العميقة إلى البنية السطحية.

الجديد في نظرية تشومسكي هو التحويل من البنية العميقة إلى البنية السطحية، وهو الذي أحدث ثورة لســـانية وفي الوقت ذاته كان منطلقا لانتقاد هذه النظرية، وجعل الكثير يعزف عنها؛ فهذه النظرية تركِّز على الخطاب أكثر مما تركِّز على المخاطِب والمخاطَب والواقع النفسي والاجتماعي لهما وظروف الخطاب ومـــا دعا إليه، وهذا كله هو الانشغال الذي حمله التيار الوظيفي التداولي الذي تجاوز التجريد والبعد عن الواقع اللغوي، ورفض فكرة التحويل وجعل لكلّ عبارة أو كلام وظيفته وحاله ومقامه مهما تشابهت هذه العـــبارات، وكـــلّ تغيير فيها سواء كان حذفا أو زيادة أو تقديما أو تأخيرا ...له استقلاليته ووظيفته وما يـــبرِّره، والاتجاه الوظيفي يصف القدرة اللغوية للمتكلم/المستمع باعتبار هذه القدرة مجموعة قواعد بنوية وظيفـــية تمكـــنه أي هذا المتكلم/المستمع المحدَّد من استعمال عبارات محددة في موقف تواصلي محدد لأداء غرض محدد [3].و البنوية الأمريكية بقدر ما اعتبرها كثير من الباحثين لا تمتّ بصلة لأفكار سو سير[4] يقرّ آخـــرون بأنّها ترتبط بسبب أو بآخر بالفكر السوسيري لكون سوسير المؤسّس الحقيقي للبنوية الحديثة[5] وإليه « يرجع ما أطلق عليه اسم الألسنية البنيوية عامة »[6].

غير أنّ الدراسات اللّسانية لم تبق حبيسة تفكير سو سير بل تطورت على أيدي كثير من الباحثين منهم

(1) انظر: أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 26 .

(2) يحيى أحمد:**الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة**،مجلة عالم الفكر"الألسنية"،تصدرها وزارة الإعلام،الكويت، المجلد20، العدد3، 1989،ص70.

(3) انظر: أحمد المتوكل: **الوظيفة والبنية**، منشورات عكاظ، الرباط، 1993، ص10.

(4) انظر: عبد القادر المهيري : اللسانيات الوظيفية، ص39.

(5) انظر: عمر مهيبل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص20.

(6) محمد الشاوش: سو سير والألسنية، ص5.

العلمـــاء الـــروس مثل جاكبسون وتروبتسكوي وكارشنسكي، والعالم الفرنسي إميل بنفنست، والعلماء الأمـــريكان مـــثل بلومفيلد و تشومسكي وسابير، والدانماركي هلمسليف، وغير هؤلاء كثير وقد كانت أعمالهم متفاوتة القيمة العلمية ويمكن تلخيصها إجمالا فيما يأتي[1]:

أ- ظهور مفهوم النسق وعدم عزل الحدود ودراستها مترابطة.

ب- التفريق بين التعاقب والتزامن، وتقديم التزامن على التعاقب خاصة عند المدارس الألسنية اللاحقة بعد سو سير.

ج- « الانـــتقال مـــن المستوى القصدي للأفراد الناطقين إلى المستوى القصدي الذي تهيمن عليه قوانين النسق، فعقلانية النسق الألسني هي عقلانية غير قصدية ».

د- أســـبقية التحلـــيل التّزامني (في اللسانيات البنوية) على تحليل التأثيرات الخارجية التي يمكن أن تمرّ بها الظواهر اللغوية.

ولا ننســـى هـــنا أنّ النّحو التوليدي التحويلي لتشومسكي أدرج فيما بعد المستوى التداولي بالإضافة إلى المستويات(الصوتية والصرفية والتركيبية)، وذلك كونه يحدّد هذه المستويـــات ويكون سببا في وجودهـــا وهي خدم له، وهذا من أهم مبادئ الدراسة الوظيفية. فتشومسكي يقر في أواخر السبعينيات بأنّ للمتكلم قدرتين: قدرة نحوية، وقدرة تداولية[2].وهذا الاعتراف قد يكون من تداعيات ظهور الاتجاه الوظيفي الذي بـــدت معالم وجوده مع مدرسة براغ 1926، وراح يتطور إلى أن اكتسى صبغة التداولية مع سيمون ديك في 1978. وهذا سنتناوله في فقرات لاحقة.

ثانيا: نظريات لسانية وظيفية :

مفهوم الوظيفة:

يقول ابن منظور:« وظف: الوظيفة من كل شيء :ما يقدر له في كل يوم من رزق، أو طعام، أو علف، أو شراب وجمعها الوظائف والوُظُف. ووظف الشيء على نفسه ووظفه توظيفا. ألزمها إياه، وقد وظفت له توظيفا على الصبي كلّ يوم حفظ آيات من كتاب الله عزّ وجل. »[3] ، فالوظيفة عمـــوما هي الدَّور،

(1) انظر: عمر مهيبل: البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص21، 22.

(2) انظر: المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص30.

(3) لسان العرب، 6/ 460، 461.

وكلمة "وظيفة" في الدراسة اللغوية لها معنيان يهمّنا أولهما، وهذان المعنيان هما:

– الوظيفة بمعنى الدور الذي تؤدّيه اللغة كظاهرة اجتماعية وهو التّواصل.

– الوظـــيفة بمعـــنى العلاقـــة الـــتي تقوم بين عناصر الجملة كعلاقة الإسناد في الدّراسة الوظيفية للجملة، وكالعلاقات المقترحة في إطار الجهاز الوظائفي المعقّد[1] عند سيمون ديك وتعني بدورها الوظائف الثلاث: الوظائف الدلالية (وظيفة المنفذ ووظيفة المتقبل ووظيفة المستقبل ووظيفة المستفيد..)، والوظائف التركيبية (وظـــيفة الفاعل ووظيفة المفعول)، والوظائف التداولية(وظيفة المبتدأ، وظيفة المحور، وظيفة البؤرة، وظيفة المـــنادى، وظـــيفة الذيل). وكالعلاقات التي تقوم بين العناصر اللغوية في البنية النحوية للتعبير (الفونيم، المورفيم، الكلمة، المركب ... الخ)

نركز في دراستنا هذه على الوظيفة التي تعني الدور المنوط ببنيات اللغة ككل وهو التواصل.

الوظيفية: نسبة إلى الوظيفة، كقولنا مدرسة لغوية نسبة إلى اللغة، وتعني في الاتجاه الوظيفي التداولي ارتباط بنية اللغة بوظيفة التواصل والبيان، ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة وتابعة لها، « وتقوم فرضية الوظيفية علـــى اعتبار الوحدات اللسانية من خلال دورها الذي تلعبه في التواصل» [2]، ونجد الدكتور عبد الرحمن الحـــاج صالح يفسر الوظيفة بالعمل أو الدور المؤدَّى (التبليغ)، والوظيفية عنده نسبة إلى هذا، حيث يقول عـــن مدرسة براغ: « أخَص شيء تمتاز به هذه المدرسة عن غيرها هو اعتمادها الأساسي على العمل(أو الـــدور)الـــذي تـــؤديه العناصر اللغوية في عملية التبليغ ولهذا سميت النزعات المتفرعة عنها(ومنها مدرسة مارتيني الفرنسية) بالوظيفية »[3]، وإلى هذا المصطلح تنسب مدارس واتجاهات لغوية بدأت تبرز مع ظهور مدرســـة براغ وتحاول أن تفسّر ظواهر اللغة من كلّ جوانبها. ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفي الذي أشرنا إليه والذي يعتبره بعضهم نقيضا للاتجاه التحويلي[4]، وذَا موقف نقدي من التيار البنوي الذي انبثق عنه وعُدّ مندرجا فيه [5].

---

(1) انظـــر: مســـعود صـــحراوي: **"المنحـــى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي**، مجلة الدراسات اللغوية، يصدرها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، المجلد الخامس، العدد الأول، أفريل/ يونيه، 2003، هامش ص14.

(2) محمد الحناش: البنيوية في اللسانيات، ص96.

(3) عبد الرحمن الحاج صالح: **مدخل إلى علم اللسان الحديث**(3)، مجلة اللسانيات، المجلد الثاني، العدد1، 1972، الجزائر، ص54.

(4) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص 70.

(5) انظر: عبد القادر المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص39.

ذكـــرنا ســـابقا أن التيار البنوي يعتبر اللغات الطبيعية بنيات مجرّدة، توصف بغض النظر عن مقاماتها التواصلية وظروف إنجازها، ويقابل هذا التيار التيارُ الوظيفي(*Functionalism*) الذي يرى أن اللغة وسيلة الإنسان في التبليغ والتواصل وترتبط بمقوماته الاجتماعية والثقافية والحضارية، يقول د.عبد السلام المسدي:« محدد اللغة وظيفيا أنها أداة الإنسان إلى إنجاز العملية الإبلاغية في صلب المجتمع مما يطوع تحويل الـــتعايش الجماعــــي إلى مؤسســـــة إنسانية تتحلى بكل المقومات الثقافية والحضارية »[1]ومن أهمّ مبادئه « اللغات الطبيعية بنيات تحدد خصائصها (جزئيا على الأقل)ظروف استعمالها في إطار وظيفتها الأساسية وظيفة التواصل»[2]، ويدخل ضمنه: النظريات التي تأخذ بعين الاعتبار البعد التداولي في وصف اللغة ومنها ما كان يدعى"الدلالة التوليدية"(*Generative semantics*)، والنظرية الوظيفية المقترحة في إطار مدرســـة هارفـــارد الأمـــريكية، والمدارس الوظيفية الأوربية التي منها المدرسة النسقية(*Systemics*) ومدرسة براغ (*Functional sentence perspective*) وأخيـــراً **النحـــو الوظيـــفي** (*Functional Grammar*) لسيمون ديك*Simon Dik 1978*[3] . ونظرية النحو الوظيفي هـــي التي نتخذها إطارا نظريا لبحثنا، وهي من أهمّ وأحدث النظريات اللسانية الوظيفية التي كان لها وقع كـــبير في مـــيدان الدراســـات اللغوية مما دفع « بأصحاب بعض النظريات اللسانية الأعرق، مثل النظرية التولـــيدية والتحويلية، إلى إعادة النظر في أسس نظريتهم ومبادئها، أو تركها والتحول عنها إلى التيارات الوظيفـــية» [4] .ومن الاهتمام بها أن اضطُرّ بعض الباحثين واللغويين إلى إعادة دراسة قواعد لغاتهم « فقد أصدر معهد اللغة الرّوسية التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية عام 1970 كتابا جديدا لقواعد اللغة الروسية المعاصـــرة انطلاقـــا من النظرية البنيوية الوظيفية.كما درس الكثير من لغات العالم من مواقع تلك النظرية كالإنكليـــزية والتشـــيكية واليابانية...وعقدت مؤتمرات دولية لبحث المسائل المتعلقة بالتقسيم الوظيفي للجملـــة»[5]، وبهذا يمكن القول بأنّ المنهج الوظيفي نال شهرة واسعة بين الدراسات اللغوية المعاصرة بل وأصبح محل استقطـــاب كما أشرنـــا لكثير من نوابغ البـــاحثين والدارسين وهذا بعد أن أثبتت الدراسة

(1) **اللسانيات وأسسها المعرفية**، الدار التونسية للنشر ،تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986، ص31.

(2) أحمد المتوكل: **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، دار الثقافة ، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص 8.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص8 .وانظر: المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 26.

(4) روبـــنز: **موجز تاريخ علم اللغة**،ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،1997، ص361، 362. نقلا عن: (مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 13).

(5) جعفر دك الباب: **الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني**، مطبعة الجليل، دمشق، سوريا،ط1، 1980، ص116.

الوظيفية موضوعيتها العلمية وواقعيتها اللغوية في كثير من مبادئها المنهجية، مما أدّى بالتيارات الأخرى إلى فقـد الكـثير من مصداقيتها وضعف قدرتها على الجذب وصدّ المناصرين عنها، ومردّ هذا كله ليس هو طريقة تحليلها التراكيب(الجهاز الوظائفي)، ولا مثالية مفاهيمها الإجرائية، ولاما اعتمدته من رموز رياضية وتشـكيل معقّد للصيغ(1)، ولكن السّبب هو أنها لم تهمل أساسيات يفرضها الواقع اللغوي ولكن أهملتها النظـريات السـابقة، ومـنها ظـروف إنجاز الخطاب والحال النفسي والاجتماعي لكل من المخاطِب والمخاطَـب، وملابسـات الخطـاب والغرض منه...والأنحاء الوظيفية تنظر إلى اللغات الطبيعية على أنها بالإضافة إلى كونها بنية أو نسقا شكليا(صوتيا، صرفيا، تركيبيا، معجميا...)تعتبر أداة لوظيفة أساسية هي التواصل؛ فاللسانيات الوظيفية-حسب "كونو"- هي« مقاربة لتحليل البنية اللغوية تعطي الأهمية للوظيفة التواصلية لعناصر هذه البنية بالإضافة إلى علاقتها البنيوية.»(2)،كما يمكن أن تؤدّي اللغة وظائف أخرى قد تكون أشكالا مختلفة لوظيفة التواصل منها الوظيفة الجمالية التي هي تحويل لوظيفة التواصل عن غرضها(3)، ومنها الوظائف السّت(*)المشهورة عند ياكبسون(1896-1982)، والتي اقترحها في1963، والوظائف الثلاث (الوظيفة التمثيلية والوظيفة العلاقية والوظيفة النصية) الواردة عند هاليداي 1970(4)، والتي حاول على غرارها أن« يقيم نظاما نحويا على أسس دلالية وظيفية .» (5)

فالاتجـاه الوظيفـي ينظر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية تربط البنية اللغوية بوظيفة الاتصال(6) ، وتعتبرها أصواتا ومعنى يربطهما الحافز التواصلي بين أفراد المجتمع اللغوي(7) .

وضعت الأسس الأولى للنظرية الوظيفية مع دراسات ماثسيوس ابتداء من1911(8)وهذه الأسس أشتات لا

(1) انظر: مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 13.

(2) أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص104.

(3) انظر: عبد القادر المهيري : اللسانيات الوظيفية، ص42 .

(*) انظر: تفصيل هذه الوظائف في: الفصل الأول، ص36 ، وما بعدها.

(4) انظر: أحمد المتوكل: **قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية**، البنية التمثيلية، أو التمثيل الدلالي التداولي، دار الأمان، 1995، الرّباط، ص14.

(5) يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص93.

(6) انظر: جعفر دك الباب: النظرية اللغوية العربية الحديثة، ص 61.

(7) انظر: أحمد حساني: **مباحث في اللسانيات**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999، ص137.

(8) انظر:جيفري سامبسون:**المدارس اللغوية، التطور والصراع**، ترجمة أحمد نعيم الكراعين،المؤسسة الجامعية للدراسات،بيروت، لبنان،ط1، 1993، ص106. وانظر: سعدي الزبير: العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، ص 20.

تكاد تذكر أو يتحدّد لها اتجاه فنجد أكثر الدارسين يؤرّخون للمدرسة الوظيفية مع مدرسة براغ1926.

المدارس الوظيفية : نركّز هنا على أشهر المدارس :

1- مدرسة براغ :

اللسانيات الوظيفية منحى تكونت ملامحه في حلقة براغ التي استفادت من آراء سو سير وشكلت نظرية مستقلة أساسها اعتبار اللغة نظاما وظيفيا يمكّن الإنسان من التواصل والإفصاح عن مقاصده ورغباته.

كـــان أوّل اجتماع لــ"وليم ماتسيوس" التشيكي *(Mathesius)* (1882-1945)، ومجموعة من المهتمين بالدراسات اللغوية من الذين التزموا بمنهج هذه المدرسة -أينما كانوا- في أكتوبر 1926، وقد عـــرف هـــذا التجمع فيما بعد باسم (مدرسة براغ) [1]. «وقد ضم المجمع عددا من اللغويين الأوكرانيين والألمان والروس والسلافيين ممن لم يكونوا يقيمون في تشيكوسلوفاكيا. فالتسمية إذن لا تشير إلى المحلية، ولكـــنها تســـتخدم اســـتخداما علميا لتشمل تلك النظرة الخاصة التي تميزت بها هذه المدرسة في التحليل اللغـــوي ألا وهـــي النظرة الوظيفية.» [2]، نذكّر هنا أنّ دعوة ماثيسيوس الأولى لدراسة اللغة دراسة غير تاريخية كانت في حوالي1911 [3].

اللغـــة ككل عند مدرسة براغ لأجل خدمة هدف، وهذا ما امتازت به عن المدارس الأخرى المعاصرة لهـــا، وهي أداة تواصل تحلل بواسطتها التجربة البشرية -حسب كل مجموعة إنسانية وحسب مبدأ خطية اللغـــات الطبيعـــية- إلى وحدات صغرى دالة تسمّى اللفاظم *(Monèmes)*، وهي بدورها تقطع إلى وحدات متتالية أصغر منعدمة الدلالة تسمى الصواتم *(Phonèmes)*تختلف من لغة إلى أخرى من حيث طبيعـــتها وعـــددها غير أنها محدودة العدد في كل لغة.وتحدد اللفاظم و الصواتم بواسطة ما يسميه أتباع مدرسة براغ التقطيع المزدوج الذي تشترك فيه كل اللغات الطبيعية[4].وتصنف اللفاظم إلى ثلاثة أنواع[5]:

1- اللفـــاظم المستقلة*(Autonomes)*، ومنها في العربية على سبيل المثال بعض الظروف مثل: حيث وبعد وقبل و الأفعال.

---

(1) انظر : يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص 73.

(2) المرجع نفسه، ص74.

(3) انظر : جيفري سامبسون: المدارس اللغوية، ص106.

(4) انظر : عبد القادر المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص41 ، 42 .

(5) انظر: المرجع نفسه، ص48.

2- اللفاظم الوظيفية*(les monèmes Fonctionnels)* مثل:حروف الجر وحروف العطف .

3- اللفاظم التابعة*(Dépendants)* وهذا النوع تتعدد وظائفه ...كالمرتبة أو الاتصال بلفظم وظيفي أو الإعراب كما هو الشأن في العربية.

وهناك جانب آخر اهتمت به مدرسة براغ وهو التحليل الوظيفي للجملة؛ فالمستويات الثلاثة للجملة: الــنحوي والصــرفي و الدلالي تتفاعل خلال عملية الاتصال اللغوي لتنتج الكلام الذي يقوم بالتعبير عن الوظيفة المقصودة من تفاعل هذه المستويات وهي التواصل.

والجملـــة بحسب المنظور الوظيفي تتألف من شقين[1] هما: المسند إليه (*Theme*) ويسمى الموضوع: وهـــو يـــتعلق غالبا بشيء يعرفه السامع (أو أشير إليه في الجمل السابقة)، والمسند (*Rheme*) ويسمى المحمـــول: وهـــو الذي يحمل خبرا أو حقيقة جديدة حول الموضوع المطروح، وصنَّفت النظرية الوظيفية الوظائف في الجملة أو العبارة الواحدة إلى وظائف أولية ووظائف غير أولية: ففي المثال: زار الطفل الحديقة بكـــل أجنحـــتها أمـــسِ.كل من زار والطفل وظائف أولية والباقي وظائف ثانوية.كما أنه ليست كل الوظائف الأولية متساوية الأهمية في الكلام[2].

اهتمت مدرسة براغ بالمعنى خلافا للمدارس البنوية التي ربطت المعنى بفكرة المنبه ورد الفعل؛ فمدرسة بلومفـــيلد وغـــيره من اللغويين الأمريكان قد تأثّروا بالفلسفة السلوكية وربطوا المعنى بالمثير والاستجابة؛ حيث انصرف التوزيعيون عن دراسة المعنى لما تثيره من مشاكل لا حلّ لها– حسب ما يراه الوظيفيون – إلا في اعـــتماد مفهـــوم الوظيفة التي هي العلاقة التي تنشأ بين عناصر الجملة أو الملفوظ وبها يمكن ضبط المعـــنى، فعلى أساس الوظيفة هذه (وظيفة التواصل)تختار عناصر الجملة أو الملفوظ ولا يُلتفَت لما لا يؤدي وظـــيفة أو شحنة إخبارية أو تبليغية[3]، فلم تُعَر قضية المعنى الاهتمام الكافي في الاتجاهات البنوية مثل ما نالته في المدارس الوظيفية[4] ، كمدرسة براغ التي هي بدورها لم تسلم من نقائص حالت دون تفسير بعض الظواهر اللغوية وأثارت انتقادات منهجية نذكر أوضحها :

– ما تثيره ازدواجية التقطيع التي تبنى على أساس أن يقابل كلَّ مدلول دالٌّ في مدرج الكلام من تعسّف في

---

(1) انظر: جيفري سامبسون: المدارس اللغوية، ص107.

(2) انظر: عبد القادر المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص50.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص51.

(4) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص74.

تحليل الدوال الممزوجة فمثلا نجدهم يتكلفون في تحديد الدال على الجمع في كلمة رجال .

– عـــدم القدرة على تفسير ظاهرة النغمة التي تضطلع بوظيفة في الاستفهام والتعجب مما يجعلها تعوض دوالّ يمكن تحليلها إلى أجزاء في مدرج الكلام(1).

– اعتماد المعنى بجانب الشكل في وصف اللغة يثير تأويلات قد تتعدّد وتحدث مشاكل.

2– مدرسة لندن :

المنحـــى الوظيفـــي عـــند مدرســـة لندن يتعامل مع المستويات أو الأنظمة الأربعة في التحليل اللغوي (الأصوات، المفردات، النحو، الدلالة)، وبرز فيه توجهان؛ أحدهما يتزعمه فيرث والآخر يتزعمه هاليداي:

أ– المعـــنى وســـياق الحال عند فيرث: دعا فيرث إلى التركيز على المعنى في دراسة اللغة وذلك في إطار العلاقـــات المتشابكة التي ينجز فيها الكلام؛ فالكلام بمعناه ليس وليد لحظة محددة وإنما هو حصيلة مواقف عديدة في المجتمع، فاللغة تدرس بمراعاة سياق الحال وذلك لكونها جزءا من حياة المجتمع، وفي هذا الجانب يبدو تأثر فيرث بأفكار مالينوفسكي(2).

ب– الـــنحو النسقي(النظامي) لهاليداي (*Systemic grammar*): النحو النسقي وضع أسسه النظـــرية البروفيسور مايكل هاليداي ، وواصل البحث في إطاره أتباعه. ويعتبر من أكثر النظريات تكاملا عند مدرسة لندن ومن مبادئه:

– وظائف التراكيب تحدِّد إلى حد بعيد الخصائص البنيوية لها (الصرفية، التركيبية...).

– النحو مبني على أساس تعدد وظائف اللغة *Multiple function* بحسب التركيب أو البناء اللغوي. فاللغة غنية يجد مستعملها ما يعبر به عن كل أفكاره ومشاعره(3).

يقترح النحو النسقي وظائف ثلاث للغة تمثلها البنية مرتبطة بالنشاط اللغوي والبيئة الاجتماعية، وهذه الوظائف تؤديها وسائل ثلاث أيضا تسمّى أنساقا، وهي:

ب–1 الوظـــيفة التمثيلية: وهي وظيفة تمثيل الواقع، ويطابقها نسق التعدية. يتضمن نسق التعدية مفاهيم دلالية كمفهومي"المتقبل والمنفذ"، كما يشمل أيضا ظروف الكلام الحالية وملابساته.

ب–2 الوظيفة التعالقية: وهي وظيفة التعالق بين المشاركين، ويطابقها نسق الصّيغة.ويعبر هذا النسق عن

---

(1) انظر: عبد القادر المهيري : اللسانيات الوظيفية، ص51.

(2) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص82.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص89.

مفهومي "الجهة والقضية"، والقضية بدورها مكونة من "فاعل وفضلة وتوابع".

ب-3 الوظـــيفة النصية: وهي وظيفة تنظيم الخطاب حسب مقتضى الحال ويطابقها نسق المحور ويشمل العلاقات ذات الطابع التداولي إذ يعبر عن مفاهيم تداولية (أو نصية) كمفهوم "التعليق" ومفهومي "المعطى والجديـــد".والوظائف الثلاث تتكامل في بنية لغوية واحدة لتحقيق الوظيفة الأساسية للغة وهي التواصل والإبداع، هذا الإبداع اللغوي *Creativity* يتمثل في قدرة المتكلم على خلق معان جديدة، لا في قدرة المتكلم على توليد أو خلق جمل جديدة كما يرى التحويليون « وهذا المثال يوضح الاختلاف الجذري بين اتجاه شومسكي العقلاني واتجاه هاليدي الوظيفي فعلى حين ينظر شومسكي إلى اللغة على أنها شيء نعرفه، ينظر هاليدي إلى اللغة على أنها شيء نفعله»[1].

3- الوظيفية عند هايمز *Hymes*:

الـــنمط الوظيفـــي الـــذي اقتـــرحه هايمز يبدو أنه جاء رد فعل على التيار العقلاني الذي نشر أفكاره تشومسكي وأتباعه، وأهم ما نسجله بهذا الصدد من فرق بين التيارين هو أن تشومسكي قد حصر معرفة الفـــرد بلغـــته في شـــيئين: الملكة الذهنية لقواعد هذه اللغة، والتي سماها "القدرة" *Competence*، والاستعمال الفعلي للغة والذي سماه " الأداء *Performance*. بينما هايمز يرى أنّ القدرة اللغوية هي أوسع من أن تكون ملكة ذهنية لقواعد اللغة بل تتمثل في القدرة على الاتصال الذي هو الوظيفة الأساسية للغات عامة وهذا هو الذي يناسب الطبيعة الاجتماعية للغة[2].

ويمكنـــنا القول هنا أنه مع هايمز تطور مفهوم"القدرة"ولم يبق مقصورا على ملكة قواعد اللغة، وتوليد عدد لا متناه من الجمل، وإنما روعيت فيه اعتبارات وظيفية، وأصبح يشمل أمورا أخرى من بينها [3]:

أ- مراعاة عنصر النية أو القصد في التعبير(مثلا تغير الدلالات عند المزاح).

ب- وجود مهارات عديدة للمتكلم والمتلقي بحكم كونهما أفرادا في بيئة اجتماعية ثقافية معينة(مثلا مهارة الاستماع والكياسة والأدب).

جـــ- أهمية التقاليد الاجتماعية والأعراف والموروثات الشعبية في استعمال اللغة وفهمها وتحليلها.

بقي أن ننبه إلى أن اتجاه هايمز عبارة عن مقترحات دلالية من الممكن توظيفها في تحليل النصوص، وفي هذا

---

(1) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص89 .

(2) انظر: المرجع نفسه، ص94.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص95.

المجال تلتقي آراؤه مع آراء هاليداي، و لم يكن اتجاه هايمز نظرية لها مبادئها المستقلة [1].

4- النحو الوظيفي التداولي (سيمون ديك/أحمد المتوكل):

كان فضل السبق في دراسة اللغات في جانبها التداولي لفلاسفة اللغة العادية، فقد أبرزوا بعض الظواهر المتعلقة بالواقع الاستعمالي للغة في المقامات المختلفة للوصول إلى أهداف، وللإفصاح عن رغبات، من ذلك مـــا وضـــعوه من تحليلات لظواهر مرتبطة بالإحالة والاقتضاء وأفعال الكلام، وتم اقتراض هذه المفاهيم لتســـتعمل في الدراســـات اللغوية[2]، والتعاون بين الفلاسفة واللغويين مثمر لاسيما فيما يخص « أمهات القضايا من حيث تحليل اللغة، وأعني بها: كيفية تفاعل البنية والوظيفة »[3]، لكن سرعان ما تجاوز الدرس الوظيفـــي الـــتداولي الـــتفكير الفلسفي في اللغة وعمل على صقل أدوات تحليله [4]. وهو يتناول الكيفية والشـــروط الخارجية لاستخدام دوال اللغة أثناء الخطاب، كما يتناول طريقة تفسيرها انطلاقا من المقام، وسياق الحال أثناء التعبير عن الأغراض التواصلية لا قبله ولا بعده، فنظرية النّحو الوظيفي تعتبر خصائص بنيات اللغات تحدد بحسب الأهداف التواصلية التي تستعمل هذه اللغات لتحقيقها[5]، وتختلف جذريا عن البـــنوية الـــتي تدرس اللغة الميتة باعتبارها نظاما معزولا عن الواقع الذي أنتج فيه، وتكتفي بالمدوّنة، وتعدّ العناصر الفاعلة في الكلام وملابساته عناصر خارجة عن اللغة.

رغم تباعد زمن وجود المدارس الوظيفية الثلاث (براغ، النحو النسقي، النحو الوظيفي)واختلاف بيئاتها الثقافـــية تشترك في مجموعها في نظرتها لطبيعة اللغة:« فاللغة وسيلة اتصال اجتماعية يستعملها الفرد لأداء وظائـــف مخـــتلفة للتأثير على الآخرين»[6]. كما أنها انفردت عن غيرها من المدارس بمبدأ علاقة الوظيفة بالبنية وهو مبدأ هام، إذ قامت بدمج مستوى **تداولي** بالإضافة إلى المستويات(الصوتي، الصرفي، التركيبي)، ضمن الجهاز الواصف للغة ليضطلع برصد الترابط القائم بين البنية ووظيفتها التواصلية،وذلك أنّ الخصائص

---

(1) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص95 .

(2) انظر: أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص15.

(3) الجيلالي دلاش: **مدخل إلى اللسانيات التداولية**، ترجمة:محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص52.

(4) انظر: المرجع نفسه، ص51 .

(5) انظر: الوظائف التداولية في اللغة العربية، ص10.

(6) يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص73.

التداولية للعبارات اللّغوية تتفاعل في تحديد خصائصها البنوية[1] سواء على مستوى الجملة أو على مستوى الـــنص، وهنا نشير إلى أن الدراسات الوظيفية ركّزت في الفترة الأخيرة على الأسلوب، وأسس الربط في الـــنص[2]، وتشـــترك في مجموعة من المبادئ المنهجية التي تؤسّس لوظيفيتها وإن اختلفت بعض الشيء في نموذج جهاز الوصف[3]، ولنا أن نلخص أهم المبادئ المنهجية المعتمدة في الدرس الوظيفي فيما يأتي [4] :

أ- للغة وظائف متعددة تعدد الأغراض المستعملة لأجلها، ولكن الوظيفة الأساسية هي وظيفة التواصل.

ب- ترتبط البنية بالوظيفة ارتباطا يجعل البنية انعكاسا للوظيفة.

ج- موضـــوع الوصـــف اللغـــوي هو "القدرة التواصلية(*Communicative.competence*) للمـــتكلم/المخاطَب، والقدرة هذه هي مجموع القواعد البنوية/الوظيفية التي تمكنه (المتكلم/المخاطَب) من استعمال عبارات لغوية معينة لتأدية أغراض معينة في مواقف تواصلية معينة.

د- تشـــكل النحو الكلي مجموعة من المبادئ العامة الرابطة بين أنماط من الأغراض وأنماط من التراكيب اللغوية.

هـــــ- تتفاضـــل الأنحاء حسب استجابتها لمبدأ الوظيفية، أي حسب قدرتها على رصد الظواهر اللغوية وتفسيرها في إطار الارتباط القائم بين البنية والوظيفة .

و- يجـــب أن يصاغ النحو بحيث تكون الخصائص التركيبية الصرفية ناتجة عن قواعد تتخذ دخلا لها البنية الممثل فيها للخصائص الدلالية والتداولية.

وتنفرد نظرية النحو الوظيفي لسيمون ديك بمبدأ آخر بالإضافة إلى المبادئ المذكورة هو:

- يجب أن يسعى النحو الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق ثلاثة أنواع من الكفايات[5]:

أ - الكفاية التداولية *(Pragmatic adequacy)*

ب - الكفاية النفسية *(Psychological adequacy)*

ج- الكفاية النمطية *(Typological adequacy)*

---

(1) انظر: أحمد المتوكل: الوظيفة والبنية، ص25.

(2) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص97.

(3)، (4) انظر: المتوكل: الوظيفة والبنية، ص10.

(5) انظر: *Simon Dik* في: المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص78. الوظائف التداولية، ص10. دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص9. قضايا اللغة العربية، ص13 وما بعدها.

الشكلية والوظيفية في النحو العربي

يذكر علماء اللغة أنّ النحو العربي نشأ أوّل مرة لإصلاح وتقويم اللّحن الذي وقع في قراءة القرآن، وفي ضـــبط أواخر كلماته بالذات، وبدأ ينتشر في البيئة العربية بسبب دخول الأعاجم والموالي في الإسلام وقد تصدى لهذا اللحن علماء أفذاذ ووضعوا قواعد تركّز على العلامة الإعرابية[1] ومبنى الكلمات دون الانتباه كـــثيرا إلى المعـــنى وهـــذا التوجه قد فرضته ظروف تعليم اللغة لغير الناطقين بها، وفي هذا المضمار يقول د.حســـان تمام:« ولكن الظروف التي دعت إلى نشأة الدراسات اللغوية العربية كانت العامل الرئيسي في تحديـــد مسار هذه الدراسات وفلسفة منهجها. فلقد نشأت دراسة العربية الفصحى علاجا لظاهرة كان يخشـــى منها على اللغة وعلى القرآن، وهي التي سموها(ذيوع اللحن)...من هنا اتسمت الدراسات اللغوية العـــربية بســـمة الاتجاه إلى المبنى أساسا، و لم يكن قصدها إلى المعنى إلا تبعا لذلك، وعلى استحياء »[2] .
واســـتمر هذا التركيز على المبنى أو الشكل زمنا طويلا، إلى أن صار عيبا انتُقده بعض علماء اللغة، ومنهم الشـــيخ عبد القاهر الذي نجده يردّ على الذين قصروا النحو على الشكل وتحقيق العلامة الإعرابية قائلا: « وأما النحو فظننته ضربا من التكلف، وبابا من التعسف، وشيئا لا يستند إلى أصل، ولا يعتمد فيه على عقل، وأنّ ما زاد منه على معرفة الرفع والنصب وما يتصل بذلك مما تجده في المبادئ، فهو فضل لا يجدي نفعا ولا تحصل منه على فائدة، وضربوا له المثل بالملح كما عرفت»[3].شبه النحو بالملح في الطعام قاصدا أنـــه مهم، ولكن يؤخذ منه على قدر الكفاية، ولا يعني أنه يزهد في النحو، ويقلل من شأنه بل بالعكس يحـــذر مـــن ذلـــك[4]، وعن إبعاد النحاة القدامى مجال النحو عن علم المعاني، وضرر ذلك يقول الأستاذ إبراهيم مصطفى: « فالنحاة حين قصروا النحو على أواخر الكلمات وعلى تعرف أحكامها قد ضيقوا من حـــدوده الواســـعة، وســـلكوا به طريقا منحرفة، إلى غاية قاصرة، وضيعوا كثيرا من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة. فطرق الإثبات، والنفي، والتأكيد، والتوقيت، والتقديم، والتأخير، وغيرها من صور الكلام قد مروا بها من غير درس، إلا ما كـــان منها مـــاسّاً بالإعراب، أو متصلا بأحكـــامه،

(1) محمود أحمد نحلة: **لغة القرآن الكريم في جزء عمّ**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص453، 454.

(2) **اللغة العربية معناها ومبناها**، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1998، ص11، 12.

(3) **دلائل الإعجـــاز في علم المعاني**، شكله وشرح غـــامضه وخرج شواهده ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،ط1، 2000، ص67، 68.

(4) انظر: المرجع نفسه،ص87،86.وانظر:**أسرار البلاغة في علم البيان**،تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت،(د.ت)، ص55.

وفاهم لذلك كثير من فقه العربية، وتقدير أساليبها»[1] وكلامه هذا لا نظنه يقصد به مرحلة نشأة النحو إذا ما نظرنا إلى ظروف هذه المرحلة، فما يريده أن يتجسد من الطبيعي أن يأتي في مراحل متطورة يطلب فــيها الإبــداع في الدراسة اللغوية، وذلك حينما يكون المتلقون لهذه اللغة أناسا فهموا على الأقل بعض أســرارها ولطائفهــا، أمّــا أنْ تقدم هذه النماذج والأساليب لغير العربي فهذا غير ممكن. وقد كان هذا الاهــتمام بالشّكل أكثر من المعنى في بدايات نشأة النحو لغرض التعليم، أما فيما بعد فقد ظهر عند كثير مــن حــذّاق الــنحاة والبلاغــيين والأصــوليّين والمفسّرين الاهتمام بالمعنى أو بوظيفة الكلمات بجانب شــكلها،وعالجوا ظواهر لغوية تماثل تلك التي عولجت في النحو الوظيفي المعاصر ومما تصدوا لــه ظاهرة التــرابط بين البنية الشكلية للغة وخصائصها الوظيفية التداولية[2]، ومن هؤلاء الأفذاذ سيبويه، ابن جني، الجــرجاني، الســكاكي...،فقد كان لهؤلاء وقفات منثورة فيما تركوه لنا تظهر حقّا عدم إهمالهم لمعاني ووظائف البنيات والتراكيب، ومن ثمّ معرفتهم بالوظيفة الأساسية للغة وعلاقة البنية بالوظيفة كل ذلك في إطار التواصل[*] فقد عرّف "ابن جني" اللغة على هذا الأساس قائلا:« أما حدّها فإنها أصوات يعبر بها كلّ قــوم عن أغراضهم »[3]؛ فاللغة ليست صوتا فقط ولا مجموعة تراكيب معزولة ولا لفظا مجردا من معنى، بــل هــي أداة تطلبتها أحوال البشر للتعبير بها عن أغراضهم من خلال خطابات معينة تجرى في مقامات معيــنة، يقــول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح:« إن تعلم اللغة لابدّ أن يستجيب لما يحتاج إليه المتعلم للتعبير عن كل ما يختلج في نفسه وما يبدو في ذهنه وما يكنه من غرض، فاللغة وضعت للتبليغ والاتصال قبل كل شيء، فإذا لم يفهم ذلك المعلم وقصد تعليم الأساليب التي يجدها في النصوص في ذاتها ولنفسها، أي كــنماذج الأســاليب الجميلة، ودون مراعاة الاحتياجات التعبيرية الحقيقية التي يشعر بها المتكلم عند اســتعماله الفعلي للغة في مختلف الأحوال الخطابية التي تثيرها الحياة اليومية فإنه يكون بذلك أخطأ الغرض والأساس بل جمد بذلك استعمال اللغة العربية وقصره على الجانب الأدبي الجمالي ليس غيره»[4].

---

(1) **إحياء النحو**، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2003/1423، ص 2،3.

(2) انظر: أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص41.

(*) وسنوضح شيئا من هذا لاحقا في الفصل الأول ص43، وما بعدها.

(3) **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، 2000، 33/1.

(4) **الأســس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي**، المجلة العربية للتربية، تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، العدد2، 1985، ص22.

ظهــر جليا مع عبد القاهر الجرجاني(ت471 هـــ) ربط البنية اللغوية بوظيفتها، فقد جعل لكل غرض أو وظــيفة تؤدّى بواسطة اللغة وجها من التراكيب خاصا بها. وهذا ما سمّاه عبد القاهر– عند توضيحه لحقــيقة الـــنظم في الكـــلام–بمصطلح الوجوه والفروق؛ أي تختلف وجوه(صور) البنيات بحسب فروق (خـــواص) المعـــاني، حـــيث يقول:« وإذْ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق، التي من شأنها أن تكون فيه فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجـــد لهـــا ازديادا بعدها ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب مواقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض.» [1]

خطر رفض المناهج الحديثة

قراءة التراث اللغوي العربي من منظور حديث ضرورية لفهمه ولإدراك الإمكانات الفنية للغة العربية[2] ومن التحضر مسايرة ما استجد بالاستفادة من صحيحه وتقويم خاطئه، أما الدعوة إلى رفضه إطلاقا وعدم الـــتفاعل معـــه فهـــذا من الجمود، وهو الذي يستحق الرفض. ورفض المناهج اللغوية الحديثة دعوة غير صـــحيحة بل هي دعوة غير إنسانية[3] والانبهار بها والتقليد الأعمى لأفكارها من غير تمحيص ولا غربلة أيضـــا دعوة غير صحيحة، ولهذا علينا أن نتعامل مع المناهج الحديثة باستقلالية فكر ونظرة إنسانية بريئة، كما أنه علينا أن نأخذ في الحسبان خصوصية تراثنا، فنحن نعلم بأنّ تراثنا العربي نحوَه وبلاغتَه وضع على أسس معرفية وفكرية خاصة به يختلف بها عن الأنحاء الأخرى ومن ضمنها نظرته للبحث في اللغة و طريقته في تحليل بنياتها يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: « النحو العربي قد وضع على أسس إستمولوجية مغايـــرة لأســـس اللســـانيات البـــنوية وخصوصا في المبادئ العقلية التي بنيت عليها تحليلاته.هذا وليس الاخـــتلاف مـــتوقفا على هذا الجانب بل هناك أيضا اختلاف آخر في النظرة إلى البحث في اللغة نفسه وتدوين الكلام من أجل التحليل » [4].

---

(1) الدلائل، ص132.

(2) انظـــر: عـــبد العزيـــز حمودة: **المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس، 2001، ص323.

(3) انظر: عبده الراجحي: **النحو العربي والدرس الحديث**، دار النهضة العربية، بيروت، 1986، ص160.

(4) المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم المعاصر، ص373.

انطلاقــا مــن هذا يتوجب علينا قراءة تراثنا قراءة واعية تكشف عن أسراره وتخرج كنوزه، ففيه من الأحكــام ما يمكن أن يعمّم على اللغات الإنسانية أكثر من النظريات الغربية، كما يمكن أن نستفيد من المـــناهج الحديثة ونقرأ في ضوئها تراثنا، هذا ما دعا إليه الكثير من الباحثين العرب ومنهم الدكتور أحمد المتوكل الذي يرى أنّ مبادئ الدراسة اللغوية في الفكر العربي القديم تؤاسر بشكل أو بآخر المبادئ المنهجية الــتي تحكــم الـــدرس اللغوي الوظيفي المعاصر[1]، كما يتوجب علينا الاطلاع على ما وصل إليه غيرنا والاستفادة مما حقّقوه من إنجازات علمية، أما التطبيق الحرفي للنظريات الغربية ومناهجها فهو مجزوم بعدم صلاحيته في ميدان الدرس اللغوي العربي وفي النقد الأدبي[2].

---

(1) انظر: اللسانيات الوظيفية، ص84.

(2) انظر: محمد العيد رتيمة: **النظرية البنيوية الوظيفية العربية وتطبيقاتها في الدرس اللغوي**، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، العدد9، 1996/1416، ص14

الفصل الأول

الوظيفية في الفكر اللّساني المعـــاصر

1- الوظيفية البنوية

أ- الوظيفية عند مارتيني

ب- النموذج الوظيفي عند رومان جاكوبسون

ج- الوظيفية عند البنويين العرب "تمام حسان نموذجا"

2 - الوظيفية التداولية (سيمون ديك/أحمد المتوكل)

3 - ملامح المنحى الوظيفي في التراث العربي

سبق أن ذكرنا أنّ النظريات اللسانية المعاصرة تُقسّم بالنظر لوظيفة اللغات الطبيعية إلى مجموعتين اثنتين: نظـــريات لســـانية صورية، ونظريات لسانية وظيفية، والقسم الثاني هو الذي نحن بصدد الدراسة ضمن مجالـــه، وهـــنا ينبغـــي أن نشير ابتداء إلى أن النظريات الوظيفية قُسّمت أيضا إلى وظيفية بنوية، ووظيفية تداولـــية. و الاتجاه الوظيفي البنوي هو الذي يركز على وظيفة البنيات اللغوية، وقد بدأ يظهر مع حلقة بـــراغ التي استفادت الكثير من آراء دي سو سير كما استقلت بمبادئ منهجية ومنطلقات نظرية جعلتها مدرســـة لغوية تتميز عن غيرها وهي تنطلق أساسا في منهجها من اعتبار اللغة « نظاما وظيفيا يرمي إلى تمكـــين الإنســـان من التعبير والتواصل»[1]، أما الاتجاه الوظيفي التداولي فهو الذي ينظر إلى اللغة مرتبطة بمخـــتلف الظـــروف والملابسات المقامية التي تنتج فيها الجمل أو ينجز فيها الكلام لأداء وظيفة التواصل كذلك.

1- الوظيفية البنوية

1-1- الوظيفية عند أندري مارتيني *A.Martinet* "(1908- 1999):

يعتـــبر أندري مارتيني أحد أبرز مؤسّسي اللسانيات البنوية الأوربية، وخاصة ما تعلق بالجانب التركيبي للغة؛ أي مستوى التركيب في الجمل، وفي هذا يظهر تأثره بلغويي مدرسة براغ الذين كانوا ينحون منحى وظيفيا في دراسة الجملة، وذلك بما أسموه الوجهة الوظيفية للجملة[2] « على أن النظرية الوظيفية لم تتبلور في كـــل مظاهرها مع حلقة براغ ، فقد تواصل بناؤها وصقلت مبادؤها ومفاهيمها في فرنسا عن طريق أنـــدري مارتيني خاصة»[3]، في مؤلفاته: مبادئ في اللسانيات العامة 1960، واللسانيات الآنية 1970، واللغـــة والوظيفـــية 1970. ويعترف مارتيني باتفاقه مع مدرسة براغ في كثير من الآراء وبانتمائه إليها، حـــيث يقول:« وأحبّ أن أقول إنّي عندما قرأت عن مدرسة براغ شعرت أنني متفق معها في الكثير من الـــنقاط وقد كان هذا في الثلاثينيات...فأحبّ أن أقول إنّني من مدرسة براغ اللسانية ولكنني في الوقت نفسه أختلف معها حول بعض القضايا اللسانية »[4]. كما يقر بمساهمة الكثير من البحوث العربية في بناء

---

(1) عبد القادر المهيري : اللسانيات الوظيفية، ص40.

(2) انظر: مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص19.

(3) عبد القادر المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص41 .

(4) مارتيني في: مازن الوعر: دراسات لسانية تطبيقية، ص288.

اللسانيات الحديثة وبعثها [1].

أ- مفهوم الوظيفة عند مارتيني:

عــرّف أندري مارتيني اللسان في إطاره الوظيفي مؤكّدا على وظيفته التواصلية. فهو يرى أنّ الوظيفة الأساسية للسان البشري هي ما يسمح لأيّ إنسان أن يبلّغ تجربته الشخصية ويتواصل مع غيره من الناس[2] وهــنا يقــر بــأن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل بين أفراد المجتمع، ولا ينفي الوظائف الأخرى التي تؤديها.

ب- مبدأ التقطيع المزدوج:

التقطـــيع: هو تصور(تجريد) تعزل من خلاله القطع لتظهر كوحدات وتكتب على شكل تسلسلي[3] ، ويتضـــام التقطـــيع مع الاستبدال لاكتشاف المورفيمات وللعثور عليها. كما يساعد الاستبدال أيضا على التصنيف.

التقطيع المزدوج: التقطيع الأوّل تُبلَّغ وفقه أحداث التجربة إلى الغير حيث تحلل هذه التجربة إلى وحدات مــتلاحقة لكل منها دال ومدلول، وتسمى هذه الوحدات باللفاظم *(les monèmes)*. وهي التي عن طريق التأليف بينها يمكن لنا التواصل، والتقطيع الثاني يحدِّد الوحدات التي لا تقبل أن تتجزأ إلى وحدات أصغر ذات دلالة، وتسمى هذه الوحدات بالفونيمات*(les phonèmes)*.

ج- علاقة البنية بالوظيفة عند مارتيني:

يصنف مارتيني الوحدات اللغوية انطلاقا من وظائفها إلى مونيمات هي:

1- **المونـــيم المكتفـــي** *M.autonome* : وهـــو وحـــدة دالة تتضمّن في بنيتها دليل وظيفتها مثل: اليوم/غدا...ويمكن أن ينتقل المونيم من موقع إلى آخر وذلك لاكتفائه بذاته [4]، كما في قولنا: غدا أسافر، أو أسافر غدا. فكلمة غدا هنا مستقلة بنفسها وتغيير موقعها لا يؤثر على المعنى.

2- **المونيم الوظيفي** *M.fonctionnal*: وهو الذي يساعد على تحديد وظيفة عناصر أخرى مشاركة

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص285.

(2) انظر: Martinet**: La linguistique synchronique,** P.U.F, Paris, 1970 , P9 .

(3) انظـــر: عـــبد الرحمن الحاج صالح: **مفهوم البنية والوظيفة عند البنويين والوظيفيين الأوربيين**، مقياس: المدارس اللسانية، محاضرة على طلبة الماجستير، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، بوزريعة، الجزائر، 2004/2003.

(4) انظر: Martinet: **Eléments de linguistique** générale, Armand Colin, 1970, P111.

له في الوظيفة العامة للتركيب ولا يمكن لها أن تستقل بنفسها في السياق الذي ترد فيه...كوظيفة حروف الجر ووظيفة حروف العطف في العربية.

3- **المونيم التابع** *M.dépedant* :وهو مونيم تتحدّد وظيفته بتعلقه بغيره ولا يستقل في التركيب.

4- **التـــركيب المكتفي***Le Syntagme autonome*: وهو يتركب من مونيمين فأكثر، وتتحدد وظيفته بدلالته الكلية كتركيب، ففي قولنا: في البيت رجل؛ عبارة في البيت تعتبر تركيبا مكتفيا.

5- **التركيب الإسنادي***LeSyntagme prédiatif*: التركيب الإسنادي هو النواة التي ينبني عليها الملفوظ، ويتكون من عنصرين أساسيين لا يمكن حذف أحدهما، وهما: المسند إليه، والمسند.

6- **الإلحاق** *Expansion*: وهو كل ما يضاف إلى النواة الإسنادية من عناصر تركيبية، والإلحاق عند مارتيني ضربان: إلحاق بالعطف(*Coordination*)، وإلحاق بالتبعية(*Subordination*).ويختلف الـــثاني عن الأول من حيث التطابق الوظيفي للعناصر الملحقة، ففي الإلحاق بالتبعية تختلف وظيفة العنصر التابع عن وظيفة العنصر المتبوع ويشمل الإلحاق: النعت، والمضاف إليه، والمفعول، والمعطوف الخ [1] .

7- **المزج** *Amalgame*:وهو الربط بين دالين ليصبحا دالا واحدا، مثال ذلك في اللغة الفرنسية: مزج a وle لتصبح au؛ فـــ au دال ترابط فيه دالان، وهو غير قابل للتحليل ويكون في تراكيب خاصة[2] .

نخلص من هذا التصنيف إلى أن النحو عند مارتيني هو تحديد وظيفة كلّ عنصر وعلاقته بباقي العناصر في الكـــلام. وقـــد رأى مارتيني أنه توجد وسائل ثلاث لوسم العلاقات في النحو تقوم على مبدأي العلاقة والرتبة، وهذه الوسائل هي: الاكتفاء، والرتبة و اللجوء إلى وحدات مختصة لا وظيفة لها معينة في ذاتها[3].

كما رأى أن هناك عناصر ثلاثة يمكن أن تحلل في الجملة، وهي : المسند (أي فحوى الكلام)، والمسند إليه (وهـــو الفاعل غالبا في اللغات الهندية الأوربية)، وأنماط الإلحاق،كالنعت والعطف والإضافة والظرف[4].

ويرســـم مـــارتني مراحل ثلاثا لعملية التحليل هي: مرحلة التقطيع (استخراج الوحدات الدالة). ومرحلة مقابلة الوحدات المستخرجة، ومرحلة إقامة تقسيم الكلمات بناء على وظائفها.

---

(1) انظر: أحمد حساني: مباحث في اللسانيات، ص117.

(2) انظر: الطيب دبة: مبادئ اللسانيات البنوية، ص113.

(3) انظر: سعدي الزبير: العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، ص 25.

(4) انظر: أحمد محمد قدور: **مبادئ اللسانيات**، دار الفكر، دمشق، ط2، 1999، ص 246.

وبعد عملية التحليل تأتي عملية العرض، وهي عملية ذات هدف تعليمي، ولها مراحل ثلاث أيضا، وهي على التوالي:[1]

– مرحلة الجرد: وتتمثل في وضع قائمة للأقسام الموجودة، و تعداد الوحدات في هذه الأقسام.

– مرحلة التصريف: وتمكن من عرض مختلف الوجوه التي يظهر فيها الدال وفي عرض مختلف أوضاع هذه الوجوه.

– مرحلة علم التراكيب الذي يبين كيف تأتلف الكلمات لتشكل كل الأقوال الممكنة.

رغـــم مـــا كتبه مارتيني وما حققه من مكانة علمية بين اللسانيين باحثين وعلماء خاصة فيما تعلق بعلم الأصـــوات الوظيفـــي وبالدراســـة التركيبية، فقد رأوا أنها بلغت مرحلة متميزة من مراحل تطورها لدى مارتـــيني. إلا أننا نجده محل انتقاد من طرف بعض أساتذتنا وذلك في كون ما كتبه أمورا سطحية يتشبث فـــيها برأيه وبأفكاره بخلاف علماء اللغة المعاصرين الآخرين من أمثال جاكبسون و تشومسكي فقد رأى أنّهما كتبا أمورا عميقة تشهد بعبقريتهما[2].

1-2- النموذج الوظيفي عند رومان جاكبسون (1896-1982)[*]

أ- المبادئ الوظيفية عند جاكبسون :

نحاول أن نقتصر على المبادئ التي نرى أن لها علاقة بدراستنا وهي:

1- العلاقة بين البنية والوظيفة :

يركز جاكبسون في دراسته الشعر على أهمية العلاقة بين الدال والمدلول أو بين الإشارة والمعنى، ويرى أنـــنا لا نســـتطيع أن نحلل اللغة دون الرجوع إلى دلالة الأشكال، كما لا نستطيع الفصل بين مستويات الدراسة اللغوية (الشكل والدلالة) ، وهو لا ينظر إلى الأشياء في حدّ ذاتها معزولة بل ينظر إلى العلاقات

---

(1) انظر: سعدي الزبير: العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، ص 28.

(2) انظـــر: عبد الرحمن الحاج صالح: **مقارنة بين التحليل البنوي الأوربي، و التحليل البنوي الأمريكي**، مقياس: المدارس اللسانية، محاضرة على طلبة الماجستير، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، بوزريعة، الجزائر، 2004/2003.

(*) ولـــد رومان جاكوبسون في موسكو في 11 تشرين الأوّل من عام 1896، من عائلة يهودية روسية بورجوازية ترسل أولادها إلى البندقية وباريس وألمانيا ليتعلموا اللغات. أشهر مؤلفاته: "دراسات في اللسانيات العامة"(*Essais de linguistique générale*). "مسائل الشعر" (*Questions de poetique*). انظر: فاطمة الطبال بركة: **النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993، ص 15، 23 ، 24.

القائمة بينها [1].

2 – ثنائية التفكير الألسني:

يـــرى جاكبســـون أنّ العلاقة الثنائية تسيطر على مختلف المستويات اللغوية، فكما نجدها في الأصوات نجدها في الدلالة وفي غيرها [2] ومن العلاقات الثنائية التي أقرّها :

2-1 التزامن والتعاقب.

2-2 المحور الاستبدالي والمحور النظمي.

2-3 الانتقاء والتنسيق (انتقاء الكلمات والتنسيق بينها في الجملة).

2-4 اللغـــة الهـــدف/ وما وراء اللغة؛ فالهدف من اللغة هو التواصل، وما وراء اللغة هو شرح المبهم من الكلمات .

2-5 الخطاب الخارجي والخطاب الداخلي بين مرسل ومستقبل، أو أن يمثل أحدهما الدورين.

2-6 ثنائية السمات التمايزية[3].

3–التفريق بين النحو والدلالة :

يرى جاكبسون أن النحو يهتم بعلاقات البنية الخطية أو التركيب فيما بينه، أي يهتم بمحور التتابع (التسلسل المنطقي) وتعتمد الدلالة على إبراز الفوارق بين التراكيب؛ أي يهتمّ بمحور الاستبدالات[4] وهذا قد يؤدي بنا إلى اعتبار وظيفته وظيفية ضعيفة؛ وذلك كون النحو الوظيفي لا يحصر دراسة النحو في البنية الظاهرة فقط بل يراعي ملابسات الخطاب وحال المخاطبين ومقاصد الكلام وأغراضه.

ب- نظرية التواصل والوظائف اللغوية

هناك فرق واضح بين حلقة الكلام عند سو سير ومخطط التواصل الكلامي عند جاكبسون، فبينما نلاحظ تجاهل سو سير البعد التبليغي نجد جاكبسون قد اهتم به اهتماما كبيرا في نظرية التواصل عنده[5] فهو يَعتبر

---

(1) انظر: Roman jakobson: **Essais de linguistique general** .Paris .minuit .1973. P 133.

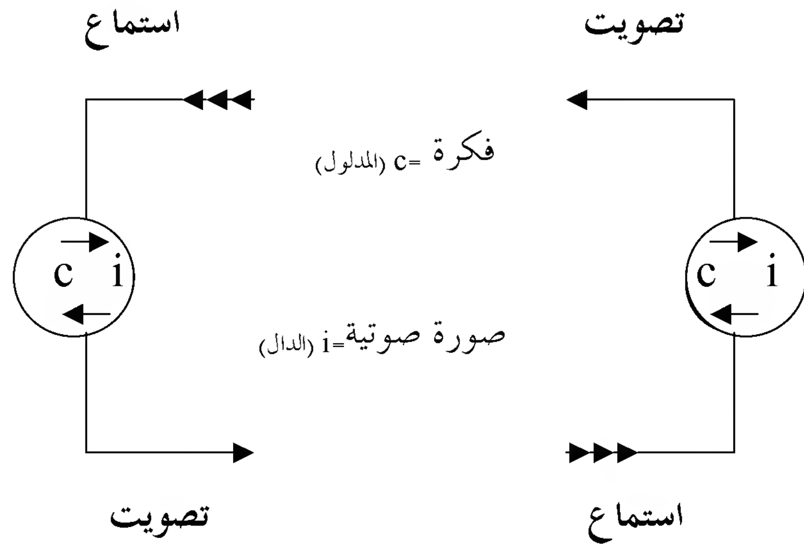
(2) انظر: فاطمة الطبال بركة: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، ص33.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص41.

(4) انظر: المرجع نفسه، ص62.

(5) انظر: الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 15. وانظر: فاطمة الطبال،ص63.

التبليــغ والتواصل من أهمّ وظائف اللغة التي تتعدد بتعدد الأغراض المستعملة لتحقيقها، فاللغة تُدرس – حســـب ياكبســـون- في إطـــار وظائفها وتستلزم تحليل العوامل الستة المؤلفة لكل تواصل كلامي، هذه العـــوامل هي: الرسالة، المرسل، المرسل إليه، الاتصال بينهما، المرسلة(نص الرسالة)، المدونة التي تنتج فك الرموز. والمخططان يوضحان ذلك:



حلقة الكلام عند سو سير

سياق

مرسل　　　　　مرسلة　　　　　مرسل إليه

اتصال

نظام رموز

عوامل التواصل الكلامي عند جاكبسون

تـــنجم عـــن كل عامل من عوامل التواصل(مكونات عملية التبليغ) الستة وظيفة لغوية مختلفة، غير أن المرســـلات(نصوص الرسائل) ذاتها كثيرا ما تؤدي وظائف مختلفة، حسب بنيتها الكلامية التي تكون دائما مـــرتبطة بالوظيفة الأساسية[1]، وتعدُّد وظائف اللغة لا يعني أنها متساوية الأهمية بل هي جميعا متفرعة عن الوظـــيفة الأساسية للغة وهي التواصل، وقد حدّد جاكبسون للغة ست وظائف مختلفة ترتبط بستة عناصر أو مكونات تتحكم في عملية التبليغ، هي كالآتي:

1- الوظيفة المرجعية (الإحالية) *La Fonction référentielle*: وهي التي نجدها في كل تواصل وفي كل الخطابات ووجودها قد يكون عفويا، وفيها يحيل المتكلم بخطابه على واقع، وهذه الإحـــالة هي

---

(1) انظر: ميشال زكريا: **الألسنية، قراءات تمهيدية**، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط2، 1985، ص85، 86.

تواصـــل بـــين المخاطبين. وبهذا يمكن القول أن الوظيفة المرجعية وظيفة تواصلية. ويحققها عنصر السياق، وذلك باستخدام الدليل كوسيلة للتمثيل أو الإخبار أو الشرح[1].

2- الوظيفة التعبيرية (الانفعالية) *La Fonction expressive* : وتتجلى في طريقة الأداء والتأثير في العواطف ويحققها عنصر المرسل وذلك بموقفه أو سلوكه أو تفاعله مع ما يقوله أو ما يخبر عنه.

3- الوظيفة الشعرية (الإنشائية) *La Fonction poétique*: وتنجزها اللغة أثناء الخطاب المشحون بـــدلالات داخلـــية[2]،ولا تميز الشعر فقط بل وكل الفنون الجمالية، والرسالة هي غايتها وموجهة إليها مباشرة.

4- الوظيفة الإفهامية (الندائية) *La Fonction conative* : وتقوم على المرسل إليه، وتتم بتوجيه خطاب لشخص آخر، أو إثارة انتباهه، بأمره بالقيام بعمل ما، أو ندائه وهو مدعو لأن يرد .

5- الوظيفة الانتباهية (اللغوية) *La Fonction phatique*: وهي تتجلى في الكلمات التي تدل علـــى إبقاء الاتصال بين المرسل والمرسل إليه ، ومن هذه الكلمات(آلو/*Allo* ،كلمة هاه)، فهي تكاد تخلو من معنى حرفي سوى الدلالة على بقاء الاتصال، أو تمديد الحوار أو إنهائه، وتتعلق بقناة التخاطب.

6- الوظـــيفة الماوراء لغوية *La Fonction métalinguistique* : وتتجسّد في الخطابات التي تكون اللغة هي ذاتها مادة دراستها (وصف اللغة أو تحليلها وتحديد مفاهيمها)[3] مثلا المصطلحان: الفاعل والمفعول هما عبارتان ما وراء لغويتين لكونهما لا تدلان على مدلولين في الواقع الخارجي[4] ويحدد الوظيفة الماوراء لغوية الوضع.

ويمكن تلخيص هذه الوظائف في المخطط الآتي:

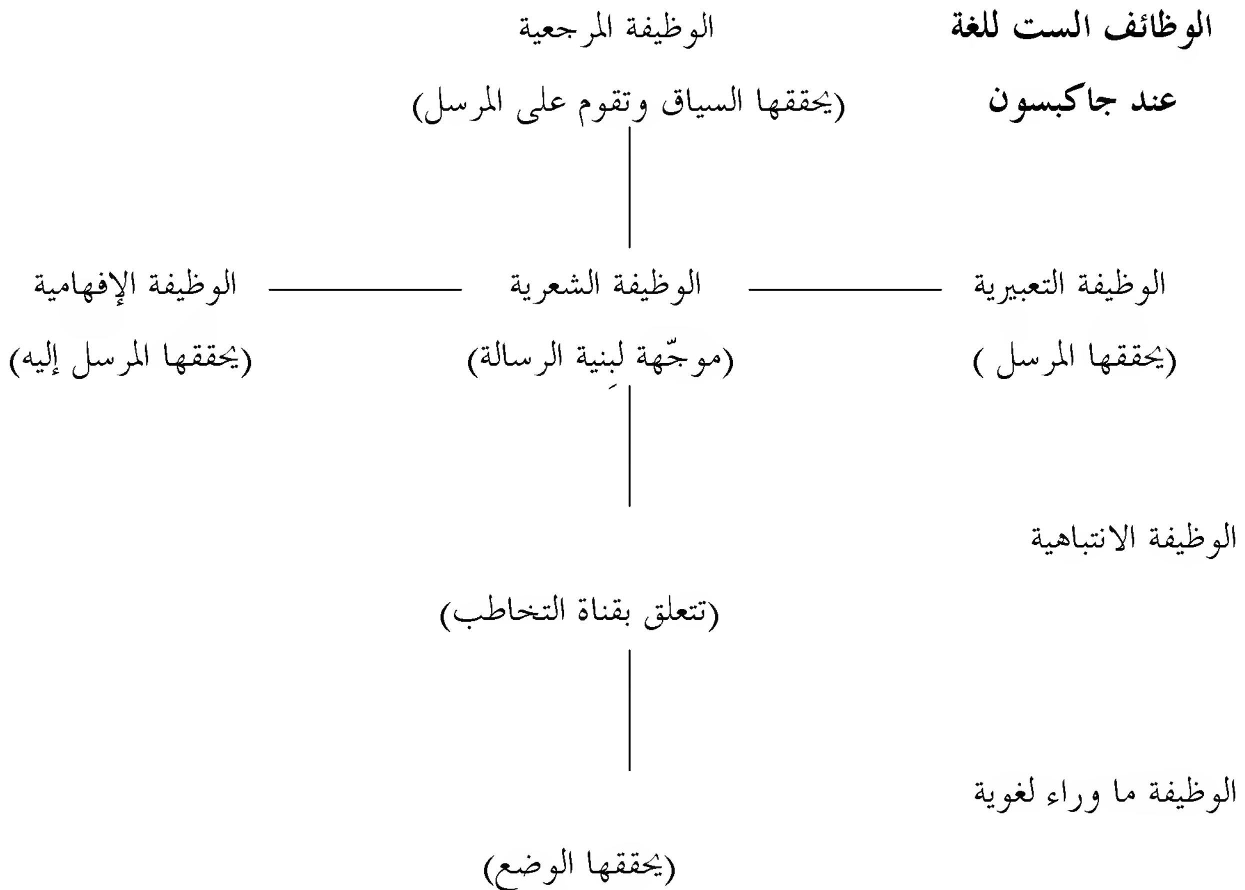
---

(1) انظر: الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص16.

(2) انظر: أحمد المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص47.

(3) فاطمة الطبال: النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون ،ص67.

(4) انظر: المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص47.



1-3 – الوظيفية عند البنويين العرب"تمام حسان نموذجا"

1-3-1 مبدأ تضافر القرائن

يرى الدكتور تمام أنه لا يمكن تأدية المعاني الوظيفية لعناصر اللغة في غياب القرائن الثلاث: اللفظية والمعنوية والحالية متضافرة، وفيما يلي نتعرض لها بإيجاز:

أ- القرائن المعنوية (قرائن التعليق):

وهي معاني النحو أو العلاقات السياقية *(Syntagmatic relations)*.

1- **الإسناد:** هو العلاقة الرابطة بين المسند والمسند إليه،كالعلاقة بين المبتدأ والخبر، والفعل والفاعل.

2- **التخصيص:** ويضم مجموعة من المعاني التي تقيد الإسناد، ومن فروع هذه القرينة: التعدية والغائية والمعية والظرفية والإخراج، والملابسة للهيئات...، ومبرر هذه التسمية عند الدكتور تمام أنّ فروع هذه القرينة قيود مخصصة لعلاقة الإسناد [1] .

3- **النسبة:** وتعني الإلحاق، وتشمل المجرورات (معاني حروف الجر ومعنى الإضافة) [2] ؛ فحروف الجر

---

(1) انظر: اللغة العربية معناها ومبناها، ص195.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص201.

تلحق معاني الأفعال إلى الأسماء وتنسبها إليها.

4- **التبعية:** وتضم التوابع المقررة في النحو العربي(النعت والعطف والتوكيد والإبدال) .

5- **المخالفة:** وتعني مخالفة أحد أجزاء التركيب أحكام الإسناد الجاري، كما هو في باب الاختصاص.

ب–القرائن اللفظية :

وهي ما يقدمه علما الأصوات والصرف للنحو من قرائن صوتية أو صرفية، وهي:

1- **العلامة الإعرابية:** اهتم النحاة القدامى بقرينة الإعراب اهتماما كبيرا، مع أن الإعراب وحده لا يكفي في تحديد المعنى النحوي ما لم يتضافر وسائر القرائن المعنوية و اللفظية. ولذا درسوا علامات الإعراب وحركاته التي تتغير في أواخر الكلمات بتغير المواقع انطلاقا من فكرة العامل الذي يرى فيه النحاة الأوائل مفسرا للتغيير الحاصل فيها، والعامل النحوي يعتبره الدكتور تمام «مبالغة أدى إليها النظر السطحي والخضوع لتقليد السلف والأخذ بأقوالهم على علاتها» [1] .

2- **الرتبة:** وهي وصف لمواقع الكلمات في الترتيب، وتعني التقديم والتأخير وتكون محفوظة، وغير محفوظة، وللرتبة بالغ الأهمية في تركيب الجمل فقد تكون صانعة للمعنى وموجهة له ففي التحية نقول: السلام عليكم. ولردها نقول: عليكم السلام. وقد تكون الرتبة هي المميز بين أقسام الكلم، فمن ذلك التفريق بين الظرف والأداة نحو:(أسافر متى أنهيت عملي- متى أنهيت عملي أسافر)، ففي المثال الأول "متى" ظرف وفي المثال الثاني "متى" أداة شرط؛ وقرينة الرتبة هي التي فرقت بين المعنيين.

3- **الصيغة:**هي المبنى الصرفي الذي يميز بين الأسماء والأفعال والصفات والحروف، فلكل واحد صيغته الخاصة به. ولا يكون الفاعل والمبتدأ ونائب الفاعل إلا أسماء... وللصيغ دور واضح في تحديد المعنى كذلك؛ ففي الجمل التي يتصدرها فعل يدل على معنى المشاركة لابدّ من أن يأتي فاعلان متعاطفان ولا يتم المعنى من دون الجمع بينهما، نحو: تَصالح زيد وعمرو.

4- **المطابقة:** تعمل على ربط الصلة بين أجزاء التركيب، ومسرحها الصيغ الصرفية والضمائر، وبدون مطابقة تصبح الكلمات مفككة ويختل المعنى، وتكون المطابقة في: العلامة الإعرابية، والشّخص(التكلم والخطاب والغيبة)، والعدد (الإفراد والتثنية والجمع) ، والنوع (التذكير والتأنيث) ، والتعيين(التعريف والتنكير) [2].

---

(1) المرجع السابق، ص207.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص211، 212.

5- **الــربط:** هــو اتصال ميدانه الألفاظ والتّراكيب. ويتمّ الربط بين الموصول وصلته، والمبتدأ وخبره، والحــال وصاحبه، والمنعوت ونعته، والقسم وجوابه، والشرط وجوابه ونحو ذلك. ويكون الربط بالضمير مستترا وبارزا، وبالحرف كالفاء الرابطة لجواب الشرط، وباللام الواقعة في جواب القسم، وبإعادة اللفظ أو المعنى...

6- **التضــام:** التضام نوعان: التضام في الجملة وهو توارد أو تتالي زوج من الكلمات لارتباطهما بحكم علاقــة بينهما، والتضام في النص هو ما يقوم بين مكونات ظاهر النص من ترابط متبادل وفقاً للأعراف النحوية، والتضام –حسب الدكتور تمام–يقتصر على الجملة، وله وجهان:

الوجه الأول: التوارد: وهو مصطلح بلاغي يعني « الطرق الممكنة في رصف جملة ما فتختلف طريقة منها عن الأخرى تقديماً وتأخيراً، وفصلاً، ووصلاً وهلم جرا »[1].

الوجه الثاني: التلازم:وهو «أن يستلزم أحد العنصرين التحليليين النحويين عنصرا آخر...أو يتنافى معه فلا يلتقي به ويسمى هذا التنافي.» [2]؛ والتلازم من مثل ما بين الموصول وصلته، وحرف الجر ومجروره، وواو الحــال وجملة الحال، وحرف العطف والمعطوف، والنواصب والجوازم والفعل المضارع الذي يأتي بعدها ونحو ذلك. ولا يحذف أحد المتلازمين إلا بوجود قرينة دالة على المحذوف.

7- **الأداة** : الأدوات تدخل على الجمل والمفردات، وتؤدي وظائف خاصة كالنفي والتأكيد والتشبيه... وتخلو من المعاني المعجمية، وتدل على معنى وظيفي عام هو التعليق، « وللأدوات ارتباط بالقرائن اللفظية في الســياق الــنحوي، إذ تكون وسيلة للربط، أو تعبيرا عن التضام ، ودليلا على الرتبة، وعاملا يؤثر في العلامات الإعرابية.»[3] .

8-**الــنغمة** :التنغيم هو الإطار الصوتي الذي تنطق به الجملة في سياق معين وله أشكال تختلف باختلاف الجمل؛ فشكل التنغيم في الجملة الاستفهامية وجملة العرض يختلف عن شكل التنغيم في الجملة المثبتة وكلها تخــتلف مــن حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة ...، فالنغمة هي التي تحدد طبيعة الكلام هل هو خبر أو إنشاء، أو هو استفهام أو تعجب أو سخرية أو قبول أو رفض...ويقــوم التنغيم في الكلام مقام علامات

---

(1) تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص216 .

(2) المرجع نفسه، ص 217.

(3) أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص237.

الترقيم في الكتابة، والتنغيم أوضح[1] .

جـ- قرينة الحال(السّياق) :

قرينة الحال (مقام الخطاب) تعتبر من أهمّ المعايير التي يصنف النحو على أساسها؛ هل هو نحو وظيفي أم هو غير وظيفي. نجد أنه يتعدد معنى النمط التركيبي للجملة الصحيحة نحويا وبالتالي نصبح بحاجة إلى قرينة من خارج الجملة تدلّنا على المعنى المراد، وهذه القرينة هي قرينة السياق التي يهتم بها الدكتور تمام اهتماما بالغا ويعتبرها كبرى القرائن النحوية « لأنها قد تعتمد على شيء من هذه القرائن النحوية المفردة أو تتجاوزها إلى أمور دلالية من العقل أو من المقام المحيط بالجملة»[2] ، فمما يحيط بالجملة من قرائن السياق أو المقام(المحيط الاجتماعي): العادات والتقاليد ، المأثورات والتاريخ، طبيعة المخاطب أو مكانته... ومن النماذج التي نقلها د. تمام من كتاب الله للتدليل على ما أقرّ:

* ﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾(الأنبياء: من الآية112)؛ يقول الدكتور تمام:« فليس الخبر في هذه الآية هو " ٱلرَّحْمَـٰنُ" وإنما هو" ٱلْمُسْتَعَانُ" لأن المقام مقام استعانة بالله ويدل على ذلك قوله قبل ذلك بقليل:﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ ﴾ (الأنبياء: من الآية109) فالموقف موقف مواجهة بينه وبينهم، فليس المقصود أن يطمعهم في الرحمة وإنما المقصود أن يستعين عليهم بالله.»[3] .

*﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ ﴾(التوبة: من الآية34)، وهنا نجد المحيط الاجتماعي متكأ لقرينة السياق؛ «إذ كان النبي ﷺ وكان أصحابه معه يعلمون من المحيط الاجتماعي الذي يحيط بهم ما المقصود بهذا الكلام وبالأحبار والرهبان »[4].

---

(1) انظر : حسان تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص227 .

(2) **البيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني**، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993، ص 212.

(3) المرجع نفسه ،ص 213.

(4) نفسه، ص 220.

*﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ (المائدة: من الآية 103) في هذه الآية ترتكز قرينة السياق على العادات والتقاليد «إذ كان الذين كفروا يفترون على الله الكذب فيجعلون هذه الأنواع من الإبل من تقاليد طاعتهم للطاغوت، ومثله: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ (النساء: من الآية 19) وكذلك: ﴿ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (النور: من الآية 33) »[1] .

* ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (آل عمران: من الآية 11) هناك إشارات إلى المأثورات والتاريخ، ويفتقر فهم النص إلى معرفة ذلك[2] .

* ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ (يوسف: من الآية 23). « تجنب الآية لفظ (سيدته) تكريما له وتحقيرا لها، وهذا شبيه بما في الآية الأخرى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ ﴾ (يوسف: من الآية 21) فليس هو سيدا ليوسف وليست هي سيدة له»[3] .

يمكن أن نخلص مما سبق إلى أنّ المعنى النحوي هو محصّلة تضافر القرائن الثلاث: المعنوية مع اللفظية مع الحالية.

1-3-2 مبدأ التعليق:

ذهب تمام حسان إلى أنّ الإعراب لا يكفي ليفسر المعنى النحوي، ولكن يفسر عن طريق فكرة التعليق التي جاء بها الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" .والتعليق عند الجرجاني-كما فهمه تمام- هو « إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية والحالية»[4] وهذه العلاقات تظهر من خلال التراكيب وأساليبها المختلفة وعناصرها المفردة مما يدفع إلى البحث في

---

(1) المرجع السابق، ص 220 .

(2) انظر: المرجع نفسه، ص 221.

(3) نفسه، ص 299 .

(4) نفسه، ص188 .

أقسام الكلم(الاسم والصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف، والأدوات) التي يختلف بعضها عن بعض شكلا ووظيفة، وتميز كل قسم أسس شكلية (مبان) وأسس وظيفية (معان)[1] .

ويرى الدكتور تمام أن التعليق يغني عما سماه النحاة بنظرية العامل وما يخص العمل النحوي والعوامل النحوية والتي رأى أنها خرافة، حيث يقول: « فهم "التعليق" على وجهه كاف وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي والعوامل النحوية.لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعا في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية.»[2]

ولتلميذه د.عبده الراجحي مناقشة عميقة لقضية الاستخفاف بفكرة العامل النحوي وظاهرة التقدير والرد على أصحابها، وكشف ملابسات ذلك، وتبرير علمية هذه الأفكار وصوابها والخلفيات الفكرية لها. [3]

1-3-3 ملخص الأفكار الأساسية لِنموذج تمام حسان :

لقد لخّص الدكتور تمام حسان نفسه الأفكار الأساسية التي قام عليها نموذجه[4]، ونذكر منها:

1-تقسيم سباعي للكلمات.

2-إمكان نقل لفظ من أقسام الكلم إلى استعمال آخر.

3-المعنى إما وظيفي أو معجمي أو دلالي.

4-قد يتعدّد المعنى الوظيفي للمبنى الواحد.

5-تنقسم الجملة إلى اسمية وفعلية ووصفية، كما تنقسم من حيث المعنى انقساما آخر: خبرية وشرطية وطلبية وإفصاحية.

6-إذا تحقق المعنى الوظيفي أمكن التحليل، ولو لم يتحقق المعنى المعجمي.

7-النحو نظام من القرائن التي تعبر عنها معان مأخوذة من الصرف والأصوات.

8-القرائن إما معنوية وإما لفظية والقرائن المعنوية هي العلاقات السياقية.

---

(1) انظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص86 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص189 .

(3) انظر: عبده الراجحي: **النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية** ضمن: **تمام حسان رائدا لغويا**، إعداد وإشراف: عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2002/1423، ص250، وما بعدها.

(4) انظر:تمام حسان: **تعليم النحو بين النظرية والتطبيق**، مجلة المناهل المغربية، العدد7، 1976، ص126.نقلا عن (محمود نخلة: **نظام الجملة في شعر المعلقات**، دار المعرفة الجامعية، مصر،1991، ص82، 83.)

9-القرائن لا تعمل إلا متضافرة فلا يمكن لواحدة منها أن تستقل بأداء.

10-التضام إحدى القرائن اللفظية وهو ينقسم إلى التلازم والتنافي والتوارد.

11-قد يتضح المعنى بدون إحدى القرائن فيمكن الترخص فيها بحذفها.

12-القول بتضافر القرائن يغني عن القول بالعامل.

13-هناك فرق بين الزمن النحوي والزمن الصرفي، فالنحوي هو الزمن في السياق، والصرفي هو الزمن في الإفراد.

14-لا يمكن فهم الزمن النحوي بدون فكرة الجهة التي تعدّ نوعا من تخصيص الدلالة في الفعل ونحوه.

15-الجهات المخصصة لمعنى الحدث في الفعل هي المنصوبات، والمخصصة لمعنى الزمن فيه هي النواسخ والأدوات والظروف.

16-علم المعاني قمّة النّحو العربي.

17-لا يمكن الاكتفاء بمعنى المقال عن المقام.

نالت أفكار الدكتور تمام قبولا واسعا بين الدارسين اللغويين ونُوّه بها وشُهّر لها، كما انتقدها كثير من الباحثين [*]ومن الذين انتقدوا أفكاره الدكتور محمد صلاح الدّين الشريف سنة1979. و أهمّ ما يأخذه عن نموذجه ما يأتي [1] :

1- انتحاؤه منحى وظيفيا أهمل فيه الوجه الشكلي والتركيب النحوي للجملة، وذلك نتيجة اتجاهه

(*) ذكر هو نفسه بعض الكتب والحوليات والمجلات التي تطرقت لأفكاره في تقديمه لكتابه: اللغة العربية معناها ومبناها، ص5 ،6. وقد توفّر لدينا كتاب عنوانه " **المنوال النحوي العربي"،قراءة لسانية جديدة،** كلية الآداب، سوسة، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، ديسمبر 1998، وهو في الأصل أطروحة دكتوراه لصاحبه عز الدين مجدوب. صدر بعد صدور طبعة 1998من كتابه "اللغة العربية"، وتناول أفكاره بالنقد بتوسع في المواضيع التالية: مقاربة التراث النحوي في ص37 وما بعدها، أقسام الكلام في ص192 وما بعدها، الوظائف النحوية في ص265 وما بعدها، حركات الإعراب في ص280 وما بعدها.

(1) انظر: محمد صلاح الدّين الشريف:النظام اللغوي بين الشكل والمعنى من خلال كتاب تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد 17، 1979.(نقلا عن: محمود نحلة: نظام الجملة في شعر المعلقات، ص84.)

الشـــديد إلى المعـــنى وهذا ما جعل الكتاب خاليا من معلومات واضحة عن تركيب الجملة العربية، فلم يتحدث عن البساطة والتركيب في الجملة إلا بشكل نحوي تقليدي بعيدا عن التحليل اللساني الحديث.

2- يتّجه في الدراسة النحوية اتجاها بلاغيا يتركّز على المخاطب أولا، ثم على الكلام، فما يهمه هو:كيف يصل المخاطب إلى الدلالة أي إلى فكّ رموز البلاغ الموجه إليه، ولا يهمه أبدا أن يعرف طرق المتكلم في وضـــع رموز البلاغ وكأنّه لا يكترث بدراسة الملكة (المقدرة) اللغوية، أي لا يكترث بدراسة السّر الذي يجعل الإنسان قادرا على خلق ما لا نهاية له من الجمل.

3- لم يأخذ العربية بالوصف من جديد، و لم يجمع لنفسه نصوصا يختبرها ويجرّدها بل أراد أن يتلافى نقص التراث بالتراث نفسه، فاستعان بعلم المعاني فإذا بالتركيب عنده ينحصر في الإنشاء والخبر وما تفرع عنهما

4- استعار بعض الأفكار من الألسنية ولكن بإعطائها مصطلحات قديمة...جعل نحوه في هذا الباب أقرب إلى نحو سيبويه و الجرجاني عمدا.

1-4 نقد الوظيفية البنوية :

تختلف الوظيفية البنوية عن الوظيفية التداولية وذلك لكونها تركز على الجانب الشكلي في البنية اللغوية ولا تراعـــي الجانـــب الوظيفـــي إلا تبعا. رغم هذا فقد نادت مبكرا بدراسة الجملة وظيفيا غير أن هذه الوظيفـــية تصـــف الجملـــة وتفسرها منعزلة عن ظروف وملابسات الكلام؛ فهي تهمل مكونات الكلام وارتباطاته(حال المخاطِبين و المخاطَبين وسياق الكلام ومقامه)، وفي هذا إهمال للجانب التداولي من اللغة البشـــرية، ممـــا أدى إلى ضعف مستواها الوظيفي« ولهذا السبب لا نعدها كافية منهجيا لتمثيل النظريات الوظيفـــية، علـــى الـــرغم من مناداتها المبكرة بأن الدراسة الوظيفية للجملة هي النهج السليم إلى وصفها وتفسيرها »[1].

2- الوظيفية التداولية (سيمون ديك/أحمد المتوكل)

تعتبر نظرية النحو الوظيفي *The theory of functional grammar* التي اقترحها اللساني ســـيمون ديك *Simon Dik* سنة 1978 [*]إحدى أهم النظريات اللسانية الوظيفية كما أنها جزء من نظـــرية تداولية شاملة يشكل التواصل اللغوي موضوعا لها[2]، وتعدّ- حسب د.أحمد المتوكل- « النظرية الوظيفية التداولية الأكثر استجابة لشروط التنظير من جهة، ولمقتضيات النمذجة للظواهر اللغوية من جهة

(1) مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 19.

(*)من خلال كتابه: Dik (Simon):**Functional grammar**, North Holland, Amsterdam,1978.

(2) انظر: محمود سليمان ياقوت: **فقه اللغة وعلم اللغة**، دار المعرفة الجامعية،مصر، 1995، ص225 .

أخـــرى، كمـــا يمتاز النحو الوظيفي على غيره من النظريات التداولية بنوعية مصادره. فهو محاولة لصهر بعض من مقترحات نظريات لغوية: النحو العلاقي(*Relational grammr*) نحو الأحوال(*Case grammr*) الوظيـــفـــية (*Functionalism*) ونظـــريـــات فلسفية: نظرية الأفعـــال اللغوية (*Speech theory acts*)»[1].

أقْـــبلَ الكـــثير من الباحثين على أفكار هذه النظرية وتجاوبوا مع الجديد فيها، ومنهم من دعا إلى إعادة النظـــر في أسس نظرياتهم ومبادئها أو تركها والتحول عنها –رغم سبقها وقيمتها العلمية– إلى التيارات الوظيفية،مثل أصحاب النظرية التوليدية والتحويلية[2] ، ويعود السبب في ذلك –حسب المبادئ المسطّرة في نظرية النحو الوظيفي– إلى أنها« اهتمت بتغطية جوانب أساسية في الظاهرة اللغوية، وسدّ ثغرات خلفتها النظريات غير التداولية في محاور حيوية،كـــ(الكلام، وسياق الحال، وملابسات الخطاب...) وإدراج ذلك كله ضمن وصف الظواهر اللغوية وتفسيرها.» [3]، وهي بهذا تحاول أن تحقّق مقياس الفصاحة ومقومات صـــحة التراكيب كما يراها بعض علماء اللغة والتي من أهمّها مطا بقتها لمتطلبات المناسبات، ومقتضيات الأحوال [4] ، أو ما يسمى بالخلفية الوظيفية التي تحقق صحتها النحوية الوظيفية [5] .

مرت نظرية النحو الوظيفي بمرحلتين هما:

نموذج الجملة (1978): ظهر مع كتاب سمون ديك"النحو الوظيفي"(*Functional grammar*)، وتلته أبحاث ومؤلفات أخرى، تعالج موضوع نحو الجملة .

نمـــوذج الـــنص (1989): ظهـــر مـــع كـــتاب ديك "نظرية النحو الوظيفي"(*The theory of functional grammar*) هذا النموذج يتميز عن النموذج الأول بأفكـــار جديدة تجـــاوزت نحو

---

(1) الوظائف التداولية، ص 9.

(2) انظـــر: روبـــتر: موجـــز تاريخ علم اللغة، ترجمة: أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1997، ص361، 362.نقلا عن:(مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 12.)

(3) مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 13 .

(4) انظر: مهدي المخزومي: **في النحو العربي، نقد وتوجيه** ، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986/1406، ص 226.

(5) انظر: عبد الجبار توامة: **المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي**، أعمال ندوة تيسير النحو المنعقدة في 23 ،24أبريل 2001، بالمكتبة الوطنية، الجزائر،2001، ص 282.

الجملة إلى نحو النص، وقد أُتْبِع هذا الكتاب بدراسات وأبحاث أجراها المؤلف مع عدد من الباحثين (منهم الدكـــتور أحمـــد المتوكل) وأعمالهم مستمرة إلى اليوم تقوم بضبط أفكار هذا النموذج وتدقيقها وتوسيع مفاهيمه [1].

المبادئ الوظيفية في نظرية النحو الوظيفي:

أهم ما يميز نظرية النحو الوظيفي معيار "الوظيفة" الذي على أساسه حدّد منظرو هذا الاتجاه منطلقات وأسس منهجية كلية تقوم عليها نظريتهم سمّيت المبادئ الوظيفية، نلخص أهمها فيما يلي [2] :

1- الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي وظيفة التواصل.

2- تحدد وظيفة اللغات الطبيعية الخصائص البنوية لهذه اللغات (تبعية البنية للوظيفة)

3- موضوع الدرس اللساني هو وصف"القدرة التواصلية"(*Communicative competence*) للمتكلم/المخاطب.

4-يجب أن يسعى النحو الرامي إلى الكفاية إلى تحقيق الكفايات الثلاث الآتية :

أ- الكفاية النفسية *(Psychological adequacy)*

ب- الكفاية التداولية *(Pragmatic adequacy)*

ج- الكفاية النمطية *(Typological adequacy)*

وفيما يلي تفصيل هذه المبادئ :

1- الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي وظيفة التواصل

الـــنحو الوظيفـــي نظرية لسانية تسعى إلى أن توصف اللغات الطبيعية وظيفيا وذلك باعتبار الخصائص البنوية للغات محددة(جزئيا على الأقل) بما تسعى هذه اللغات إلى تحقيقه من أهداف تواصلية[3]؛ فاللغويون الوظيفيون يجمعون على أنّ اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية تختلف بنياها من مجتمع لآخر، وتشترك عند كل

---

(1) انظــر: يحــيى بعيطــيش: **النحو العربي بين التعصير والتيسير**،(مقال)، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال ندوة تيسير النحو، المكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر،2001، ص122.

(2) انظــر: *SimonDik* في: المتوكل:اللسانيات الوظيفية،ص78، الوظائف التداولية، ص10، دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي ، ص9. قضايا اللغة العربية،ص13 وما بعدها . وانظر: محمود سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة، ص225.

(3) انظر: المتوكل : **الوظائف التداولية ص11**.

المجتمعات في وظيفة واحدة؛ فهي تستعمل أساسا لإقامة التواصل بين البشر وهو وظيفتها الأساسية، وهذا لا ينفــي أنهـا تقــوم بوظائف ثانوية أخرى كالوظائف الست التي أقرها جاكبسون والوظائف الثلاث لهاليداي.

2- تبعية البنية للوظيفة :

اللّســان الطبيعي بنية (تراكيب أو عبارات)تؤدّي وظيفة أساسية هي التواصل، بحيث تتحدد الخصائص البــنوية لعبارات هذا اللسان (صرف، تركيب، تنغيم) انطلاقا من الأغراض التواصلية التي تستعمل هذه العبارات وسائل لتحقيقها، فبين البنية والوظيفة علاقة تبعية [1]؛ فبنية العبارات اللغوية تعكس إلى حدّ بعيد وظيفتها التواصلية في واقع لغوي محدد، وفي ظل معطيات إنجازية خاصة، وهذا مبدأ منهجي عام معتمد في اللسانيات الوظيفية [2]، واستجابة لهذا المبدأ المنهجي« تدرس ظواهر اللغة بوصفها "كلاما" مستعملا من قــبل "شــخص معين"في "مقام معين" موجه إلى "مخاطب معين" لأداء "غرض معين"» [3]. واعتماد مبدأ الوظــيفة تحــدد الخصائص البنوية للتراكيب النحوية هو معيار حاسم اعتمده الباحثون اللغويون ومنهم (المتوكل) في التمييز بين الأنحاء الوظيفية والأنحاء الشكلية؛ فتقديم المفعول على الفعل مثلا: يغير في شكل الجملة وهذا لغرض وظيفي يُفرض على المتكلم أو يقصده هو، ومن ذلك لجوء المتكلم مثلا لرد الخطأ في التعيين؛ فعندما يقول :"زيدا عرفت" لمن اعتقد أنه عرف إنسانا وأنه غير زيد، فيقول: زيدا عرفت لا غيره لتقوية التأكيد والتقرير. كما تكون وظيفة تقديم المفعول أيضا التخصيص، كما في قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ (الفاتحة:05) ؛ بمعنى نخصك بالعبادة، لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة فلا نستعين بغيرك.

فبنية الجملة هنا تبعت وظيفتها، وهذا أهمّ مبدأ يقوم عليه الدرس الوظيفي المعاصر، إذ يرى مارتيني أن الوظيفة هي سبب وجود البنية[4]، فلكل مقام تركيب معين، وباختلاف المقامات تختلف وجوه التراكيب؛ ففي الجملة: أفعلت ؟ المقام مقام استفهام عن الفعل وتفيد الشك في وجود الفعل، والتردد بين وقــوعه

---

(1) انظر: المتوكل: **آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي**، كلية الآداب، الرباط، المغرب، ط1، 1993، ص21.

(2) انظر: المتوكل: الوظيفة والبنية، ص35.

(3) مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 13.

(4) انظر: المدخل، ص 6.

وعـــدم وقـــوعه. وفي الجملـــة: أ أنت فعلت؟ المقام مقام استفهام عن الفاعل والتردد فيه، وتؤكّد وقوع الحدث، وانصراف الشك إلى الفاعل[1] ، وكل من المقامين يفرض بنية شكلية غير تلك التي يفرضها المقام الآخر، حسب الوظيفة المراد تأديتها، « فالبنية التركيبية والصرفية تعكس إلى حد بعيد الخصائص المرتبطة بوظـــيفة التواصل، بحيث يمكن اعتبار بعض مقومات هذه البنية وسائل للتعبير عن الأغراض التواصلية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها في طبقات مقامية معينة »[2].

3- موضوع الدرس اللّساني هو وصف"القدرة التواصلية"(للمتكلّم/المخاطَب).

يرى الوظيفيون التداوليون أن موضوع الوصف اللغوي هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم/المستمع، وهـــذه القـــدرة هـــي القدرة اللغوية التي تجمع بين النحو والتداول، مخالفين بنظرهم هذه ما ذهب إليه شومســـكي(N.Chomsky)(1977، 1988)الـــذي يرى أنّ القدرة قدرتان: قدرة نحوية صرف، وقـــدرة تداولية، ورغم هذا الاختلاف نجد كل النظريات اللسانية تكاد تجمع على أن موضوع الدرس اللّســـاني والوصف اللغوي هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم/المخاطَب غير أنها تختلف في تحديد هذه القدرة [3].

والقـــدرة التواصلية في نظرية النحو الوظيفي يحددها سيمون ديك(1989) أنها:« ما يمكّن (مستعملي اللغـــة الطبيعـــية) من التواصل فيما بينهم بواسطة العبارات اللغوية، أي ما يمكنهم من التفاهم والتأثير في مدخـــرهم المعلـــوماتي (بمـــا في ذلك من معارف، وعقائد وأفكار مسبقة وإحساسات)والتأثير حتى في سلوكهم الفعلي عن طريق اللغة» [4].

وتـــتكون القـــدرة التواصـــلية المتوافرة لدى مستعمل اللغة الطبيعية من خمس ملكات على الأقل تضطلع بوصفها خمسة قوالب، نجملها فيما يلي:

1- **الملكـــة اللغوية** : وبها يتمكن مستعمل اللغة الطبيعية من الإنتاج والتأويل الصحيحين لعبارات لغوية متنوعة ومعقدة جدا في كل موقف تواصلي دعا إلى ذلك، وتتضمن الملكة اللغوية الجوانب التداولية للقدرة التواصـــلية. ويضمن صحة إنتاج العبارات وتأويلها القالب النحوي بكل مكوناته: « معلومات صرفية-تركيبية (صيغ المفردات التي تتكون منها العبارة والمقولات المعجمية التي تنتمي إليها والعلاقـــات الدلالية

(1) انظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص151.

(2) المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص65.

(3) انظر: المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 16.

(4)ديك في: المرجع نفسه، ص16.

و التركيبية والتداولية القائمة بين هذه المفردات...) ومعلومات دلالية(معاني المفردات، معنى العبارة ككل) ومعلومات تداولية(القوة الإنجازية التي تواكب العبارة ككل باعتبارها قوة إنجازية حرفية)..» [1] وبواسطة هذه المكونات يستطيع مستعمل اللغة أن يدرك وظيفة العبارة المطروقة.

2- **الملكة المنطقية** : لمستعمل اللغة الطبيعية معارف اكتسبها من بيئته الاجتماعية وبواسطتها وباستخدام قواعد استدلال تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي يستطيع أن يشتق معارف أخرى[2]، وبنيات تحتية يقوم القالب المنطقي بمهمة استنباطها من البنية التحتية المحددة في إطار القالب النحوي.

3- **الملكـــة المعـــرفية:** بفضل الملكة المعرفية يستطيع مستعمل اللغة الطبيعية أن يكوّن رصيدا من المعارف المنظمة، والعبارات اللغوية التي يمكن أن يختزنها ويستحضرها لاستعمالها في تأويل العبارات اللغوية، وذلك بالاستعانة بالقالب المعرفي الذي ترِد عليه المعارف من القوالب الأخرى.

4- **الملكـــة الإدراكية** : تُمكن الملكة الإدراكية المتكلم/المستمع من إدراك محيطه(مدرك حسي)واشتقاق معارف من هذا الإدراك لإنتاج العبارات اللغوية وتأويلها، ويتكفل بذلك القالب الإدراكي الذي يستعين بالقالب المعرفي في تخزين هذه المعارف قصد استعمالها عند الحاجة [3].

5- **الملكة الاجتماعية** : وبها تتم معرفة « وضبط الكيفية التي ينبغي أن يخاطب بها مخاطبا معينا في موقف تواصـــلي معـــين قصد تحقيق أهداف تواصلية معينة.»[4] وهاته الكيفية يقوم بضبطها القالب الاجتماعي بالنظر إلى الخلفيات الاجتماعية التي تكتنف هذا الموقف التواصلي .

ويفكر د.المتوكل(1995) في وضع ملكة سادسة تسمّى"الملكة الشعرية"مهمتها إمداد المتكلم/ المستمع بما يستلزمه لإنتاج العبارات اللغوية ذات الطابع الشعري وتأويلها[5]، وفق ضوابط القالب الشعري الذي هو« مجموعة من المبادئ ونسق من القواعد يضطلعان برصد الظواهر المجازية باختلاف أنماطها وبوصف ما يشكل "**أدبية**" الخطاب الأدبي بوجه عام ».[6] وتبقى قـــائمة هذه الملكات قائمة مفتوحة، يمكن إضـــافة

---

(1) أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ،ص 25 .

(2) انظر: المرجع نفسه، ص16.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص30.

(4)، (5) نفسه، ص17.

(6) نفسه، ص 28.

ملكـــات أخرى على غرار الملكة الشعرية[1]. ويقترح المتوكل (1993) إضافة قالب فرعي آخر سماه: القالب النصي[2].

يمكـــن أن تشـــتغل القـــوالب الخمسة جميعها في تأويل عبارة لغوية ما، وبالمقابل هناك حالات يمكن الاستغناء فيها عن قالب أو أكثر غير القالب النحوي، منها[3]:

- يمكـــن الاســـتغناء عن القالب المعرفي إذا كانت العبارة اللغوية المراد تأويلها حاملة لجل المعلومات التي يقتضيها التأويل.
- يمكن الاستغناء عن القالب المنطقي إذا كانت دلالة العبارة هي الدلالة المقصودة .
- يمكن الاستغناء عن القالب الاجتماعي إذا كانت العبارة غير موسومة اجتماعيا.

هـــذا ويمكـــن القول أنّ الأنحاء الوظيفية تسعى إلى وصف القدرة التواصلية لمستعملي اللغة الطبيعية قدرة إنتاج وتأويل العبارات مع مراعاة استجاباتها لما يفرضه واقع التواصل.

4- يجب أن يسعى النحو الطامح إلى الكفاية إلى تحقيق ثلاثة أنواع من الكفايات :

أ- الكفاية التداولية :

تربط الكفاية التداولية بين خصائص العبارات اللغوية وكيفية استعمالها وتتحقق هذه الكفاية في نحوٍ ما إذا كان قادرا على كشف التفاعل القـــائم بين بنية اللغات الطبيعية ووظيـــفتها التواصلية. ويكتب ديك (1989) في معـــرض تعريفه للكفاية التداولية :« نريد من النحو الوظيفي أن يكشف لنا عن خصائص العبارات اللغوية التي لها علاقة بالكيفية التي تستعمل بها هذه العبارات، وأن يفعل ذلك بالطريقة التي تمكن من ربط هذه الخصائص بالقواعد والمبادئ التي تحكم التفاعل اللغوي.»[4]

ب- الكفاية النفسية :

يسعى النحو الوظيفي إلى تحقيق الكفاية النفسية، و« يكون النحو كافيا نفسيا إذا لم يتعـــارض مع

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص 22.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص 23.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص 25، 26 .

(4) ديك، في: المرجع نفسه، ص 19.

الفرضيات النفسية حول إنتـــاج اللغة وفهمها »[1] . ويتم ذلك بالاستفادة من نتائج أبحاث علم النفس ، وعلـــم اللغـــة النفســـي *Psycholinguistique* ، ومـــتابعة تطـــورات الـــنماذج النفســـية *(Psychological models)* ومطابقـــتها ســـواء منها "نماذج الإنتاج" أي إنتاج المتكلم العبارة اللغوية وصياغتها أم "نماذج الفهم" أي تحديد الطريقة التي يحلل بها المخاطب العبارة اللغوية ويؤولها التأويل الملائـــم[2]. وبذلك تطابق قواعد هذا النحو العمليات القائمة في ذهن المتكلم/المستمع أثناء إنتاج الخطاب وفهمه، فالنحو الوظيفي يلغي من نموذجه القواعد التي شكّك في واقعيتها النفسية كالقواعد التحويلية[3].

جـــ- الكفاية النمطية:

يحقق النحو الكفاية النمطية إذا استطاع أن يضع نحوًا للغات طبيعية متباينة نمطيا، وأن يصف ما يؤالف وما يخالف بين هذه اللغات المختلفة (ديك1978) [4]، وتقتضي الكفاية النمطية في لغة ما أن تظل قواعد وصـــف ظواهرها لاصقة بخصائص هذه اللغة، وأن تتميز بدرجة عالية من التجريد لتستطيع وصف نفس الظاهرة في أكبر عدد ممكن من اللغات الطبيعية [5]، ويصعب تحقق هذا النوع من الكفاية بل قد يستحيل ومرد هذا أن كل لغة تتميز بخصائص إبستمولوجية ومقومات فكرية وانتماء حضاري.وإلى هذه الصعوبة يشـــير المتوكل بقوله: « فإذا اقتربت كثيرا من الوقائع اللغوية للغات معيّنة كان من العسير انطباقها على لغات أخرى وإذا كانت موغلة في التجريد أصبحت عاجزة عن رصد الوقائع اللغوية كما تتحقق في لغات معيـــنة. وهكذا، يتعين على النظرية الرامية إلى الحصول على درجة معقولة من الكفاية النمطية أن تصوغ مـــبادئها وقواعدها و تمثيلاتها متوخية توسطا بين التجريد والملموسية يؤهلها لوصف أكبر عدد ممكن من اللغات الطبيعية »[6].

وفي تراثنا اللّغوي العربي نظريات وأحكام يمكن تعميمها وهي مؤهلة لوصف أكبر عدد ممكن من اللغات الطبيعية، فهذه النظريـــات « أكثر عالمية من النظريـــات الغربية على ما لهذه الأخيرة من علمية لا تنكر

---

(1) أحمد المتوكل: المنهج الوظيفي، ص 21.(نقلا عن: محمود سليمان ياقوت: فقه اللغة وعلم اللغة، ص225.)

(2) انظر: المتوكل: الوظائف التداولية، ص11. دروس في اللسانيات الوظيفية، ص 10. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 20.

(3) انظر: المتوكل: الوظائف التداولية، ص11.

(4) انظر: المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 26. قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 21.

(5) انظر: المتوكل: الوظيفة والبنية، ص5.

(6) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص21 .

وإصابة لكبد الحقيقة في بعض جوانبها »[1] .

يعتـــبر المبدأ الأول (الوظيفة الأساسية للغات هي وظيفة التواصل)منطلقا أساسيا تقر به جل النظريات اللغـــوية. ويعتـــبر المبدأ الثالث (موضوع الدرس اللساني هو وصف القدرة التواصلية للمتكلم/المخاطب) «مجـــرد سمـــة تمييـــزية، به تتمايز النظريات الوظيفية من النظريات غير الوظيفية، وليست لـــه امتدادات تطبيقـــية»[2] . والمـــبدأ الرابع (السعي إلى تحقيق الكفايات الثلاث) عبارة عن غايات قد لا تتحقق، و لم تـــتحقق تحققا كاملا حتى في نظرية النحو الوظيفي ذاتها[3]، وخاصة ما تعلق بالكفاية النمطية. أما المبدأ الـــثاني(تبعـــية البنية للوظيفة) فهو المبدأ الوظيفي الأهم والأكثر واقعية وإجرائية، وانطلاقا من هذا التمييز ركزنا على هذا المبدأ فهو يتيح مجالا واسعا للجانب التطبيقي في دراستنا.

هذا ولسنا نسلِّم بكل ما جاءت به هذه النظرية، التي ما زالت في طور الإنجاز وليست مستقرة ومتوقفة عند حدّ معين بل لا تزال كثير من المفاهيم الإجرائية التي اعتمدتها تتطلب التطوير والتحوير، ومثل ذلك ما اعـــتمدته في جهازها الوظائفي الذي تقوم بتحليل التراكيب اللغوية على أساسه من صياغة صورية معقّدة ورموز رياضية مجردة، فالكثير منها يبتعد عن الواقعية[4] والبساطة ويميل إلى التجريد والتعقيد. فالنحو كما تقترح نظرية النحو الوظيفي يشمل وظائف تمثيلية(مستويات تحليل) ثلاث:

- المستوى التركيبي لتمثيل الوظائف التركيبية(كوظيفتي الفاعل والمفعول).
- المســـتوى الـــدلالي لتمثـــيل الوظائف الدلالية(كوظيفة المنفذ ووظيفة المتقبل ووظيفة المستقبل ووظيفة المستفيد...).
- المســـتوى التداولي لتمثيل الوظائف التداولية(وظيفة المبتدأ، وظيفة المحور، وظيفة البؤرة، وظيفة المنادى، وظيفة الذيل)؛ فتحليل جملة مثل: أكل محمد التفاح. حسب ما يرى "ديك" يكون بالشكل التالي[5]:

1- المستوى التركيبي	فعل	فاعل	مفعول به
2- المستوى الدلالي	فعل	عامل	هدف

(1) محمد العيد رتيمة: النظرية البنوية الوظيفية العربية وتطبيقاتها في الدرس اللغوي، ص14.

(2)، (3) مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص17.

(4) انظر: المرجع نفسه، ص 13.

(5) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص95.

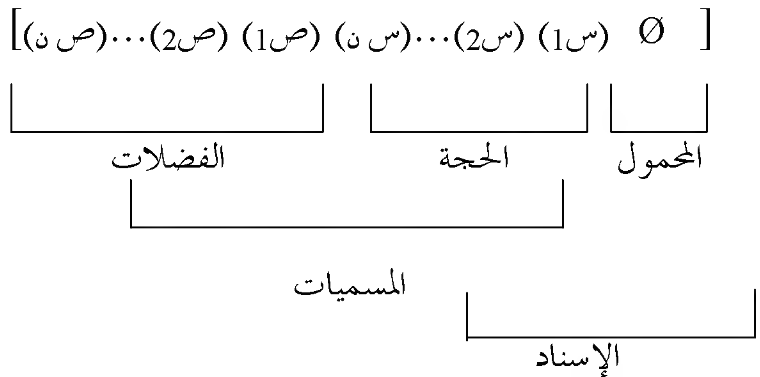
3- المستوى التداولي مسند متمم

(*Theme*) (*Tail*)

أو: موضوع بؤرة

(*Topic*) (*Focus*)

والجملة في النحو الوظيفي عبارة عن إسناد *Predication* تمثل مصطلحاته بالشكل التالي [1]:



« وهكـــذا فلكـــل جملـــة إطار إسنادي مصمم لبيان وظيفتها، وفي هذا الإطار الإسنادي يتم استبدال المتغيرات بمسميات تتفق في خصائصها الاختيارية*Selectional restriction* مع المحمول»[2].

مـــن خـــلال الجهاز الوظائفي ومستويات التحليل التي أوردناها و نموذج الجملة المختارة للتحليل وفق ما تقتـــرحه نظـــرية النحو الوظيفي نجد أنّ هذه النظرية يكتنفها التعقيد والتجريد وكثرة الترميز الرياضي. بالإضـــافة إلى هذا تُنتقَد في عدم التحقق الكلي لمبادئها[3]. وقد اكتفينا في دراستنا هذه بالتحليل في ضوء مبادئها الوظيفية، وركزنا على المبدأ الثاني.

3- ملامح المنحى الوظيفي في التراث العربي

أ- أصالة التراث اللّغوي العربي واستقلاليته:

يتميـــز التراث العربي بأصالة مصادره واستقلالية مناهج دراسته غير أن هذا التميز لا يجعل منه موروثا شاذا لا يمكن موازنته أو تفـــاعله مع غيره من الفكر اللغوي البشري، بل هو على العكس من ذلك يمكن

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص96.

(2) نفسه، ص97.

(3) انظر: ص41 من هذا البحث.

« إقامة(حوار) مثمر بين الفكر اللغوي العربي القديم والفكر اللساني الحديث على أساس القرض والاقتراض رغم انتماء الفكرين إلى (حقلين نظريين) متباينين» [1]، وهذا لا يمنع وجود نقاط تشابه. ومشابهة التراث العربي للتراث الإنساني عامة تتيح لنا دراسته وفق ما أنتجته النظريات اللسانية الحديثة مع مراعاة خلفياته وأبعاده الفكرية واحترام خصوصياته، ففكرة التقطيع مثلا التي جاء بها مارتيني سُبق إليها منذ زمن طويل، فقد ورد ما يشابهها عند الآمدي حين يقول في سياق حديثه عن الألفاظ الدالة:« أما حقيقته(أي اللفظ الدال) فهو ما دل بالوضع على معنى، ولا جزء له يدل على شيء أصلا كلفظ الإنسان، فإنّ(إنْ)من قولنا (إنسان) وإن دلت على الشرطية، فليست إذ ذاك جزءا من لفظ الإنسان.» [2] ولو لاحظنا القولين المشهورين للبلاغيين العرب: "لكل مقام مقال"، "ولكل كلمة مع صاحبتها مقام"، لوجدنا أن هذين القولين يشتملان على «عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل اللغات، لا في العربية الفصحى فقط، وتصلحان للتطبيق في إطار كل الثقافات على حد سواء. ولم يكن مالينوفسكي وهو يصوغ مصطلحه الشهير *Context of situation* يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها. إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح المقام، ولكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح مالينوفسكي»[3]. وفي الدراسة الوظيفية نجد الكثير من الآراء والمصطلحات المتفرقة لعلمائنا من أمثال الخليل و سيبويه والفراء وابن جني وعبد القاهر والرضي تعبد الطريق، لما هو مطروق في المنهج الوظيفي الحديث « وما خلفه البلاغيون بعد عبد القاهر والأصوليون من درس وظيفي لظواهر التركيب، يجب الاستفادة منه أيضا، لأن هؤلاء تفوقوا على النحاة في تحليل معاني التركيب ودلالاته وأساليبه.» [4] فبعض مبادئ الوظيفية ومفاهيمها مبثوثة في كتب التراث اللغوي العربي (النحو، البلاغة، التفسير، علم الأصول ...)، والمتفحص لهذا الموروث يجد أن علماءنا ينطلقون في وضع القواعد والمفاهيم – ولو لم يقصدوا ذلك- من خلفيات تظهر فيها السّمات الوظيفية وخاصة ما تعلق بالمبدأين الوظيفيين الأول والثاني؛ فغرضهم من التدريس والتأليف في هذه الفنون هو توصيل وتبليغ أفكار وتوضيح مفاهيم بواسطة اللغة، وهذه الأفكار والمفاهيم لها بنيات لغوية وضعت

---

(1) المتوكل : الوظائف التداولية، ص183.

(2) الآمدي: **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، 1981، 18/1.

(3) حسان تمام: اللغة العربية معناها ومبناها، ص372.

(4) عبد الجبار توامة: المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي ، ص 277.

لأداء غـــرض مقصود (وظيفة تواصلية) انطلاقا من واقع لـــه ظروفه الخاصة ، وممن قال باشتمال التراث العـــربي على السّمات والمبادئ الوظيفية ودافع عن ذلك في كثير من مؤلفاته د.أحمد المتوكل[1] ، وفي هذا الشأن يذهب د.جعفر دك الباب- في معرض حديثه عن موقع نظرية الجرجاني اللغوية من علم اللغة العام الحـــديث-إلى أنّ :« نظـــرية الجرجاني اللغوية يمكن أن تساعد في توضيح وإكمال بعض جوانب النظرية البنيوية الوظيفية في علم اللغة العام الحديث »[2]، هذا ونجد علماء العربية قريبين في تحليلاتهم واستنباطاتهم من كثير مما قررته نظرية المعنى أيضا، ومن ذلك فكرة ارتباط المعاني بسياقاتها المختلفة فلم يهتموا بأشكال التعابير أكثر مما اهتموا بالمعاني الوظيفية لها.« ومعنى هذا أن نظرية المعنى وارتباطها بالسياق، لم تكن بعيدة عن علماء العربية من لغويين وبلاغيين وفقهاء » [3].

ب- المقام والمعنى في التّراث:

يـــنقل إلينا عبد القاهر الجرجاني عن يعقوب بن إسحاق الكندي وأبي العباس (ثعلب أو المبرد)، حادثة نلمـــس فيها العلاقة الوشيجة بين معنى الكلام و المقام الذي يرد فيه، هذا نصها: «روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك فقال: أجد العرب يقولون :(عبد الله قائم): ثم يقولون:(إنّ عبد الله قائم)، ثم يقولون:(إن عبد الله لقائم)، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاخـــتلاف الألفـــاظ، فقولهم: (عبد الله قائم) إخبار عن قيامه: وقولهم: (إنّ عبد الله قائم) جواب عن ســـؤال ســـائل، وقولهم(إنّ عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعـــاني، قال: فما حار المتفلسفُ جوابا »[4]؛ وفي هذا إشارة إلى أنه لا تتحكم الألفاظ في المعاني وحدها بل يقاسمها في ذلك مقام هذه العبارات والغرض المقصود منها. ويقول ابن خلدون :« ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة. ألا ترى أن قولهم "زيد جاءني"مغاير لقولهم "جاءني زيد"، من قِبل أن المتقدم منهما هو الأهم عند المتكلم . فمن قال "جاءني زيد" أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص

---

(1) انظر: اللسانيات الوظيفية، ص35.

(2) جعفر دك الباب: الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص123 .

(3) حلمي خليل: **العربية وعلم اللغة البنيوي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1996، ص225.

(4) دلائل الإعجاز، ص312.

المســـند إليه، ومن قال "زيد جاءني" أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة »[1]؛ فمعنى الكلام لا تعرف حقيقته إلا من خلال المقام الذي ورد فيه. وأما عن علاقة المعنى بالتحليل اللغوي أو ما سمي بالإعراب، فقد اهتم بدراسته النحاة مبكـــرا، وهم يرون أنه لا يمكن أن يكون هناك تحليل دون فهم للمعنى، ونجد د.تمام في سياق حديثه عن العـــبارتين:"لكـــل مقام مقال"، "ولكل كلمة مع صاحبتها مقام"، يقول:«... و لم يكن أقل من هاتين العبارتين صدقا في تحليل اللغة بصفة عامة ما سبق النحاة العرب إليه من قولهم الإعراب فرع المعنى، فهذه أيضا واحدة من جوامع الكلم إذا فهمنا بالإعراب معنى التحليل لأن كل تحليل لا يكون إلا عند فهم المعنى الوظيفي لكل مبنى من مباني السياق»[2] .

جـــ- التركيب الإسنادي عند العرب:

تـــتألّف الجملة حسب ما يرى النحاة والبلاغيون القدامى من مسند وهو محكوم به، ومسند إليه وهو محكـــوم علـــيه، ومـــا زاد عليهما فهو قيد أو فضلة متمم، يقول د.يحيى أحمد: « وطبقا لمفهوم"دينامية الاتصـــال"فإن هناك ثلاث وحدات وظيفية في الجملة: المسند وهو ينقل أقل درجة من دينامية الاتصال. المســـند إلـــيه وهو ينقل أعلى درجة من دينامية الاتصال. وبعد هاتين الوحدتين أو قبلهما أو بينهما تأتي الـــوحدة الانتقالـــية *Trensition* وتكون غالبا من العناصر الإضافية (الظرف، الحال) أو العناصر التي نحتاج إليها لاستقامة الجملة نحويا(أدوات النسخ، أدوات الشرط الخ) »[3] وعند المناطقة تتكون العبارة من عنصرين متلازمين هما :

1- الموضوع (المخبر عنه، والموصوف، والمسند إليه)

2- المحمول (المخبر به، والصفة، والمسند).

فعملـــية الـــتفكير تقوم على ثلاث وظائف هي:التصور(عرض الموضوع)، والحكم (التعبير عن المحمول)، والمحاكمة(الربط بين حكمين لاستنتاج حكم ثالث)، وهذا يصدق على جميع الألسن[4] .

ونشير هنا إلى أنّ النّحاة قد اضطربوا في تسمية عنصري الإسناد في الجملة، وذلك لاختلاف المنطلقـــات

---

(1) **مقدمة ابن خلدون**، دار الجيل، بيروت، (د ت)، ص609.

(2) اللغة العربية معناها ومبناها، ص372.

(3) الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص78.

(4) انظر: أحمد محمد قدور: مبادئ اللسانيات، ص 240.

المعتمدة في هذه التسميات، « فاعتماد الإسناد يقتضي الالتزام بالمسند والمسند إليه، واعتماد دور العنصر في عملـــية الإبـــلاغ يقتضي الالتزام بالمخبر عنه والخبر، واعتماد الرتبة يفرض الالتزام بالمبتدأ والمؤخّر...، واعتماد أقسام الكلام يحتم الالتزام بالفعل والاسم والصفة...الخ »[1] والعرب لم يجتمعوا على واحدة من هـــذه المـــنطلقات غـــير أنّ الوظيفيين منهم اختاروا منطلق الإسناد. ويضع النّحاة العرب القدماء سلمية لمكونات الجملة؛ فالجملة الفعلية:قدَّم زيد درساً مساءً في المسجد.مثلا، تتكون حسب ما يقتضي الفعل من الفاعـــل ثم المفعول به ثم الزمان ثم المكان...وهذه السلمية نفسها تحدّد رتبة المكونات داخل الجملة بنفس الترتيب المذكور، وهو ما تقرُّ بعضه نظرية النحو الوظيفي ففيها يوالي الفعل رتبة المكون الفاعل ثم المكون المفعـــول أمَّـــا المكـــونات الأخـــرى(المكـــونات الحاملة للوظائف الدلالية "الزمان"و"المكان "و"الحال" و"العلـــة"...)فلم تُجب عن السؤال المطروح حول الترتيب فيما بينها[2]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نظام تـــرتيب مكونات الجملة العربية نظام مرن يخضع لمناسبات القول وأغراض التواصل، فقد يخالف معتاده لتحقيق معنًى بعينه أو دلالة مقصودة.

3-1 ملامح المنحى الوظيفي عند "سيبويه" :

3-1-1- سيبويه : منهجه وكتابه

يعـــدّ سيبويه من عباقرة اللّغة العربية و"كتابه" هو أقدم دستور في العربية احتوى النحو واللغة والبلاغة والمـــنطق، والفقـــه، ويعدّ مرجعا أول للنحو العربي وفيه قوانين فكر هذه اللغة، وليس مجرد قواعد لتعليم النطق السليم والكتابة الصحيحة[3]. والمتمعّن فيه يجد أنّه ركّز في كثير من أبوابه على المعنى الوظيفي الذي تعكســـه التـــراكيب وتـــأتي لخدمته، ويقر بهذه الحقيقة د.عبده الراجحي –وهو يتحدث عن تحيز بعض اللغويين العرب المعاصرين لمدارس لسانية ويبين المنهج المرتضى- فيقول:« والمنهج الذي نرتضيه هو الذي يقـــع في الناحية الأخرى، وهو الذي أصله سيبويه وظل يوجه الفكر النحوي في تاريخه الطويل، المعنى هو الأصل في اللغة، وليس للنحوي غاية إلا الوصول إلى المعنى، وكل فصيلة من فصائل النحو، وكل تركيب من تراكيبه ليس مجرد أشكـــال ومبان، وإنما هي معان تتقمص مبـــاني، ومن ثمّ فإن التحليل يرد المبنى إلى

(1) محمد الشاوش: ملاحظات بشأن دراسة تركيب الجملة في اللغة العربية، الموقف الأدبي، ع135، 136، ص79.(نقلا عن: عبد الجبار توامة: المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي، ص 300.)

(2) انظر: المتوكل : الوظائف التداولية، ص50.

(3) انظر: عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، ص242.

أصله، ويربطه بمعناه، أو يجعله تاليا له، فالمبتدأ والخبر ليسا اسمين مرفوعين في بنية شكلية، وإنما هما تركيب مخصـــوص يصدر عن معنى معين... »[1]، ورغم المكانة المعتبرة لهذا الرجل وكتابه فلم يعطيا ما يستحقّان من العناية والتقدير فقد عاش هو مغمورا ولم يعرف حتى تاريخ وفاته ووقع فيه تضارب[2] « أما الكتاب فأمـــره أغرب، إن أنقذه الزمان من التلف فقد قضى على كل وثيقة تقدمته، وإذا اعتبرته من أول ما ألف من النحو أدهشك بضخامة حجمه وغزارة مادته واستقصائه لمعطيات اللغة واستعمالاتها »[3].

3-1-2- ظواهر وظيفية تداولية في نحو سيبويه :

أ- المقام وسياق الحال:

مـــن أهمّ عوامل تحديد المعنى الوظيفي السياق الإبلاغي للكلام؛ فلا يفهم الكلام ولا جدوى من تحليله إلا في إطـــاره، وإلى هذا ذهب سيبويه، فقال في سياق حديثه عن مجيء الحال بعد الضمائر المسند إليها في مقـــام الفخـــر أو الوعيد أو التصغير للنّفس:« وقد تقول:هو عبد الله، وأنا عبد الله، فاخرا أو موعدا، أي اعرفني بما كنت تعرف وبما كان بلغك عني، ثم يفسر الحال التي كان يعلمه عليها أو تبلغه فيقول: أنا عبد الله كريما جوادا: وهو عبد الله شجاعا بطلا. وتقول: إني عبد الله، مصغرا نفسه لربِّه، ثم تفسر حال العبيد فتقول: آكلا كما تأكل العبيد...»[4]، وفي موضع آخر يبين لنا أهمية خلفيات الكلام من مقام المخاطبين وحالهم في توجيه معنى العبارات والتراكيب، ويحذر من التهاون بذلك، فيقول:«وإنما ذكر الخليل رحمه الله هـــذا لتعـــرف ما يحال منه وما يحسن، فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب. وذلك أنّ رجلا من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقا، وهو زيـــد مـــنطلقا كان محالا، لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأنّ"هو وأنا"علامتان للمضمر، وإنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني.إلا أن رجلا لو كان خلف حائط، أوفي موضع تجهله فيه فقلت من أنت؟ فقال:أنا عبد الله منطلقا في حاجتك،كان حسنا»[5].

---

(1) النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية، ص250.

(2) انظر: عبد القادر المهيري:**كتاب سيبويه بين التقعيد والوصف**،حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد11، 1974، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ص125.

(3) المرجع نفسه ، ص126.

(4) سيبويه: **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، 80/2.

(5) المرجع نفسه، 81/2.

يلتقـــي هنا نظر سيبويه للسياق والمقام مع أحدث النظريات اللغوية. ففي تحليله للخطاب يركز على فهم المخاطب والسياق الخارجي للكلام، وهما عنده في كثير من الأحيان أهمّ من التراكيب والألفاظ ذاتها فقد يُســـتغنى عـــن هـــذه البنيات ويُستعاض عنها بالسياق والموقف الاستعمالي للكلام، « وما يلامس هذا الاســـتعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضع الكلام. وقد هداه هذا الاتساع إلى استكناه البنية الجوانـــية للتركيب النحوي ورسم خطوط هادية في تعلم العربية تعلما يضع كل تركيب موضعه، ويعرف لكل مقال مقامه »[1].

هذا وكان الحذّاق من علماء اللغة –ممن اقتفى أثر سيبويه– يتناولون قواعدها تناولا وظيفيا فهم ينظرون في تحليل بناها وتفسيرها إلى ملابسات الخطاب وحال المخاطِب والمخاطَب وظروف القول ودواعيه، فلم يعزلوا قواعد الشكل الإعرابي للبنى اللّغوية عن وظائفها الاتصالية ومعانيها المقصودة، وأول هؤلاء سيبويه، يقـــول د. عبده الراجحي: «بل إنّ سيبويه –وكتابه هو المسؤول الأول عن المنهج– كان يعالج العامل في إطـــار(قواعد الكلام)، أو ما نسمّيه الآن(قواعد الخطاب)التي تنظر إلى السياق العام للحدث الكلامي، من نية المتكلم وقصده، وهيئة المخاطب ومعرفته وظروفه، ثم هيئة الحال التي يجري فيها الحدث،وضع يدك في معظم أبواب النحو عند الرجل تخرج لك ما تشاء من هذا الذي نزعمه لك »[2].

ب– الحذف وعلاقته بالسياق:

يرى سيبويه أنه لا يجوز الحذف إلا إذا دلت على المحذوف قرينة في السياق[3]، وإلا كان الكلام هراء، لا تحصل به فائدة، ومن النماذج التي أوردها في باب ما يضمر فيه الفعل:« وذلك إذا رأيت رجلا متوجها وجهـــة الحـــاج قاصدا في هيئة الحاج، فقلت: مكةَ ورب الكعبة، حيث زكنْت[*] أنه يريد مكة. كأنك قلـــت:يـــريد مكة والله ...أو رأيت رجلا يسدد سهما قبل القرطاس فقلت: القرطاس والله، أي يصيب القـــرطاس، وإذا سمعت وقع السهم في القرطاس قلت: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس، ولو رأيت ناسا ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا لقلت: الهلال ورب الكعبة، أي أبصروا الهلال»[4]، فسيبويه

---

(1) نهاد الموسى: **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**، بيروت، 1980، ص88.

(2) النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية، ص252.

(3) انظر: الكتاب، 173/1.

(*) زكنْت بمعنى أيقنت.

(4) المرجع نفسه، 257/1.

وهـــو يعلـــق على هذه النماذج العربية الفصيحة يرى أنها تعبر عن وظائف كلامية معروفة، لا يُغفل في تحليلها عن السياق الذي قِيلت فيه والجو الاجتماعي أو النفسي الذي رافق ولادتها[1].

جـــ- الرتبة ودلالاتها الوظيفية :

كانـــت العرب تبني كلامها وترتبه وفق ما تمليه دواعيه وما يؤديه من وظائف، فلا تقدم ولا تؤخر إلا عـــن قصـــد تواصـــلي وكل تقديم أو تأخير يؤدي إلى تغيير المعنى، ويختلف ترتيب التراكيب باختلاف وظائفها؛ فنجدهم يقدمون للعناية والإبراز، كما يقدمون للتخصيص و الحصر...« قال صاحب **الكتاب** وهو يذكر الفاعل والمفعول: كأنهم يقدِّمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم. و لم يذكر في ذلك مثالا. وقال النحويون: إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل مـــا أن يقـــع بإنسان بعينه ولا يبالون من أوقعه كمثل ما يعلم من حالهم في حال الخارجيّ يخرج فيعيث ويُفســـد ويَكثُر به الأذى، أنهم يريدون قتله ولا يبالون من كان القتل منه، ولا يعنيهم منه شيء. فإذا قتل وأراد مـــريد الإخـــبار بذلك، فإنه يقدم ذكر الخارجي فيقول: (قتل الخارجيَّ زيد). ولا يقول:(قتل زيد الخارجيَّ) لأنه يعلم أن ليس للناس في أن يعلموا أن القاتل له زيد جدوى وفائدة، فيعنيهم ذكره ويهمهم ويتصل بمسرتهم . ويعلم من حالهم أن الذي هم متوقعون لـــه و متطلعون إليه متى يكـــون وقـــوع القتل بالخارجيّ المفسد...»[2]. من خلال هذا القول نجد أن سيبويه يبين أن العرب كانت تبني كلامها بناء تمليه مقاصد الكلام، فأشكال الرتب عنده تتوقف على دلالاتها الوظيفية.

3-2 ملامح المنحى الوظيفي عند " ابن جنّي (322-392هـــ)":

3-2-1 وظيفة اللغة التّواصل:

عـــرّف ابـــن جني اللغة أنّها: « أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم »[3]؛ فالإنسان يختار من هذه الأصـــوات مـــا يعبر به عن أغراضه وما يلائم مقاصده وما يفصح به عما يختلج في صدره وما يجول في خاطـــره.فاللغـــة معتبرة بأحوال استعمالاتها بين أفراد المجتمع، ولهذا كان تعليم اللغة يهدف إلى إكساب المتعلم القدرة على تبليغ أغراضه بعبارات سليمة في أحوال الخطابات المختلفة، يقول د.عبد الرحمن الحاج

---

(1) انظر: صاحب أبو جناح: **دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها**، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1419/1998، ص215.

(2) الدلائل،ص148، 149.

(3) الخصائص، 33/1.

صـــالح: « الغايـــة القريبة والبعيدة التي يرمي إليها كل تعليم للغات الحية هو تحصيل المتعلم على القدرة العملـــية على تبليغ أغراضه بتلك اللغة وفي نفس الوقت على تأدية هذه الأغراض بعبارات سليمة، أي من تلك التي تنتمي إلى ما تعارفه الناطقون بها أوضاعا ومقاييس »[1] .

3-2-2 تبعية البنية للوظيفة :

البنـــية بألفاظهـــا وتراكيبها تأتي لخدمة وظيفة التواصل وأداء المعاني، وهذا ما عناه ابن جني بقوله: « فكـــأن العـــرب إنما تحلي ألفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوصلا بها إلى إدراك مطالـــبها »[2]؛ فالعرب تأتي بكلامها على أساس من هدف تأليفه.ونأتي هنا بنموذج عرضه ابن جني يتعلّق بتغير بنية الجملة وذلك بتغير رتبة المفعول به والتأكيد على وظيفته وأهميته –رغم أنهم يعتبرونه فضـــلة– والدلالات الوظيفية والنفسيّة التي يتوخاها العرب من كل هذا، فيقول:« إن أصل وضع المفعول أن يكـــون فضلة، وبعد الفاعل، كضرب زيد عمرا، فإذا عناهم ذكر المفعول قدّموه على الفاعل فقالوا: ضـــرب عمـــرا زيـــد. فإن ازدادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصبه فقالوا: عمرا ضرب زيد. فإن تظاهـــرت العـــناية بـــه عقـــدوه على أنه رب الجملة. وتجاوزوا به حد كونه فضلة فقالوا: عمرو ضربه زيد.فجاءوا به مجيئا ينافي كونه فضلة، ثم زادوه على هذه الرتبة فقالوا: عمرو ضرب زيد، فحذفوا ضميره ونـــووه و لم ينصـــبوه علـــى ظاهر أمره؛ رغبة به عن صورة الفضلة وتحاميا لنصبه الدال على كون غيره صـــاحب الجملة.ثم إنهم لم يرضوا له بهذه المترلة حتى صاغوا الفعل له وبنوه على أنه مخصوص به، وألغوا ذكر الفاعل مظهرا أو مضمرا فقالوا: ضُرب عمرو، فاطّرح ذكر الفاعل ألبتة. نعم، وأسندوا بعض الأفعال إلى المفعول دون الفاعل ألبتة، وهو قولهم: أُولعت بالشيء. ولا يقولون: أولعني به كذا. وقالوا: ثُلج فؤاد الرجل، و لم يقولوا ثلجه كذا، وامتُقع لونه،و لم يقولوا: امتقعه كذا، ولهذا نظائر. فرفض الفاعل هنا ألبتة، واعـــتماد المفعول به ألبتة دليل على ما قلناه فاعرفه...»[3]. يستخلص من هذا النموذج أن العرب كانت تخضع بنية كلامها للوظيفة المرادة منه.

3-2-3 تبعية الإعراب للمعنى المقصود من الكلام:

يرى ابن جني أنّ الإعراب تـــابع للمعنى ويدعو إلى أن ينظر إلى المعنى على أنه هو المقصود وأنّ النحو

---

(1) الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، ص19.

(2) الخصائص،220/1.

(3) المحتسب، 65/1. (نقلا عن:صاحب أبو جناح: دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، ص289، 290.)

ليس هو الإعراب وحده، فيقول متحدثا عما يتميز به كتابه الخصائص: « ليس غرضنا فيه الرفع والنصب والجـــر والجزم لأن هذا أمر قد فُرغ منه في أكثر الكتب المصنفة فيه منه وإنما هذا الكتاب مبني على إثارة معادن المعاني وتقرير حال الأوضاع والمبادئ »(1).

3-3 ملامح المنحى الوظيفي عند "عبد القاهر الجرجاني" ت471 هـــ :

3-3-1 عبد القاهر ومنهجه اللغوي:

لاشـــكّ في أن الإمـــام عبد القاهر الجرجاني قد استفاد وأفاد من الموروث اللغوي، مما خلفه النحاة في دراسته الوظيفية لوجوه التراكيب وفروق معانيها وأساليب العبارات وخواصها التركيبية(2) التي بنيت على أساس المقاصد والأغراض المرجوة من التأليف بينها، هذه الدراسة التي انتهت به إلى وضع نظرية النظم(*) الـــتي يجمـــع فيها بين النحو وعلم المعاني بصبغة متكاملة تبرز فيها سمات النحو الوظيفي مما جعل بعض الباحثين يعدّه نحويا وظيفيا وكتابه "الدلائل" كتاب نحوٍ (3). يقول عن علاقة النظم بالأغراض والمقـــاصد – في فصل:مزايا النظم بحسب المعاني والأغراض– :« وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة، ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازديادا بعدها، ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطـــلاق ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واســـتعمال بعضها مع بعض »(4)؛ فالكلام كما يرى الجرجاني يوضع أساسا لوظيفة تبليغ المعاني وتأدية الأغـــراض التواصلية، وعلى أساس هذه الأغراض تكون التراكيب اللغوية ويكون النظم بفروقه ووجوهه؛ وفي كـــلام الشيخ هذا نلمس الرؤية الوظيفية المقررة في نظرية النحو الوظيفي؛ وخاصة ما تعلق بالمبدأين الأول والثاني. وهذا يؤدي بنا إلى الحكم على أن عبد القاهر الجرجاني كان ينحو منحى وظيـــفيا تداوليا؛ –وإن لم يقصد هذا– فهو يراعي موضع أو مقام استعمال الكلام ومقتضى الحال. ومما يتجسد فيه تطبيق

(1) الخصائص، 32/1.

(2) انظر: شوقي ضيف: **البلاغة تطور وتاريخ**، دار المعارف، مصر، ط6، 1983، ص167.

(*) "الـــنظم" اصـــطلاح شاع عند الأشاعرة، إذ كانوا يرون أن سبب إعجاز القرآن هو نظمه. وعند الجرجاني هو معاني النحو التي بها يتم تعلق الكلام بعضه ببعض.انظر: شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص161، 168.

(3) انظر: مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص 23 .

(4) الدلائل، ص132.

المــبدأ الوظيفي الثاني الظواهر اللغوية التي عالجها، ومنها : التقديم والتأخير، الحذف، التعريف والتنكير ، الفصـــل والوصـــل، القصر والاختصاص،...من خلال طريقة تناوله لهذه الظواهر يؤكّد مدى تعلق البنية بالوظيفة وتبعيتها لها، « وانطلق عبد القاهر الجرجاني من منطلق وصفي وظيفي لأنه بحث في نظم الكلام. فعمـــد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة التي تؤديها في الكلام، انطلاقا من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض»[1].

3-3-2 المبادئ الوظيفية عند الجرجاني:

أ- وظيفة اللغة التواصل:

يشـــير الجرجاني في أكثر من موضع في كتابه الدلائل إلى أنّ وظيفة اللغة الأساسية هي نقل ما يقصده المــتكلم إلى الســـامع، وبهذا يتم التواصل بين الطرفين، قال :«وكان مما يعلم ببدائه المعقول أن الناس إنما يكلــم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره ومـــا هو؟ »[2] ، ويقول في موضع آخر :« وجملة الأمر أن الخبر وجميع الكلام معان ينشئها الإنسان في نفسه ويصرفها في فكره ويناجي بها قلبه ويراجع فيها عقله، وتوصف بأنها مقاصد وأغراض»[3] .

ب- تبعية البنية للوظيفة :

هناك عوامل متعدّدة يخضع لها الكلام منها المتكلم والمستمع والمقام وظروف الاتصال، ولكن تبقى بنيته دائمــــا رهيـــنة غاياته [4] .من أجل ذلك دعا الجرجاني إلى دراسة التركيب اللغوي دراسة توضّح المعاني الوظيفـــية وأوجه الدلالة في العبارة، وذلك في إطار ما يتصل بالنظم من بناء وترتيب وتعليق [5]. وتتجسّد علاقـــة البنية بالوظيفة عند الجرجاني فيما أسماه بمصطلح الوجوه والفروق، وذلك بأن المتكلم يختار وجوه وأشـــكال التـــراكيب التي تخدم الأغراض التي ينشدها وكل وجه يصح في مقام خاص به دون غيره.وقد تتعدد وجـــوه المعنى النحوي الواحد؛ والفروق هي المعـــاني المترتبة عن هذه الوجوه،كما أن الجرجاني قد

(1) جعفر دك الباب: النظرية اللغوية العربية الحديثة، ص60.

(2) الدلائل، ص488.

(3) المرجع نفسه،ص487 .

(4) انظـــر: عـــبد القـــادر المهيري: **مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة**، حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية العدد 11، 1974، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ص107.

(5) انظر: فاضل مصطفى الساقي: **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، مكتبة الغانجي، القاهرة، 1977، ص95.

يكـــون قصد بالفروق القيم الخلافية أو فكرة المقابلة بين المبنى والمبنى، وبين المعنى والمعنى، ولهذا طلب أن ينظـــر إلى صـــور التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار، والإظهـــار مـــؤكدا أن التعـــبير بكـــل نمط شكلي يعتبر تعبيرا عن المعنى الوظيفي لهذا النمط[1]، يقول الجـــرجاني:« لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق وزيد ينطلق، و ينطلق زيد، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق،و... وفي الشرط والجزاء، إلى الوجوه التي تراها في قولك: إنْ تخرجْ أخرجْ، وإن خرجتَ خرجتُ، وإن تخرج فأنا خـــارج، وأنـــا خارج إن خرجت ، وأنا إن خرجتَ خارج، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جـــاءني زيد مسرعا وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع أو هو يسرع،وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع، فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجيء به حيث ينبغي له.وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفـــرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه...وينظر في الجمل الـــتي تســـرد فيعـــرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل...ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والـــتأخير في الكـــلام كلـــه، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار فيضع كلا من ذلك في مكانه ويســـتعمله على الصحة وما ينبغي له »[2]. فاللغة تتّسع لكل تعبير أو بيان أو إفصاح عن مشاعر، والنحو يمدّ المتكلّم بأنماط مختلفة من التعابير تتوافق مع أغراضه المختلفة، ويختار منها ما يخدم قصده[3].

و العلـــم بالوجوه والفروق لذاتها لا فائدة منه، بل المزية أن تدرك مواضعها ، فتصنع كلامك على الوجه الـــذي تقتضـــيه هذه المواضع، يقول الجرجاني:« واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجـــوه. فنستند إلى اللغة، ولكنّا أوجبناها للعلم بمواضعها وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن(الواو)للجمع و(الفاء) للتعقيب بغير تراخ، و(ثم) له بشرط التراخي، وإنْ لكذا وإذا لكذا؛ ولكن لأنْ يتأتّى لك إذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير وأن تعرف لكل من ذلك موضعه»[4].

فالوظيفة التداولية تفرض على المتكلم أن يختار للغرض الذي يؤم الوجه أو التركيب الذي يلائمه.

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص100، 101.

(2) الدلائل، ص 127.

(3) انظر: عبد القادر المهيري: مساهمة في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة، ص115.

(4) الدلائل، ص261.

نماذج لظواهر وظيفية تداولية في نحو الجرجاني:

1- حذف المفعول به ودلالاته الوظيفية:

قال تعالى:﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ (النجم:43 ، 44) وقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ (النجم:48). « المعــنى: هو الذي منه الإحياء والإماتة، والإغناء والإقناء . وهكذا كل موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه فعلا للشيء، وأن يخبر بأنّ من شأنه أن يكون مــنه، أو لا يكـــون إلا منه، أو لا يكون منه، فإن الفعل لا يعدى هناك، لأنّ تعديته تَنقض الغرض وتغير المعــنى»[1]. لم يذكـــر المفعول به لقصد تأدية وظيفة تخصيص الفاعل بالفعل وحده؛ فلا يكون الإحياء والإماتــة، والإغــناء والإقناء (كل من أحيي أو أميت...) إلا من الله عزّ وجلّ.وهنا أيضا يتقرر وجوب إسقاط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله، ومثله قوله تعالى:﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾ (القصص:من الآيتين 23، 24)حُــذف المفعــول بـــه في أربعة مواضع؛ أي بعد الأفعال: يسقون، تذودان، نسقي،سقى. يقول الجـــرجاني:« إذ المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيَهم، وامرأتين تذودان غنمهما، وقالـــتا لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما. ثم إنه لا يخفى على ذي بصر، أنه ليس في ذلك كله إلا أن يُتـــرك ذكـــره ويُؤتى بالفعل مطلقا، وما ذاك إلا أنّ الغرض في أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال ســـقي ومـــن المرأتين ذود وأنهما قالتا: لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء؛ وأنه كان من موسى عليه الســـلام، من بعد ذلك سقي. فأما ما كان المسقي أغنما أم إبلا أم غير ذلك، فخارج عن الغرض وموهم خلافـــه... لم تجـــد لحذف المفعول في هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت، إلا لأن في حذفه وترك ذكـــره فائـــدة جليلة، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه »[2]. هنا لا يهم المتلقي المفعول به أي المعنِي بالسّقي والذود بل يهمه الذي قام بهما أي موسى عليه السلام والمرأتان. فحذف المفعول كان لدلالة وظيفية لن تكون بوجوده.

(1) المرجع السابق، ص185.

(2) نفسه، ص189، 190.

2- التقديم ودلالاته الوظيفية :

تعرض الجرجاني لصور عديدة من التقديم اكتفينا بنماذج منها لنرى مدى مطابقة بنياها لوظائفها ونُطلِع على تحليل الشيخ المؤكّد لهذه المطابقة، ومن هذه النماذج:

تقديم المسند إليه مع النفي :

تقـــديم المسند إليه مع النفي يؤدي وظيفة التأكيد والقوة، يقول الجرجاني: « فإذا قلت: أنت لا تحسن هـــذا. كان أشد لنفي إحسان ذلك عنه من أن تقول: لا تحسن هذا، ويكون الكلام في الأول مع من هو أشدّ إعجابا بنفسه، وأَعْرَضُ دعوى في أنه يحسن، حتى إنك لو أتيت بـــ(أنت) فيما بعد (تُحسن) فقلت: لا تحسن أنت، لم يكن لـــه تلك القوة. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (المؤمنون59) يفـــيد مـــن التأكيد من نفي الإشراك عنهم، ما لو قيل:(والذين لا يشركون بربهم أو بربهم لا يشـــركون) »[1]. وقد يفيد تقديم المسند إليه المنفي إنْ ولي حرف النفي تخصيصه بالنفي بالخبر الفعلي، وإثـــباته للغير،قـــال عـــبد القاهـــر:« وقد يقدم المسند إ ليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي إن ولي حرف النفي.كقولك: ما أنا قلت هذا. أي لم أقله مع أنه مقول، فأفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك، فلا تقول ذلك إلا في شيء ثبت أنه مقول، وأنت تريد نفي كونك قائلا له »[2].

ويقصد عبد القاهر بالخبر الفعلي فعل الفاعل، ويُطلق لفظ الخبر عند النحاة على المسند في الجملتين الفعلية وغير الفعلية [3].

تقديم المسند إليه مع الاستفهام التقريري :

للهمـــزة معان وظيفية عديدة زيادة على معنى الاستفهام ومن هذه المعاني التقرير(إقرار المخاطَب بالفعل أو الشيء)، يقول الجرجاني: « واعلم أن هذا الذي ذكرت لك في الهمزة (وهي للاستفهام) قائم فيها، إذا هي كانت للتقرير.فإذا قلت: أ أنت فعلت ذاك.كان غرضك أن تقرِّره بأنه الفاعل»[4]، ويمثل لذلك بقوله

(1) المرجع السابق ، ص170.

(2) الخطيب القزويني: **الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2،1425/ 2004، ص63.

وانظر: سعد الدين التفتازاني: **مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتـــاح العلوم**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2003.ص98.

(3) انظر: عبد الجبار توامة: المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي، ص296، 297.

(4) الدلائل، ص152.

تعالى حكاية عن قول النمرود :﴿ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ (الأنبياء: 62) ؛ فالكفار على علم بكسر الأصنام ولا يريدون من إبراهيم أن يقر لهم بوقوع هذا الفعل، فهم قد أشاروا له إليه في قولهم: أ أنـــت فعلت هذا ؟ولكن يريدون منه الإقرار بأنه منه كان لا من غيره، أي الإقرار بأنه الفاعل لا الإقرار بالفعـــل، بدليل جوابه عليه السلام : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا ﴾ (الأنبياء: من الآية63)؛ فهو هنا أجاب عن الفاعل و لم يجب عن الفعل؛ إذ الفعل مقرّر بهذه البنية الاستفهامية للجملة والتي كـــانت تابعة لوظيـــفة مقصودة أرادها المتحاورون ولا يؤديها إلا هذا الاستعمال.

تقديم المفعول مع النفي:

نجـــد دقة التعبير بأسلوب التقديم والتأخير مع النفي لأداء وظائف خاصة يختص بها تركيب دون غيره، مـــن ذلـــك إفـــادة تقديم المفعول المنفي إثبات وقوع الفعل من طرف الفاعل المذكور على غير المفعول المذكـــور، يقول عبد القاهر:«فإذا قلت:(ما ضربت زيدا) فقدمت الفعل، كان المعنى أنك قد نفيت أن يكون قد وقع ضرب منك على زيد، و لم تعرض في أمر غيره لنفي ولا إثبات، وتركته مبهما محتملا، وإذا قلت: (ما زيدا ضربت) فقدمت المفعول، كان المعنى على أن ضربا وقع منك على إنسان، وظُن أن ذلك الإنســـان زيد، فنفيت أن يكون إياه، فلك أن تقول في الوجه الأول(ما ضربت زيدا ولا أحدا من الناس) وليس لك في الوجه الثاني. فإن قلت :(ما زيدا ضربت ولا أحدا من الناس) كان فاسدا »[1].

3- تنكير الخبر وتعريفه بـــ ال:

ومـــن المعاني الوظيفية التي يحقّقها تنكير الخبر إثبات فعل لم يعلم السامع أنه كان. ومما يحققه تعريفه إثبات فعل قد علم السامع أنه كان، لكن لم يحدد ممن كان، فيفيده التعريف بفاعله.«...اعلم أنّك إذا قلت: زيد منطلق.كان كلامك مع من لم يعلم أنّ انطلاقاً كان، لا من زيد ولا من عمرو، فأنت تفيده ذلك ابتداء . وإذا قلـــت: زيـــد المنطلق.كان كلامك مع من عرف أن انطلاقاً كان، إما من زيد وإما من عمرو فأنت تُعلمـــه أنّـــه كان من زيد دون غيره. »[2] ومما تفيده (أل) في الخبر معنى الجنس وتكون للقصر في ذلك ولغـــرض المبالغة، كما يتضح في المثال الذي أورده الجرجاني: زيد هو الجواد وعمرو هو الشجاع، أي: الكـــامل في الجود أو الكامل في الشجـــاعة، وتُوهم أن هذه الصفة لم توجد إلا فيه[3]. ومما يثبته تعريف

(1) المرجع السابق، ص162.

(2) نفسه، ص 203.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص205.

الخـــبر بــــ ال اتصاف المبتدأ بالصفة الموجودة فيه، يقول الجرجاني « واعلم أن للخبر المعرف (بالألف واللام) معنى غير ما ذكرت لك،... وذلك قولك: هو البطل المحامي، وهو المتقى المرتجى... ولكنك تريد أن تقـــول لصاحبك: هل سمعت بالبطل المحامي؟ وهل حصّلت معنى هذه الصفة؟ وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك لـــه وفيه؟ فإن كنت قلته علما وتصورته حق تصوره فعليك صاحبَك واشـــدد به يدك فهو ضالتك وعنده بغيتك »[1]. هذا وتتعدد الدلالات الوظيفية للبنيات اللغوية وتفترق وتـــزداد دقـــتها حسب ما يفرضه الجانب التداولي للغة، وهذا التعدد يتطلب وجوها من التراكيب تُبنى بإحكام بحسب الأغراض التي وظفت لأجلها. يقول الجرجاني:« واعلم أنّ من شأن الوجوه والفروق أن لا يزال يحدث بسببها وعلى حسب الأغراض والمعاني التي تقع فيها دقائق وخفايا إلى حدّ ونهاية»[2].

4- القَصر وبعض دلالاته :

من أمثلة دقائق القصر التي يتناولها الجرجاني التفريق بين العبارتين"زيد المنطلق" و " المنطلق زيد" ويرى أن العبارة الثانية أقوى في القصر، ذلك أن المنطلق فيها أعمّ، بخلاف الأولى التي ينحصر الانطلاق فيها على زيد، وكلا العبارتين يؤدي وظيفة القصر[3]. والتفريق بين "إنما" ووظائفها و"ما وإلا" واستعمالاتها، فهاتان الصيغتان يرى بعض النّحاة أنهما متكافئتان في حين يرى عبد القاهر أن بينهما فروقا، هي:

"إنما" تتضمن نفيا بخلاف"ما وإلا"، "إنما" تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو لِمَا يتزّل هذه المترلـــة، كقولـــه تعالى:﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ ﴾(النازعات:45) وأما(ما وإلا) فيأتيان في خبر ينكـــره المخاطب ويشك فيه، كقولك لشخص: ما أنت إلا مخطئ . وفرق ثالث هو أنّ (إنما) تفيد إيجاب الفعـــل لشيء ونفيه عن غيره، فإذا قلت: إنما جاءني زيد. تضمن ذلك أنك نفيت أن يكون الجائي غيره، فكأنك قلت:جاءني زيد لا عمرو[4] . وغير هذا في القصر كثير، وفي أبواب متفرقة.

جـــ- السعي إلى تحقيق الواقعية النفسية :

يســـعى النحو الوظيفي إلى تحقيق الكفاية النفسية في إنتاج الكلام وفي فهمه، والجرجاني لا يهمل هذا الجانب فهو يركز على الواقع النفسي لنـــاظم الكلام سواء منه ما تعلق بما يسبق الحديث؛ أي الخلفيـــات

(1) المرجع السابق، ص207.

(2) نفسه، ص288.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص210 .

(4) انظر: المرجع نفسه، ص327، 334،328.

الفكـــرية والدوافع النفسية الموجّهة للمتكلم، فلا يكون الكلام واقعا حتى تنتظم معانيه في نفس صاحبه، يقول الجرجاني: «وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس»[1]. ويقول في موضع آخر:« ليس الغرض بنظم الكلم أن توالت ألفاظها في الـــنطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[2]، أو ما تعلّق بتأثير الكـــلام في المستمع وتوجيه فكره أو التمكن من مشاعره ورغبات نفسه، والجرجاني ينقل لنا بتعبير دقيق مواصفات الكلام المؤثّر والمحقق للواقعية النفسية، ويربط ذلك بمقامات الكلام وحالات الخطاب وأغراضه فـــنجده يصـــور لنا متى يكون التمثيل[التشبيه] محقّقا للكفاية النفسية —فصْل في مواقع التمثيل وتأثيره– بقولـــه:« واعلم أنّ مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في مَعرِضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة، وأكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارهـــا، وضـــاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكلفـــا، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا. فإن كان **مدحا** كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظـــم، وأهز للعِطف، وأسرع للإلف، وأجلب للفرح، وأغلب على الممتدح، وأوجب شفاعة للمادح، وأقضـــى له بغُرّ المواهب والمنائح وأسْيَر على الألسن وأذكر، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر. وإن كان **ذمـــا** كـــان مسه أوجع، ومِيسمه ألذع، ووقعه أشد، وحده أحد. وإن كان **حجاجا** كان برهانه أنور، وســـلطانه أقهـــر، وبيانه أبهر، و إن كان **افتخارا** كان شأوه أبعد، وشرفه أجد، ولسانه ألد. وإن كان **اعتذارا** كان إلى القبول أقرب، وللقلوب أخلب، وللسّخائم أسل، ولغَرْب الغضب أفل، وفي عُقَد العقود أنفـــث، وعلـــى حسن الرجوع أبعث. وإن كان **وعظا** كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وأجدر بأن يجلي الغَيَابة ويبصِّر الغاية، ويبرئ العليل، ويشفي الغليل.»[3] يهتم الجرجاني في كلامه هذا بالجانب النفسي للمتلقي، مهما كان الغرض المنشود من الكلام، ونقلنا هذا النص رغم طوله لنبين أن الجرجاني ألحّ على تحقيق الكفاية النفسية في الكلام، وأشار–في مواضع كثيرة–إلى أنه لا فائدة من كـــلام لا تتحقق فيه، وقد كان للجرجاني دور متميّز في إبراز العلاقة بين صياغة الكلام وما يصحبها من عوامل نفسية توجه إنتاج الكلام، « فلا نكاد نجد في تراثنا العربي من يُعنى بجانب الصياغة إلا عبد القاهر

(1) المرجع السابق، ص102.

(2) نفسه، ص102.

(3) عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في علم البيان، ص92 وما بعدها.

الجرجاني الذي اقترح للصياغة أربع مراحل هي: النظم والبناء والترتيب والتعليق، وإذا كان عبد القاهر قد استـــمد هـــذا الإطار الفكري من مذهب الأشاعرة في مسألة الكلام النفسي فلقد كان سابقا بعدة قرون للدراسات اللغوية النفسية الحديثة التي تتناول إنتاج النّص اللّغوي »[1].

يـــذهب كـــثير من الدارسين العرب إلى أنّ نظرية الإمام عبد القاهر الجرجاني اللغوية تنافس الكثير من نظـــريات علم اللغة الحديث، بل و تقف بكبرياء كتفا إلى كتف مع أحدثها في الغرب وتفوق معظمها في مجال فهم طرق التركيب اللغوي[2]، وأنها نظرية أساسية في الاتجاه الوظيفي توضح وتكمل النظرية البنوية الوظيفـــية الحديثة [3]. وينتقد الدكتور إبراهيم مصطفى النحاة التالين للجرجاني في أنهم لم يزيدوا على ما جـــاء به بل ضلّلوا وذلك بقوله:« فجمهور النحاة لم يزيدوا به في أبحاثهم النحوية حرفا، ولا اهتدوا منه بشـــيء، وآخرون منهم أخذوا الأمثلة التي ضربها عبد القاهر بيانا لرأيه، وتأييدا لمذهبه، وجعلوها أصول علـــم من علوم البلاغة سموه:(علم المعاني) وفصلوه عن النحو فصلا أزهق روح الفكرة، وذهب بنورها؛ وقـــد كـــان أبـــو بكر يبدئ ويعيد في أنها معاني النحو، فسموا علمهم:"المعاني"، وبتروا الاسم هذا البتر المضـــلل»[4] وهنا نشير إلى أنّ الإنتاج الفكري لعبد القاهر لم يقتصر على النحو والبلاغة، بل تعداهما إلى الدراســـات الأدبية والقرآنية. أخذ علماء علم المعاني عما تركه و لم يتوسعوا بل وساروا على منهجه وإن شغلوا بالتقنين والتبويب [5]. و لم يصل الدرس اللغوي العربي إلى ما وصل إليه مع عبد القاهر و لم يحقق ما حققه من حيث أسلوب التحليل وعمق البحث ودقة الاستقصاء[6]. خاصة ما تعلق بعلم النحو، والبلاغة التي « لم تكن قبله إلا أفكارا متناثرة ونتفا متفرقة»[7]،كل هذا حقق لما أنتج مكانة عظيمة. ومن الدارسين المحـــدثين مـــن ينتقده في عدم تفريقه بين أسلوب ترتيب الكلمات في الجمل بين الشعر و النثر في دراسته التراكيب اللغوية كما ينتقده في طريقة اختياره لشواهده، فيقول:« ولعل أهم ما يؤخذ على عبد القاهر في

(1) تمام حسان: مقدمة كتاب: روبرت دي بوجراند: النص والخطاب والإجراء، ص5.

(2) انظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص18، 19 .

(3) انظر: جعفر دك الباب: الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص132، 133.

(4) إحياء النحو، ص19.

(5) انظر: محمود أحمد نخلة: لغة القرآن في جزء عمّ، ص460،461.

(6) انظر: بدوي طبانة: **البيان العربي**، المكتبة الأنجلو مصرية، ط3، 1962، ص173.

(7) عبد القادر حسين: **أثر النحاة في البحث البلاغي**، دار النهضة، القاهرة، مصر،1975، ص402.

نظريته في النظم-رغم مالها من أهمية بالغة ومن قيمة خاصة- أنه لم يفرق في علاجه لترتيب الكلمات في الجمـــل أو مـــا يطلق عليه المحدثون(*Word-order*) بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر، وإكثاره من الأمـــثلة الافتراضـــية التي يصوغها هو من غير سند في بعض الأحيان، أو بسند من القرآن الكريم والشعر العربي دون تنبيه إلى الفرق بين أسلوب القرآن، وأسلوب الشعر، والعبارات التي يصنعها هو للتدليل على نظريته، فهذه ثلاثة مستويات لغوية، يختلف كل منها عن الآخر»[1].

3-3-3 آثار وظيفية الجرجاني:

حظيت نظرية الجرجاني بمكانة مرموقة بين القدامى والمحدثين وتأثروا بها أيما تأثر وممن تأثروا به:

1- **الزّمخشـــري:** طبق الزمخشري فكر عبد القاهر في تفسيره"الكشاف"[2]، واستفاد من جل الدقائق التي أوردها، والمطلع على هذا الكتاب يجد ذلك جليا.

2- **السكاكي**: اعتمد السكاكي في تأليف كتابه "مفتاح العلوم" على "الكشاف" وعلى "الدلائل" بصفة أساســية خاصـــة مـــا تعلق بالقسم الثالث منه "علم المعاني والبيان" فهو يعتبر تلخيصا وإعادة تصنيف لكـــتاب"الدلائل" غير أنه اتّسم بالتقسيم الدقيق وضبط الحدود المميزة، مما أظهر على البلاغة العربية مع الســـكاكي صـــبغة الـــتكامل والعلمية. وما دام السكاكي اعتمد في تأليف كتابه " مفتاح العلوم" على الجرجاني فلابد وأن يكون قد دفعه إلى ذلك ميل فكري أو استقطبه منهج علمي.

3- **الشـــيخ محمّـــد الطاهر ابن عاشور**:سنتعرض في الفصلين الثاني والثالث إلى شواهد كثيرة تبين تأثر الشيخ بالجرجاني وقد صرح هو نفسه بذلك[3].

4- **إبراهيم مصطفى**: ذكرنا أنّ إبراهيم مصطفى انتقد النحاة الذين جاءوا بعد عبد القاهر في كونهم لم يأتـــوا بجديد، وانتقد نظرية العامل، ويعتبر من الداعين الأوائل إلى فكرة ضمّ علم المعاني للنحو، متأثرا في هـــذه الأخيرة بعبد القاهر[4]، فيما سماه معاني النحو، وذلك في قوله:« وإذ قد عرفت أنّ مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه...» [5] يقـــول د.إبراهيم مصطفى:

(1) محمود نحلة: لغة القرآن في جزء عمّ، ص462.

(2) انظر: عبد الفتاح لاشين: **التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر**، دار المريخ، الرياض، السعودية، (د ت) ،ص185.

(3) انظر: الفصل الثاني، ص70 ، 79 ، 94، 117. و انظر: تفسير التحرير والتنوير: 293/1، 322/1، 608/1، 104/2.

(4) انظر: عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، ص235، 239.

(5) الدلائل، ص132.

« ولقــد آن لمــذهب عبد القاهر أن يحيا وأن يكون هو سبيل البحث النحوي، فإن من العقول ما أفاق لحظِّــه من التفكير والتحرر، وأن الحس اللغوي أخذ ينتعش ويتذوق الأساليب ويزنها بقدرتها على رسم المعاني والتأثير بها، من بعد ما عاف الصناعات اللفظية وسئم زخارفها»[1].

5- **د.مهــدي المخزومــي**: يبدو أنّ د.مهدي من القائلين بوجوب ضم علم المعاني للنحو[2]، يقول:« وليســت ملاحظة المناسبات القولية، والعلاقة بين المتكلمين والمخاطبين بجديدة على الدرس النحوي، بل هي الأساس الذي ينبني عليه تأليف الجملة: وكان لإهمال النحاة هذه الملاحظة أثر في فصل دراسة المعاني، وفي ذهاب كل فريق من الدارسين بشطر من شطري الدراسة الواحدة، وفي ظهور تعبيرات ومصطلحات مصطنعة لتقسيم دراسة واحدة لها موضوع واحد هو الجملة...)[3]، فهو بهذا يؤكّد على فكرة المزج بين علم المعاني والنحو. ونجده يطبق هذه الفكرة في حديثه على أساس بناء الجملة لتؤدي الوظيفة المنوطة بها، قوله:« والجملة خاضعة لمناسبات القول، وللعلاقة بين المتكلم والمخاطب، ولا يتم التفاهم في أية لغة إلا إذا روعــيت تلك المناسبات، وأخذت العلاقة بين أصحابها بنظر الاعتبار، ولن يكون الكلام مفيدا، ولا الخبر مــؤديا غرضه ما لم يكن حال المخاطب ملحوظا ليقع الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول. ومن أجل هذا تكلم أصحاب علم المعاني وأسهبوا في مقتضى الحال... »[4].

6- **د.تمام حسان**: يقول د.تمام وهو يقدم لكتابه "اللغة العربية معناها ومبناها":« ولما ظهر الاتجاه البلاغي إلى دراسة المعنى كان من طلائع كتبه"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للعلامة عبد القاهر الجرجاني الذي أعترف لآرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل على الجزء الخاص بتناول المعنى النحوي والدلالي من هذا الكتاب حيث جرى الانتفاع أحيانا بعبارات هذا العلامة وأحيانا أخرى بإشاراته»[5]، ثم يقول عن دراسة المعنى بأنها « تبدو أكثر صلة بالنّحو منها بالنقد الأدبي »[6]، وعن علم المعاني يقول: «حتى إنه ليحسن في رأيي أن يكون علم المعاني قمة الدراسة النحوية أو فلسفتها إن صح هذا التعبير.ولقد كانت مبادرة العلامة

(1) إحياء النحو، ص20 .

(2) انظر: عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، ص 239.

(3) مهدي المخزومي: في النحو العربي، نقد وتوجيه، ص225، 226، 228.

(4) المرجع نفسه، ص225.

(5)، (6) اللغة العربية معناها ومبناها، ص18.

عبد القاهر رحمه الله بدراسة النظم وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العـــربية قيمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب »[1] . فالدكتور تمام تأثر بعبد القاهر أكثر من سابقيه.

3-4 ملامح المنحى الوظيفي عند" السكاكي"(ت626 هـ):

سبق أن ذكرنا أن السكاكي كان أول من أضفى على البلاغة صبغة التقسيم العلمي وكان متأثرا في ذلك بالجرجاني المؤسس الأول للوظيفية العربية بل اعتمد عليه في كثير من آرائه المبثوثة في كتابه "مفتاح العلوم"، هذه الآراء التي لا تخلو من ملامح المنحى الوظيفي.

علاقة البنية بالوظيفة :

أ- دور المقام في توجيه بنية الخطاب :

الوظائف المقصودة بالكلام هي التي تتحكم في بنياته وللكلام ظروف تحيط بعناصره يجمعها ما يسمّى بالمقـــام الـــتخاطبي وقد اشتهرت مع السكاكي مقولة(لكلّ مقام مقال) حيث وضع في المفتاح مبحثا بهذا العـــنوان يتـــناول فيه المقام الذي يمثل أهم محددات الرسالة اللغوية ونجده يتحدث عن اختلاف وظائف الكـــلام ومقاماته وتبعا لذلك بنياته اللغوية، فيقول: « لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يـــباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل. وكذلك مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب ، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي ، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضـــى الآخر» [2]؛ فالدلالات تفترق ولكل دلالة وجه من التراكيب يختص بها، وفي هذا الشأن يقول أيضا:« فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحســـن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه (مقتضى الحال) فـــإن كـــان مقتضى الحال إطلاق الحكم، فحسن الكلام تجريده عن مؤكدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحليه بشيء من ذلك بحسب المقتضى ضعفاً وقوة...»[3]،وتحليل الظاهرة

---

(1) المرجع السابق، ص18.

(2) **مفتاح العلوم**، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987، ص168.

(3)المرجع نفسه، ص169.

اللغـــوية عند السكاكي تحليل متكامل يربط بين المعنى الصريح وهو المعنى الأصلي والمباشر للعبارة، والمعنى المســـتلزم مقاميا وهو غير الأصلي وغير المباشر، ويحاول أن يراعي جميع المستويات اللغوية عند التحليل، يقول د.المتوكل:« وتمتاز اقتراحات السكاكي في "مفتاحه" عن باقي ما ورد في وصف الظاهرة بأنها تجاوز الملاحظـــة الصـــرف وتحمـــل أهم بذور التحليل الملائم للظاهرة، أي التحليل الذي يضبط علاقة المعنى "الصريح" بالمعنى المستلزم مقاميا ويصف آلية الانتقال من الأوّل إلى الثاني بوضع قواعد استلزامية واضحة. هذا بالإضافة إلى ميزة أخرى هي أن تقعيد السكاكي للاستلزام التخاطبي وارد مؤطرا داخل وصف لغوي شامل يطمح لتناول جميع المستويات اللغوية(أصوات، صرف، نحو، معاني، بيان...)»[1] .

ب- ظواهر وظيفية تداولية :

1- خروج الاستفهام عن معناه الأصلي:

ينقسم الكلام عند العرب إلى قسمين:خبر وإنشاء ، والثاني عند السكاكي هو الطلب، وللطلب قسمان مـــن المعـــاني الوظيفـــية: أصلية ومتولدة عن الأصلية. ومعاني الطلب الأصلية عند السكاكي خمسة هي: الاستفهام، والنداء ، والتمني، والأمر، والنهي. والمعاني المتولدة عن معاني الطلب الأصلية(المستلزمة مقاميا) تـــأتي بخـــروج معاني الطلب الأصلية على أصلها حين يُلزِم المقام بذلك، ومنها: الإنكار والتوبيخ والزجر والتهديد ...ونعني بالمقام هنا ما تستدعيه وظيفة التركيب في هذا الحال. وسنتعرض لأمثلة توضح خروج الاستفهام عن معناه الأصلي [2]:

المـــثال الأول: إذا قلت:"هل لي من شفيع" في مقام لا يتسع إمكان التصديق بوجود الشفيع، امتنع إجراء الاستفهام على أصله وولد بمعونة قرائن الأحوال معنى التمني.

المـــثال الـــثاني: إذا قلت لمن تراه يؤذي الأب"أتفعل هذا ؟" امتنع توجه الاستفهام إلى فعل الأذى لعلمك بحاله، وتوجّه إلى ما لا تعلم مما يلابسه من نحو :" أتستحسن" وولد الإنكار والزجر.

المـــثال الثالث: وإذا قلت لمن بعث إلى مهم وأنت تراه عندك " أما ذهبت بعد"، امتنع الذهاب عن توجه الاستفهام إليه لكونه معلوم الحال، واستدعى شيئا مجهول الحال مما يلابس الذهاب، مثل :" أما يتيسر لك الذهاب" وتولد منه الاستبطاء والتحضيض .

---

(1) أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص96.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص99، 100.

فالسكاكي في أمثلته هذه يمتاز بدقة الوصف والتحليل، وبالقدرة التنبئية العالية [1].

2- حالات المسند إليه :

لا يفصل السكاكي بين علم المعاني والنحو في حديثه عن البنيات التي توضح حالات المسند إليه المختلفة بحسب مقام الخطاب، وحال المخاطبين والوظيفة التواصلية المنوطة بهذا الخطاب، يقول في تفصيل حالات المسند إليه(ذكره، حذفه، تعريفه، تنكيره، تقديمه، تأخيره...):«...ناظرا بنور عقلك وعين بصيرتك في التصفح لمقتضيات الأحوال في إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة، وصور متنافية، حتى يأتي بروزه عندك لكل منزلة في معرضها...فتعرف أيما حال يقتضي طي ذكره، وأيما حال يقتضي خلاف ذلك، وأيما حال يقتضي تعرفه: مضمراً، أو علماً، أو موصولاً، أو اسم إشارة، أو معرفا باللام، أو بالإضافة...وأيما حال يقتضي تقديمه على المسند وأيما حال يقتضي تأخيره...» [2].

3- حذف المسند إليه : يضبط السكاكي بمنطق صارم الحالات التي يتطلب فيها المقام التواصلي أن تؤدى وظيفة التواصل ببنيات يُطوى فيها ذكر المسند إليه بقوله:« أما الحالة التي تقتضي طيّ ذكر المسند إليه فهي: إذا كان السامع مستحضرا له، عارفا منك القصد إليه عند ذكر المسند، والترك راجع إما لضيق المقام، وإما للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، وإما للتخييل أن في تركه تعويلا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر، وكم بين الشهادتين، وإما لإيهام أن في تركه تطهيرا للسان عنه أو تطهيرا له عن لسانك، وإما للقصد إلى عدم التصريح ليكون لك سبيل إلى الإنكار إن مست الحاجة، وإما لأن الخبر لا يصح إلا له حقيقة، كقولك: خالق لما يشاء فاعل لما يريد، أو ادعاء، وإما لأن الاستعمال وارد على تركه أو ترك نظائره، كقولهم: نعم الرجل زيد، على قول من يرى أصل الكلام: نعم الرجل هو زيد، وإما لأغراض سوى ما ذكر، مناسبة في باب الاعتبار بحسب المقامات...» [3].

4- قصر المسند إليه على المسند :

يذكر السكاكي الحالة الأكثر تداولا في قصر المسند إليه على المسند ويشير في ذلك إلى الجانب التداولي في التواصل والذي يعكسه التفاعل الحاصل بين المتكلم والسامع فيقول: « وأما الحالة المقتضية لقصر المسند

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص101.

(2) مفتاح العلوم، ص175.

(3) المرجع نفسه، ص176.

إليه على المسند فهي: أن يكون عند السامع حكم مشوب بصواب وخطأ، وأنت تريد تقدير صوابه ونفي خطئه مثل أن يكون عند السامع: أنّ زيدا متموّل وجواد، فتقول له: زيد متموّل لا جواد، ليعرف أن زيدا مقصور على التمول لا يتعداه إلى الجود أو تقول له: ما زيد إ لا متموّل، أو إنما زيد متموّل » [1].

في هذه الظواهر الوظيفية التداولية يتبين أن السكاكي يرى بضرورة أن تكون البنيات اللغوية مهما كانت خواصّـــها التركيبية انعكاسا لوظائفها التبليغية التي تناسب مقامات الخطاب المختلفة. وهو بهذا يجسد أهم المبادئ الوظيفية وهو المبدأ الثاني (تبعية البنية للوظيفة).

يصـــف الدكتور أحمد المتوكل الوظيفية عند السكاكي بالوظيفية الضعيفة على العكس مما وصف به وظيفية الجرجاني التي اعتبرها وظيفية قوية، ويعلّل ذلك بكون الأول لا تشارك عنده الخصائص التداولية في تحديـــد التركيب وتوليده؛ أي أنّ الجوانب التداولية لا تحدد الخصائص التركيبية للجملة أو العبارة، وإنما تشكل تأويلات لها وبالتالي تعدّ الجوانب التداولية عنده مكونا تأويليا لا توليديا .أما الثاني فوظيفية قائمة علـــى مبدأ أن الجوانب التداولية تحدد الخصائص الصورية للتركيب حيث تشكل الجوانب التداولية فيها مكوناً توليدياً [2] . وهنا نحاول أن نعرض قولا للجرجاني يثبت قوة وظيفيته هذا نصه: « فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق؛ فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظـــم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظـــن ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه، وكيف تكون مفكرا في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إذا عرفتها عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا؟ »[3]. نلاحظ في كلام الجرجاني هذا أنه يرى بضرورة أن تتفاعل الخصائص التركيبية للبنيات اللغوية مع جوانبها التداولية أثناء إنتاج الكلام لا قبله ولا بعده.

---

(1) المرجع السابق، ص196.

(2) انظر: اللسانيات الوظيفية، ص35.

(3) دلائل الإعجاز، ص104.

الفصل الثاني

نماذج من التحليل الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير

(التحليل في ضوء المبادئ المنهجية لنظرية النحو الوظيفي)

1- الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي وظيفة التواصل

2- تُحدِّد وظيفة اللغات الطبيعية الخصائص البنوية لهذه اللغات (تبعية البنية للوظيفة)

3- السّعي إلى تحقيق الكفايتين: التداولية والنفسية

سنتعرض لنماذج من تفسير التحرير والتنوير محللة في ضوء المبادئ المنهجية في نظرية النحو الوظيفي والتي تناولناها في الفصل الأول، ونكتفي بالمبادئ التي نجد لها تطبيقا واضحا، وهذه المبادئ هي:

1- الوظيفة الأساسية للغات الطبيعية هي وظيفة التواصل.

2- تُحدِّد وظيفة اللغات الخصائص البنوية لهذه اللغات (تبعية البنية للوظيفة)

3- السعي إلى تحقيق الكفايتين:

أ- الكفاية النفسية *(Psychological adequacy)*

ب- الكفاية التداولية *(Pragmatic adequacy)*

تعمــدت أن أنقــل تحلــيلات الشيخ ابن عاشور كما هي حرفيا مختصرة وذلك توخيا للدقة وتجنبا للتصــرّف الذي قد يذهب الفكرة أو يؤدي إلى الخطأ، وقصداً لإظهار المنحى الوظيفي للشيخ كما يقول هــو في تفسيره لا كما نفهم نحن فقط. وجعلت الآية(الشاهد) المقصودة بالتفسير أولا، ولكي لا يطول الــبحث بالتكرار وبتوضيحنا لكل البنيات اللغوية وعلاقاتها بوظائفها أتبعت الآيات المرتبة كما وردت في السورة بتفسير الشيخ ثانيا؛ لأنه يغني عن الكثير من التوضيحات، وأخيرا أضفت ما أراه مهما.

المبدأ الأول: الوظيفة الأساسية للغة هي التّواصل

تتفق كل المدارس اللغوية في أن الوظيفة الأساسية للغات هي التبليغ والتواصل، وهذا المبدأ ليس بجديد ولكن المهم أن نطبقه كمقياس في تحليل تراكيب اللغة ووصف نظامها[(1)]، الذي لم يأت مصادفة على هذا الشكل، وإنما روعيت فيه أسرار فنية ومغاز تركيبية وأغراض تواصلية وخاصة ما تعلق بالأساليب القرآنية مــن هذا النظام[(2)]، وكل كلام غرضه التواصل وبالتالي لا نستطيع عرض نماذج بعينها من تفسير التحرير والتنوير لتدل على هذا المبدأ .وكل النماذج التي سنعرضها في المبدأين التاليين تعبر عن التواصل ولولا اللغة لما وصلت دلالات رسائلها وما يريد المخاطب تبليغه بها.

المبدأ الثاني: تبعية البنية للوظيفة

يعــد هذا المبدأ أهمّ المبادئ في نظرية النحو الوظيفي ونراه أكثر واقعية وأوسع تطبيقا، وهو يتجلّى في إظهــار الكيفيات التي يتكون بها الكلام وضوابط العلاقات التي تقوم بين عناصره ليكون مفيدا في تأدية أغــراض المــتكلمين.وســنعرض مجموعة نماذج لبنيات مختلفة يُظهر تحليل ابن عاشور لها مدى ارتباطها بالوظيفة التواصلية التي وضعت من أجل تأديتها.

(1) انظر: عبد القادر المهيري: اللسانيات الوظيفية، ص41.

(2) انظر: عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر ، ص164.

1- تغير أشكال الرّتب ودلالاته الوظيفية

الرتبة من أهم ما يوضِّح اختلاف البنيات اللغوية لاختلاف الوظائف التواصلية، والرتبة في النحو قرينة علـى المعـنى وفي الأسلوب مؤشر أسلوبي ووسيلة إبداع واستجلاب معنى أدبي. والرتبة النحوية نوعان: محفوظة يتحتّم بها أن تأتي إحدى الكلمتين أولا، والأخرى ثانيا ولا عكس(رتبة حروف الجر مثلا)، وهي رتـبة في نظام اللغة وفي الاستعمال في الوقت نفسه، وغير محفوظة يمكن فيها لإحدى الكلمتين أن تتقدّم حيـنا وتتأخّر حينا آخر (رتبة الفعل من المفعول مثلا)، وهي رتبة في النظام فقط، وقد يحكم الاستعمال بوجوب عكسها[1].

والـتقديم والـتأخير يتعلّقان بالرتب غير المحفوظة، والتقديم يكون دائما لغرض يتعلق بالمعنى لا بالبنية الشـكلية أو بموسيقى الكلام [2]، يقول الجرجاني عن باب التقديم والتأخير:« هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسـن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفترّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحـول اللفـظ عـن مكـان إلى مكان، واعلم أن تقديم الشيء على وجهين: تقديم يقال إنه على نية التأخير...كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ...،وتقديم لا على نية التأخير...(ضربت زيدا، وزيدٌ ضربته) لم تقـدم زيدا على أن يكون مفعولا منصوبا بالفعل كما كان...»[3]. ونظرية النحو الوظيفي تعتبر كل بنية مـن البنى التي يتصور فيها التقديم والتأخير أصلية هكذا قيلت في مقام خاص بها هي وحدها لتأدية غرض محـدد وموجهة لمستمع محدد ولا تعتبر محولة، فالجملتان:- زيدا قابل خالد .-قابل خالد زيدا .هما بنيتان أصليتان في حين أن نظرية النحو التحويلي تعتبر الأولى مشتقة تحويليا من الثانية [4] .

1-1 تقديم المسند إليه:

تـتكون الجملـة حسب الوظيفيين من مسند ومسند إليه، وقد اتفق النحاة والبلاغيون على أن أساس الجملـة هو الإسناد ولا تكون مفيدة إلا بوجود طرفيه، وأصل المسند إليه المبتدأ أن يتقدم على خبره، أما المسـند إلـيه الفاعـل فيجوز تقديمه عند الكوفيين وبعض المحدثين وذلك لغرض إبلاغي ولتأدية وظيفة تواصلية، منها التخصيص، كما في قوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ (الرعد: من الآية26)؛ أي

(1) انظر: حسان تمام: البيان في روائع القرآن،ص91.

(2) انظر: خليل عمايرة: **في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق،** عالم المعرفة، جدة، السعودية، ط1، 1984، ص89، 90.

(3) دلائل الإعجاز، ص148.

(4) انظر: أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص 22.

الله وحده هو الباسط والقادر. ومثل ذلك إذا تقدم المسند إ ليه وولي حرف النفي نحو: ما أنا قلت هذا . أي لم أقله مع أنه مقول، فأفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك[1]، ومما يفيده تقديم المسند إ ليه على المسند الفعلــي بالإضافة إلى التخصيص: تقوية الخبر أو الحكم وتحقيقهما، وتعجيل المسرة أو المساءة نحو:السفاح في دار صديقك[2]، وقصر المسند على المسند إ ليه والعكس. ويتبين كل هذا من خلال النماذج الآتية.

النماذج:

1- ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ (البقرة: من الآية4) «وقوله(هُمۡ يُوقِنُونَ)جيء بالمسند إليه مقدما على المسند الفعلي لإفادة تقوية الخبر»[3]فالغرض الوظيفي من هذا التقديم هو تأكيد المسند إليه"هُمۡ"للمسند"يُوقِنُونَ".

2- ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾ (البقرة: من الآية15)«...فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لإفادة تَقَوِّي الحكم ثم يفيد مع ذلك قصر المسند على المسند إليه...على رأي الشيخ عبد القاهر وصاحب الكشاف»[4]؛ أي الله العظيم سبحانه وتعالى يتولى أمرهم ويكفيهم .

3- ﴿ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ (البقرة: من الآية30)« وتقــديم المسند إليه على الخبر الفعلي دون حرف النفي يحتمل أن يكون للتخصيص بحاصل ما دلّت عليه الجملة الاسمية من الدّوام أي نحن الدّائمون علــى التسبيح و التقديس دون هذا المخلوق والأظهر أن التقديم لمجرّد التقَوِّي نحو:هو يعطي الجزيل»[5]، وقــد أفــاد تقديم المسند إليه نَحۡنُ (الملائكة)-كما هو معهود في تقديم المسند إليه الضمير خاصة-وظيفة الاعتناء؛ أي إظهار اعتنائهم بالتسبيح والتقديس ومداومتهم عليهما.

4- ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ (البقرة:من الآية268)« وقدم اسم الشيطان مسندا إليه لأنّ تقديمه مؤذن بذم الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم، كما يقال في

---

(1) انظر: عبد القاهر الجرجاني في: الإيضاح في علوم البلاغة، ص63.

(2) انظر: التفتازاني: مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم، ص 97.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير،241/1.

(4) المصــدر نفســه، ص293/1. وانظــر: الزمخشري: **تفسير الكشاف عن حقائق التتريل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار المصحف، القاهرة، ط2، 1977، 37/1.

(5) ابن عاشور: التحرير والتنوير ، 406/1.

مـــثال علـــم المعاني(السفاح في دار صديقك)، ولأنّ في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقَوّيَ الحكم وتحقيقه.»[1]، تقديم الشيطان كانت له وظيفة ضمنية دون التصريح بها وهي أن هذا الاسم (الشيطان) لا يأتي معه إلا التحذير من غوايته والوعيد لمتبعيه وبالتالي عجّل بذكره قبل أن يذكر سوء صنيعه.

2-1 تقديم الخبر:

يـــتقدم الخـــبر في البنية اللغوية لتحقيق الوظيفتين التواصليتين: تشويق السامع لما سيأتي بعده، و إبراز الاهتمام به، ويضيف ابن هشام دفع اللبس إذا وقع بسبب تأخيره[2].

النماذج:

1- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (البقرة:8) «وقوله (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ...) خبر مقدم لا محالة...وقد كثر تقديم الخبر في مثل هذا التركيب لأنّ في تقديمه تنبيها للسّـــامع على عجيب ما سيذكر، وتشويقا لمعرفة ما يتم به الإخبار، ولو أخّر لكان موقعه زائدا لحصول العلم بأنّ ما ذكره المتكلم لا يقع إلا من إنسان »[3]، تقديم الخبر في هذه الآية جعل له وظيفة خاصة ولو أخـــر لذهبت فائدته، وهو يدل على أن لكل كلمة في التركيب قيمتها في ذاتها وفي ترتيبها الخاص وما لا تحصل به الفائدة ينبغي ألا يذكر.

2- ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ (البقرة: من الآية78) « ومـــنهم خـــبر مقدّم وتقديمه للتشويق إلى المسند إليه...»[4] ؛ أي من اليهود طائفة أميون، والقارئ أو السامع لكتاب الله ينتظر ويشتاق إلى القول عنهم أو ما سيصدر في حقّهم بعد تحديدهم بقوله(وَمِنْهُمْ).

3- ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ (البقرة:134) «وتقديم المسندين على المسند إليهما في(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ)لقصر المسند إليه على المســـند؛ أي ما كسبت الأمّة لا يتجاوزها إلى غيرها وما كسبتم لا يتجاوزكم، وهو قصر إضافي لقلب اعتقاد المخاطبين فإنهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من

(1) المصدر السابق، 59/3.

(2) انظر: **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، وضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت،ط1، 1997، 117/1.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 259/1، 260.

(4) المصدر نفسه، 573/1.

المعاصـــي أو يحملـــه عنهم أسلافهم»[1]. راعى الشيخ ابن عاشور هنا في تحليله ملابسات الخطاب وحال المخاطـــبين، وهـــذا النص لا يفهم معناه الأصلي إلا بمراعاة ذلك، فقَلْب اعتقاد المخاطبين وهو الوظيفة الأساسية لهذه الآية حققته هذه البنية بالذات والتي جاءت على صورة القصر الإضافي.

4- ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ (البقرة: من الآية 226) « وتقديم "لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ "على المبتدأ المسند إليه، وهو"تَرَبُّصُ" للاهتمام بهذه التوسعة التي وسع الله على الأزواج، وتشويق لذكر المسند إلـــيه» [2]، حكم التربص هذا -(الانتظار الذي لا يترتب عليه إثم حتى إنهاء مدة أربعة أشهر)- قد يكون فـــرجا طالما انتظره هؤلاء خاصة منهم الذين يسعون إلى رضا الله والتوبة من الذنب، فبمجرّد ذكر اسمهم مسبوقا بلام الملكية تشرئبّ أعناقهم سماعا لما سيصدر من المولى عزّ وجل من حكم في حقهم، وهذا الفهم أحالتنا عليه رتبة الخبر.

1-3 تقديم المجرور:

تقدُّم المجرور على المتعلق به معنويا يحصِّل فائدة الاهتمام به أو قصره عليه أو لتخصيصه.وقد يكون لدفع اللبس عن المعنى.

النماذج:

1- ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (البقرة: من الآية3)« تقديم المجرور المعمول على عامله وهو ينفقون لمجرد الاهـــتمام بالـــرزق في عـــرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنّهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النّفس...»[3]، وقد يكون في هذا التقديم إشارة إلى أن ما ينفقونه هو من رزق الله، وهو الذي أعطاه لهم ابتداء . ولهذا كانت رتبة الرّزق قبل رتبة إنفاقه لتؤدّي كل هذه الدلالات.

2- ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة: 138) «...وفي تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله(لَهُۥ عَـٰبِدُونَ)إفادة قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعبودية

---

(1) المصدر السابق، 735/1.

(2) نفسه، 385/2.

(3) نفسه، 236/1.

لكنّهم عبدوا المسيح »[1]؛ أي لم يعبده النصارى بل عبده المسلمون الذين صبغوا أنفسهم وأهليهم بصبغة الإسلام [2].

3- ﴿وَلَنَا أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ (البقرة: من الآية 139) « وتقـــديم المجرور في(لَنَا أَعْمَـٰلُنَا) للاختصـــاص أي لنا أعمالنا لا أعمالكم »[3]؛ أي أعمالنا الخاصة التي فيها إخلاص للعبادة لا أعمالكم المشوبة بالشرك.

4- ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ (البقرة: من الآية 255) « وما تضمنه تقديم المجرور من قصر ذلك الملك عليه تعالى قصر قلب »[4]، بتقديم المجرور ردّ الله تعالى عمن يعتقدون أن الملك فيه شركاء .

1-4 تقديم المفعول به :

تـــتمّ وظيفة الجملة بتكامل كل عناصرها، ويعد المفعول به في الجملة المتعدية الهدف أو نتيجة الحدث وهو أهم من الحدث[5]، وتقدم المفعول به تحكمه الوظيفة التداولية ففي الجملتين:

أ- قابل عمرو هنداً ب- هنداً قابل عمرو

فالجملـــة(أ)جـــواب لاســـتفهام، والجملة(ب) تعيين للمعلومة الواردة[6]، فالوظيفة هي التي حددت رتبة المفعول ونمط البنيتين.

يفســـر ابن جني الدوافع النفسية والبيانية التي تقف وراء تقديم المفعول به.ويذكر منها: العناية، وذلك بـــتقديمه علـــى الفاعل، نحو:ضرب عمرا زيد.وزيادة العناية وذلك بتقديمه على الفعل والفاعل نحو: عمرا ضـــرب زيـــد. والتظاهر بالعناية به وحينها يعقدونه رب الجملة، ويتجاوزون به حد الفضلة نحو: عمرو ضربه زيد. و عمرو ضرب زيد... [7] .

---

(1) المصدر السابق، 745/1.

(2) انظر: محمد سليمان الأشقر: **زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني**، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الرياض، ط5 ، 1994، ص26 .

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 746/1.

(4) المصدر نفسه، 20/3.

(5) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص79.

(6) انظر: أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، ص 15.

(7) انظر: الفصل الأول، ص51.

ويقول القرطبي عن تقديم المفعول به في الآية: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾(الفاتحة:5) :

«... إنْ قـيل: لِـمَ قدم المفعول على الفعل؟قيل له: اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم.يذكر أن أعرابيا سـبّ آخـر فأعرض المسبوب عنه، فقال له الساب:إياك أعني ، فقال له الآخر: وعنك أعرض، فقدما الأهـم.وأيضـا لـئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود، فلا يجوز نعبدك ونستعينك، ولا نعبد إياك ونستعين إياك...»[1]. تؤدي البنية التي يتقدم فيها المفعول به بالإضافة إلى وظيفة العناية والاهتمام وظائف الحصـر، والقصر، والتفصيل، ورد الخطأ في التعيين كقولك لمن اعتقد أنك عرفت إنسانا غير زيد : زيدا عرفت. ويوضح هذا تحليل الشيخ ابن عاشور للنماذج الآتية:

النماذج:

1- ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝ ﴾(البقرة:من الآية 40) «فـتقديم المفعول هنا متعين للاختصـاص ليحصل من الجملة إثبات ونفي واختير من طرق القصر طريق التقديم دون ما وإلا ليكون الحاصـل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى، ويكون النهي عن رهبة غيره حاصلا بالمفهوم إذا رهبوا الله تعـالى حرصوا على الإيفاء بالعهد، ولما كانت رهبتهم أحبارهم تمنعهم من الإيفاء بالعهد أدمج النهي عن رهبة غير الله مع الأمر برهبة الله تعالى في صيغة واحدة...وتقديم المفعول مع اشتغال فعله بضميره آكد في إفـادة التقديم الحصر من تقديم المفعول على الفعل غير المشتغل بضميره، فإيّاي ارهبون آكد من نحو إيّاي ارهـبوا كما أشار إليه صاحب الكشاف»[2]؛ فالتقديم في(وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ) اشتمل على إثبات الخشية لله وحده، والنهي عن خشية غيره.

2- ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ ﴾(البقرة:من الآية 57) « وقوله(وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) قدم فيه المفعول للقصر وقد حصل القصر أولا بمجرد الجمع بين النفي والإثبات ثم أكد بالتقديم لأنّ حـالهم كحال من ينكي غيره كما قيل يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدوّ بعدوه »[3] ؛ أي اقتصر ظلمهم على أنفسهم، والله أعزّ من أن يظلم.

---

(1) انظر: القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، مكتبة رحاب، الجزائر، ط 4، 1410/ 1990، 192/1.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير،454/1. وانظر: الزمخشري: تفسيرالكشاف، 65/1.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير ،512/1.

3- ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ (البقرة: من الآية87) «وتقديم المفعول هنا لما فيه من الدلالة على التفصيـــيل فنا سب أن يقدم ليدل على ذلك »[1]، جاء التقديم هنا لتفصيل القول فيما حدث للمفعول به (فَرِيقًا) في الجملتين.

2- الحذف والذكر في الكلام ودلالاتهما الوظيفية

2-1 الحذف: يعتبر الحذف من أبرز الأساليب البلاغية التي تحقق للتراكيب وظائف دقيقة وعجيبة، وعنه يقول الجرجاني: « هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تُبِن، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر»[2].

واللغويون الأوائل يعدون الموقف الكلامي بظروفه كلاًّ واحدا فيقبلون بحذف عنصر أو أكثر من الكلام إذا وجد ما يدل عليه في سياق هذا الكلام، تقول العرب:(اللهم ضبُعا وذئبا) في الدعاء على غنم أحدهم. ولا يخفى عليهم معناها، وإذا سألتهم ما يعنون قالوا: اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعا وذئبا. وكلهم يفسر ما ينوي[3]، وقد اعتبر ابن جني الحذف مما يدل على شجاعة العربية، ويرى أنه يمس كل عناصر التركيب حتى الحركة، لا مصادفة ولكن عن دليل حالي(المقام) أو مقالي(السياق)، يقول: «قد حذفت العرب الجملة والمفرد و الحرف و الحركة، وليس شيء من ذلك إلاّ عن دليل عليه، وإلاّ كان فيه ضرب من تكليف علم الغـــيب في معرفته»[4]، والحذف اختصار للكلام لعلم المخاطب بما أريد به والعرب تحب الإيجاز وقد كثر الحذف في كل الكلام العربي البليغ « والمحذوفات في كتاب الله تعالى لعلم المخاطبين بها كثيرة جدا، وهي إذا أظهرت تم بها الكلام، وحذفها أوجز وأبلغ.» [5]، بقي أن نشير هنا إلى أن هناك من المحدثين من يرى أن كثيرا مما اعتبره علماء اللغة من الحذف هو ليس بحذف،وذلك برفضه ضرورة مطابقة أطراف التركيب اللّغوي (المسند والمسند إليه)لأطراف القضية المنطقية (الموضوع والمحمول). فلا يلزم عنده أن تتكوّن الجملة

---

(1) المصدر السابق، 598/1.

(2) الدلائل، ص177.

(3) انظر: سيبويه: الكتاب، 254/1، 255.

(4) الخصائص، 360/2.

(5) ابن مضاء القرطبي:**كتاب الرد على النحاة**، دار المعارف، بمصر، ط3، (د ت)، ص79.

من مسند ومسند إليه، فهناك جمل إسنادية تتكون من ركن واحد مسند أو مسند إليه فقط ويستدل لذلك على أن الحالات التي رصدها اللغويون لحذف أحدهما دليل على عدم ضرورة وجودهما معا ليقابلا ركني القضية المنطقية[1]، نشير هنا إلى أنّ جمهور النحاة قد اتفقوا على أن المسند إليه هو المحكوم عليه والمسند هو المحكوم به[2].وللحذف في تراكيب اللغة وظائف دلالية هامة لولاه ما حققها التركيب نتعرض لشيء منها فيما اخترناه من تحليل وظيفي لابن عاشور لبعض تراكيب القرآن العظيم.

أ- حذف المسند إليه:

حذفت العرب المسند إليه المبتدأ «ومن المواضع التي يكثر فيها حذف المبتدأ: القطع والاستئناف؛ يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره، ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاما آخر، وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ »[3]، ولحذف المسند إليه أغراض منها: الاختصار والاحتراز عن العبث والسّأم، تلبية غرض تشوق السائل بذكر ما يسأل عنه مباشرة كما هو في جواب الاستفهام أو بعد القول...، ضيق المقام عن إطالة الكلام لغمّ أو لتوجّع، نحو قوله تعالى:﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾(يوسف: من الآية18) أي: فصبري صبر جميل، أو أمري[4]. صونه عن الذكر تعظيما لــه وتشريفا [5]، كما في الآيات: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الشعراء:23-28) أضمر موسىعليه السلام اسم الله تعالى في إجابته عن أسئلة فرعون في ثلاثة مواضع قبل كلمة"رب"تشريفا له[6]،

---

(1) انظر: عبد الرحمن أيوب: **دراسات نقدية في النحو العربي**، مطبعة مخيمر، القاهرة، 1957، ص158، 159.

(2) انظر: عبد الجبار توامة: **القرائن المعنوية في النحو العربي**، (مخطوط رسالة دكتوراه)، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر، إشراف: فرحات عياش، (1994-1995)، ص44.

(3) الدلائل، ص178.

(4) انظر: ابن هشام: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق: صلاح عبد العزيز علي السيد، دار السلام، القاهرة، ط1، 2004، 776/2.

(5) انظر: طاهر سليمان حمودة: **ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي**، الدار الجامعية، الإسكندرية، مصر،1999، ص106.

(6) انظر: السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، 378/2.

صون اللسان عن ذكره تحقيرا لــه كما في الآية: ﴿ صُمٌّ بُكۡمٌ ﴾(البقرة: من الآية18) ؛ أي هم أو المنافقون[1]، تعجيل المسرة بذكر المسند، نحو: كتابي، مالي[2]. كون المسند لا يصلح إلا لــه كقوله تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ﴾(آل عمران: من الآية27)، والمراد الله سبحانه وتعالى. اختبار تنبّه السّامع لــه عند القرينة، لتخييل أن في تركه شهادة العقل، نحو:

قال لي: كيف أنت قلت: عليلُ   سهــر دائم وحزن طويــل

لم يقــل: أنا عليل، لدلالة اللفظ والعقل عليه[3]، وهناك أغراض أخرى لحذف المسند إليه بيّن الشيخ ابن عاشور بعضها فيما يأتي:

النماذج:

1- ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾(البقرة:18) «...وحــذف المسند إليه في هذا المقام استعمال شــائع عــند العرب إذا ذكروا موصوفا بأوصاف أو أخبار جعلوه كأنّه قد عرف للسّامع »[4]، يقصد بهــؤلاء المنافقين الذين رجعوا عن نور الإسلام إلى ظلمة الكفر، وهم معروفون فعجل الله بذكر صفاهم واستغنى عن ذكرهم لربما ليعجل بطمأنة قلوب المؤمنين بوصفهم بهذا الوصف.

2- ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾(البقرة: 147)«خــبر مبــتدأ محذوف تقديره هذا الحق، وحذف المسند إليه في مثل هذا مما جرى على متابعة الاستعمال في حذف المسند إليه بعد جريان ما يدل عليه »[5]؛ أي من ربك لا ممّا يخبرك به أهل الكتاب.و حذفه لدفع السأم لوجود ما يدل عليه.

3- ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾(البقرة:من الآية185) «...فقوله: شهر رمضان خبر مبتدأ محذوف تقديــره هي؛ أي الأيام المعدودات شهر رمضان والجملة مستأنفة بيانيا، لأن قوله (أياما معدودات) يثير سؤال السامع عن تعيين هذه الأيام، ويؤيد ذلك قراءة مجاهد شهراً بالنصب على البدلية من أياما:بدل

(1) انظر: المرجع السابق، 378/2.

(2) انظــر: الحمصــي: مباحث في علم المعاني، ص54. نشير هنا إلى أنه قد يختلط الأمر كون المحذوف هو المبتدأ أم الخبر، فالأولى هو أن يكون الخبر. وانظر: السيوطي: **الأشباه والنظائر في النحو**، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ،2001، 52/2.

(3) انظر: التفتازاني: مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم، ص69. وانظر: الإيضاح في علوم البلاغة، ص42.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 313/1.

(5) المصدر نفسه، 41/2.

تفصيل...وحذف المسند إليه جار على طريقة الاستعمال في المسند إليه إذا تقدم من الكلام ما فيه تفصيل وتبيين لأحوال المسند إليه فهم يحذفون ضميره»[1]، وحذف المسند إليه هنا للتعجيل بالإجابة عمن يريدون تحديد الأيام المعدودات في الآية السابقة. نشير هنا إلى أنّ"شَهْرُ" تحتمل أن تكون مبتدأ لخبر محذوف[2].

ب- حذف المفعول به :

يشيع حذف المفعول في كلام العرب، ويتعمدون تناسيه[3].وحذفه من البنية اللغوية لتأدية وظائف منها:

- إثبات حصول الفعل من الفاعل أو نفيه عنه على وجه الإطلاق، نحو:﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(الزمر: من الآية9) .

- الاستغناء عنه بتقدم ذكره أو تقدم ما يدل عليه، نحو:﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾(الرعد: 39)، حذف مفعول يُثْبِت وهو: ما يشاء .

- توخّي الإيجاز اعتمادا على اختصاص الفعل بالمفعول، نحو: أصغيت إليه. أي أذني.

- تفخيم المعنى بإيهام قرب الفعل من المفعول، نحو: قول البحتري[4]:

شَجوُ حُسّادِهِ وَغَيظُ عِداهُ أَن يَرى مُبصِرٌ وَيَسمَعَ واعِ

بمعنى أن يرى مبصرٌ محاسنه ويسمع واع أخباره.

- الاحتراز من إيهام خلاف المراد، نحو قول عمرو بن معدي كرب[5]:

فلو أنَّ قَومي أنطقتْني رماحُهم نطَقتُ ولكنَّ الرماحَ أجَرَّتِ

يريد الشاعر إثبات أن الرماح أجرت لا أجرَّته، ولو عدى الفعل(أجرتني) لفهم أنها أجرته وهو غير مراده.

- البيان بعد الإبهام أو الإضمار على شريطة التفسير، نحو:﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾(النحل: من الآية9). أي ولو شاء هدايتكم .

- استهجان التصريح بذكر المفعول به .

---

(1) المصدر السابق، 169/2.

(2) انظر: العكبري: **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط2، 1987، 151/1.

(3) انظر: ابن يعيش: **شرح المفصل**، وضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001،418/1.

(4)، (5) انظر: الدلائل، ص186.

– الاحتراز من مواجهة المخاطب بما لا يليق، نحو قول البحتري [1]:

قدْ طلبْنا فلم نجدْ لكَ في السؤْ ‏ ‏ دُد والمجْـــد والمكَـــارم مثلا

بمعنى: قد طلبنا مثلا.والمادح ينفي وجود المثيل للممدوح، فكيف يقول بطلب المثل، ولهذا حذف.

– تعيّن المفعول به حقيقة أو ادعاء، نحو: قضيت ليلتي أسبّح وأعبُدُ. فلا يسبح ولا يعبد إلا الله.

النماذج:

1- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾(البقرة: من الآية13) «وحذف مفعـــول آمِـــنوا استغناء عنه بالتشبيه في قوله (كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ) أو لأنّه معلوم للسامعين» [2]. تحقيقا للخفة حذف المفعول لوجود ما يدل عليه، ولعلم المخاطبين بما يؤمنون.

2- ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ (البقرة: من الآية20)

« مفعـــول شاء محذوف لدلالة الجواب عليه وذلك شأن فعل المشيئة والإرادة ونحوهما إذا وقع متصلا بما يصـــلح لأن يدل على مفعوله مثل وقوعه صلة لموصول يحتاج إلى خبر نحو ما شاء الله كان، أي ما شاء كـــونه كـــان ، ومثل وقوعه شرطا للو لظهور أن الجواب هو دليل المفعول وكذلك إذا كان في الكلام الســـابق قبل فعل المشيئة ما يدل على مفعول الفعل نحو قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (الأعلى: من الآية6، 7)، قـــال الشيخ في دلائل الإعجاز: إنّ البلاغة في أن يجاء به كذلك محذوفا وقد يـــتفق في بعضه أن يكون إظهار المفعول هو الأحسن» [3]. حذف المفعول هنا يكون أكثر تأثيرا في نفس المستمع، وهذه إحدى أهم الوظائف التداولية التي يحققها التركيب البليغ .

3- ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ﴾(البقرة: من الآية 105) « ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو تأخر عنه أي من يشاء اختصاصه بالرحمة» [4].

4- ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾(البقرة: من الآية22) « ومفعول تعلمون متروك لأن الفعل

---

(1) انظر: الحمصي: مباحث في علم المعاني، ص227.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 286/1.

(3) المصدر نفسه، 321/1، 322.

(4) نفسه، 653/1 .

لم يقصد تعليقه بمفعول بل قصد إثباته لفاعله فقط فترل الفعل مترلة اللازم»[1]. قصد بالبنية اللغوية تَعۡلَمُونَ –حسب المفسّر– تحقّق العلم ذاته لا إظهار طبيعة هذا العلم بذكر المفعول به ولهذا حذف.

5- ﴿ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾(البقرة: من الآية58) « وقوله: (وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)وعد بالزيادة من خيري الدنيا والآخرة ولذلك حذف مفعول نزيد » [2].حذف المفعول به الثاني للفعل سَنَزِيدُ أدى وظيفة عدم حصر الزيادة وتحديدها.

6- ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (البقرة: 103)

«...وحذف مفعول يَعۡلَمُونَ لدلالة (لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ)؛ أي لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشتروا السّحر»[3]. للاحتراز عن السّأم والتكرار حذف المفعول.

7- ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾(البقرة:من الآية223)

« وحذف مفعول قَدِّمُواْ اختصارًا لظهوره؛ لأنّ التقديم هنا إعداد الحسنات فإنها بمترلة الثَّقَل الذي يقدمه المسافر.» [4]، حذف المفعول يؤكد أنّ أفعال البرّ لا يمكن تعدادها وحصرها، وكل خير مهما صغُر هو تقديم ليوم الملاقاة.

8- ﴿ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ ﴾(البقرة:من الآية 282)«وقوله تعالى(وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡ) حذف مفعول تفعلوا وهو معلوم، لأنه الإضرار المستفاد من لا يضار»[5]، بمعنى : تفعلوا الضرر. وحذف للإيجاز والتخفيف .

ج–حذف متعلق الفعل:قد يحذف متعلق الفعل لإفادة العموم وعدم التحديد، كما في النموذجين الآتيين:

(1) المصدر السابق، 1/ 335.

(2) نفسه، 516/1.

(3) نفسه، ص650/1.

(4) نفسه، 374/2.

(5) نفسه، 118/3.

النموذجان:

1- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ (البقرة:11) « ولعل المنافقين قد أخذوا من ضروب الإفساد بالجميع، فلذلك حذف متعلق تفسدوا تأكيدا للعموم المستفاد من وقوع الفعل في حيز النفي »[1]، ولم يكن لهم إفساد واحد حتى يحدّد.

2- ﴿ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ (البقرة: من الآية 282) « والذي يظهر أن حذف المتعلق بفعل (دُعُواْ) لإفادة شمول ما يُدْعَون لأجله في التعاقد: من تحمل، عند قصد الإشهاد، ومن أداء، عند الاحتياج إلى البينة »[2] ؛ أي إذا دُعوا لكل ما له علاقة بالإشهاد .

د- صور من الحذف:

حذف الكلمة المفردة :

تحذِف العرب المفردة إن دل الحال أو المقال أو التأدية الحركية(حركة اليدين، ملامح الوجه) أو الصوتية(النبر والتنغيم) عليها للإيجاز والتخفيف، ولما في ذلك من قوة التأثير، ويكون الحذف حينها أبلغ من الذكر، ومما شاع حذفه في كلام العرب الصفة، يقول أبو الفتح وهو يتكلم عن حذف الاسم: « وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل.وهم يريدون: ليل طويل. وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها. وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلا! فتزيد في قوة اللفظ بـ"الله" هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها وعليها، أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما أو نحو ذلك. وكذلك تقول:سألناه فوجدناه إنسانا! وتمكّن الصوت بإنسان وتفخمه وتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك. وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنسانا! وتزوي وجهك وتقطبه فيغني ذلك عن قولك: إنسانا لئيما أو لحزا أو مبخّلا أو نحو ذلك »[3].

---

(1) المصدر السابق ، 285/1.

(2) نفسه، 113/3.

(3) الخصائص، 370/2، 371.

النماذج:

1- ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة: من الآية 88) « وقليلا صفة لمحذوف دل عليه الفعل والتقدير فإيمانا قليلا وما زائدة للمبالغة في التقليل»[1]، الحذف هنا للإيجاز، ولدفع السأم.

2- ﴿ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: من الآية 136) « وقد دلت كلمة(بين) على محذوف تقديره وآخر لأنّ بين تقتضي شيئين فأكثر»[2]، تم الحذف لوجود الدليل على المحذوف، بغية الإيجاز.

3- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: من الآية 165)، «فالفاعل المحذوف حذف هنا لقصد التعميم أي كيفما قدرت حب محب لله ...»[3].

حذف الجمل:

لم ينكر أهل العربية الحذف بكل أشكاله ما إن أؤتمن اللبس، وله شواهد كثيرة في القرآن وفي كلام العرب ومن شواهده في القرآن ما ذهب إليه عبد القاهر من أنّ كلمة (ٱلْجِنَّ) في الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ ﴾ (الأنعام: من الآية 100)، «منصوبة بمحذوف يدل عليه سؤال مقدر، كأنه قيل بعد كلمة(شُرَكَآءَ): فمن جعلوا شركاء لله تعالى؟قيل: الجنَّ؛ أي جعلوا الجنّ »[4]، نلاحظ هنا أنها حذفت جملة: جعلوا. ويذكر ابن هشام خمسة مواضع يحذف فيها الكلام بجملته[5].

النماذج:

1-﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: من الآية 30) «لا حاجة هنا لتقدير وما تعلمون بعد ما لا تعلمون لأنّه معروف لكل سامع، ولأنّ الغرض لم يتعلق بذكره وإنما تعلق بذكر علمه تعالى بما شذّ عنهم » [6]، حذفت جملة (وما تعلمون) للتركيز على أن الله تعالى بكلّ شيء عليم .

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 600/1.

(2) المصدر نفسه، 740/1.

(3) نفسه، 91/2.

(4) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص181.

(5) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، 814/2.

(6) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 407/1.

2- ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾(البقرة: 73) « وقوله(كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ) الإشارة إلى محذوف للإيجاز أي فضربوه فحيي فأخبر بمن قتله أي كذلك الإحياء يحيي الله الموتى »[1].

3- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾(البقرة:من الآية 111) « كانت أَوْ تعبيرا عن المحذوف بأقلّ عبارة فينبغي أن يعدّ قسما ثالثا من أقسام الإيجاز وهو إيجاز حذف وقصر معا.»[2]، وهذا الإيجاز من ضمن ما يسمّى عند اللغويين المحدثين بالاقتصاد اللغوي.

2-2 الذّكر:

الذكـــر هو الأصل ولا يعدل عنه إلا لغرض تأدية وظيفة تواصلية ويعتمد فيه على دلالة اللفظ الظاهر بخلاف الحذف الذي يعتمد فيه على دلالة العقل. والحالات التي تقتضي ذكر المسند إليه هي: إذا كان لا مقتضـــى لحذفه أو كان ذكره أحوط أو أريد به التنبيه على غباوة السامع أو زيادة الإيضاح والتقرير أو إظهار تعظيمه أو إهانته أو التبرك بذكره أو استلذاذه أو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب[3].ولا يقتصر الذكـــر علـــى المسند إليه، بل تذكر كل الكلمات في مواضع يفترض فيها الحذف، ومنها ما تعرض إليه الشيخ ابن عاشور في تفسيره لسورة البقرة ومنه النموذجان الآتيان.

النموذجان:

1- ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(البقرة: من الآية 59) «وإنما جاء بالظاهر في موضع المضمر في قوله:(فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا)و لم يقل عليهم لئلا يتوهّم أن الرجز عمّ جميع بني إسرائيل»[4].وإنما خص الذين بدلـــوا القـــول"العشرة"، فالذكر هنا كانت له وظيفة تخصيص الذين بدلوا القول من بني إسرائيل بإنزال الرجز عليهم .

---

(1) المصدر السابق، 561/1.

(2) نفسه، 673/1.

(3) انظر: التفتازاني: مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم، ص70، 71.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 516/1.

2- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (البقرة:من الآية 217) « وقوله:(قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) إظهـــار لفظ القتال في مقام الإضمار ليكون الجواب صريحا حتى لا يتوهم أنّ الشهر الحرام هو الكبير وليكون الجواب على طبق السؤال في اللفظ. »[1]، وظيفة الذكر هنا إزالة اللبس والدّقة في الجواب.

3- الفصل والوصل في الكلام ودلالاتهما الوظيفية

يهمنا من الفصل والوصل ما يتعلق بالجمل لا ما يتعلق بالمفردات.

3-1 الفصل:

الفصـــل هو ترك عطف الجمل بعضها على بعض .والفصل هو الاستئناف، ونجده بين الجمل التي حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكّد، كما في قوله تعالى:﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (يوسف: من الآية31)،كما يكون بين الجمل التي حالها مع ما قبلها حال الاسمين المتغايرين في الحكـــم، بحيث لا تقوم بينهما أيّ صلة معنوية [2]، « ومما يتعين فيه الفصل أن يوهم العطف وصلا في الكـــلام غير المقصود على نحو ما تصور ذلك الآية الكريمة :﴿ وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ (البقرة:من الآيتين 14، 15)؛ فإنـــه لم تُوصل جملة لفظ الجلالة بما قـــبلها حـــتى لا تدخل فيه فيظن أن استهزاء الله بهم إنما يكون حين يخلون إلى شياطينهم، بل هو استهزاء متصل...لأنّ العبارة كأنها إجابة عن سؤال مقدر كأن السامعين حين عرفوا كلامهم تساءلوا عن مصيرهم ومـــا يصنع الله بهم » [3]، و هناك قاعدة عامة يضعها عبد القاهر مفادها أنه إذا جاءت الجملة بعقب ما يقتضي سؤالا فصلت عنه، وعلى هذا الأساس قسم علماء البلاغة الفصل (الاستئناف) إلى ثلاثة أضرب، وذلك بحسب السؤال الذي تتضمنه الجملة الأولى:

1) إمـــا أن يكون السؤال عن سبب مطلق للحكم، وذلك إذا كان السامع يجهل السبب من أصله، ومنه قول الشاعر: قال لي كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل[4].

---

(1) المصدر السابق ، 325/2.

(2) انظر: دلائل الإعجاز، ص254.

(3) شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، ص 178، 179.

(4) انظر: الدلائل، ص250.

الاستئناف في جملة: سهر... السؤال هو: ما بالك عليلا؟ فكان الجواب: سهر دائم .

2) وإمـا أن يكـون عـن سبب خاص؛ من ذلك قوله تعالى:﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾(يوسف: من الآية53)؛ كأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل: إن النفس لأمارة بالسوء[1].

3) السـؤال عن غير السبب سواء كان عاما أو خاصا؛ كقوله تعالى:﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ ﴾(الذاريات: من الآية25)؛ وكأنّما قيل ماذا قال إبراهيم؟ فقيل سلام.

وللفصـل البلاغي في البنيات اللغوية وظائف تواصلية إبلاغية تختلف حسب مقامات الكلام وظروف الخطـاب، « ذلك بأن الفصل البلاغي ينمّ دائما عن موقف انفعال قد يكون خوفا أو غضبا أو استعجالا أو استغرابا أو تعجبا، وغير ذلك من هذا النوع من المواقف الجدية»[2].

وسائل الفصل كثيرة ومنها[3]:طرح الواو وهو المشهور، واو الاستئناف، الفاء، ثمّ، أم المنقطعة، بل، ضمير الفصل، الجملة المعترضة، الاستثناء المنقطع. ومن وظائفه التواصلية: الإيجاز، تثبيت المعنى وتوكيده، إيضاح المعـنى وبـيانه، التفصـيل بعد الإجمال، الإجابة عن سؤال مقدر(الاستئناف).والاستئناف يكون لإزالة الغمـوض، وللتعليل، وللتعجب، وللتوكيد، ولبيان السبب. وفيما يلي نعرض نماذج من تفسير الشيخ ابن عاشور توضح بعض هذه الوظائف، وغيرها.

النماذج:

1- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾(البقرة: من الآية16) « وفصـلت الجملة عن التي قبلها لتفيد تقرير معنى (ويمدّهم في...)فمضمونها بمترلة التوكيد، وذلك ممّا يقتضي الفصل، ولتفيد تعليل مضمون جملة (ويمـدّهم...) فـتكون اسـتئنافا بيانـيا لسائل عن العلّة، وهي أيضا فذلكة للجمل السابقة الشارحة لأحـوالهم»[4]. وظيفة الاستئناف في الآية توكيد وتعليل ما ورد في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ ﴾(البقرة: 15)، دون استعمال أي وسيلة أخرى للتوكيد.

(1) انظر: القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص146.

(2) حسان تمام: البيان في روائع القرآن، ص 179، 180.

(3) انظر: منير سلطان: **الفصل والوصل في القرآن الكريم**، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص39، 40.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 297/1.

2- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ (البقرة: من الآية114) « وقوله(لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ)استئناف ثان و لم يعطف على ما قبله ليكون مقصودا بالاستئناف اهتماما بـــه لأن المعطـــوف لكونه تابعا لا يهتم به السامعون كمال الاهتمام»[1]. ترك العطف في هذه الآية بغية لفت انتباه القارئ والسامع لما سيذكر من عقوبة.

3- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (البقرة: 159) «استئناف كلام يعرف منه السامع تفصيل ما تقدم له إجماله »[2]. جيء بالفصل هنا بغية الشروع في توضيح ما تقدم وتفصيل ما أجمل.

4- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ (البقرة:173) « اســـتئناف بياني ذلك أن الإذن بأكل الطيـــبات يثير سؤال من يسأل ما هي الطيبات فجاء هذا الاستئناف مبينا المحرّمات وهي أضداد الطيبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر، وإنما سُلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار؛ فـــإن المحرمات قليلة ولأن في هذا الحصر تعريضا بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرا من الطيبات وأحلـــوا الميتة والدم»[3]، الآية تجيب السائل عن الطيبات التي هي غير ما حُصِر ولكثرتها لم تُعدَّد في الآية السابقة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ (البقرة: من الآية172)

5- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(البقرة:من الآية 185) «...والجملـــة مستأنفة بيانيا، لأنّ قوله (أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ) (البقرة:من الآية184) ، يثير سؤال السامع عن تعيين هذه الأيام، ويؤيد ذلك قراءة مجاهد شهراً

---

(1) المصدر السابق، 682/1.

(2) نفسه، 66/2

(3) نفسه، 115/2.

بالنصب على البدلية من أياما: بدل تفصيل» [1]، أفاد الفصل هنا تحديد هذه الأيام المعدودات التي سيُسأل عنها حتما ، وهي شهر رمضان.

6 - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ (البقرة:من الآية 221) «...والجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لتعليل النهي عن نكاح المشركات وإنكاح المشركين» [2]، ورد النهي في نفس الآية في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ (البقرة:من الآية 221) ، وجاء الاستئناف لذكر سبب النهي وهو الدعوة إلى النار.

7- ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (البقرة:من الآية 257) « وقع قوله (ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ) الآية موقع التعليل لقوله(لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ) (البقرة: من الآية 256)» [3]، جيء بالكلام مفصولا لذكر العلة.

8- ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ (البقرة: 274) «جملة مستأنفة تفيد تعميم أحوال فضائل الإنفاق بعد أن خصص الكلام بالإنفاق للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله...» [4]، وظيفة الاستئناف في الآية هي الإشارة إلى التفصيل والتوضيح والإضافة.

9- ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ (البقرة:276) « استئناف لبيان سوء عاقبة الربا في الدنيا بعد أن بينت عاقبته في الآخرة، فهو استئناف بياني لتوقع سؤال من يسأل

(1) المصدر السابق ، 169/2.

(2) نفسه، 363/2 .

(3) نفسه، 30/3.

(4) نفسه، 77/3.

عن حال هؤلاء الذين لا ينتهون بموعظة الله »[1].

10- ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ (البقرة: من الآية285) « فالجملة استئناف ابتدائي وضعت في هذا الموقع لمناسبة ما تقدم، وهو انتقال مؤذن بانتهاء السورة لأنه لما انتقل من أغراض متناسبة إلى غرض آخر: هو كالحاصل والفذلكة، فقد أشعر بأنه استوفى تلك الأغراض »[2].

2-3 الوصل:

نجد الوصل بين الجمل التي حالها مع التي قبلها حال الاسم يغاير ما قبله في العطف، ولكنه يشاركه في الحكم. ولانعطف جملة على جملة إلا إذا كان بينهما مناسبة، ومن وسائل العطف: واو الاستئناف، الفاء، ثمّ، أم المنقطعة، بل، الجملة المعترضة، الاستثناء المنقطع. ويضيف الجرجاني "إنّ"[3]. وهناك أدوات أخرى أضـــافها الزمخشري(على، لام الجر، إلى، قد، ربما، أداتا الشرط:إنْ وإذا)[4]. ومن مواضع الوصل الحالات الثلاث الآتيـــة:

أ/ إذا كانت الجملتان متفقتين في الخبرية لفظا ومعنى، ومنه قوله تعالى:﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ١٩ ﴾ (الروم:19).

ب/ إذا اتفقت الجملتان في الإنشاء لفظا ومعنى[5] ، ومنه قوله تعالى:﴿ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ ﴾(البقرة: من الآية150) .

ج/ إذا اتفقت الجملتان في المعنى واختلفتا لفظا[6]،ومنها قوله تعالى:﴿ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩ ﴾

---

(1) المصدر السابق، 91/3.

(2) نفسه، 132/3.

(3) منير سلطان: الفصل والوصل في القرآن الكريم، ص66.

(4) المرجع نفسه، ص119 وما بعدها.

(5)، (6) انظر: حواس بري: المقاييس البلاغية في تفسير التحرير و التنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، ص 97.

(البقرة: من الآية 189)[1]. وهذه الحالات الثلاث يجملها البلاغيون فيما يسمى بالتوسط بين الكمالين(الاتصال والانقطاع) الذي يتحقق إذا اتفقت الجملتان في الخبرية أو الإنشائية، و لم يكن هناك ما يقتضي الفصل، وتجمع بين هاتين الجملتين مناسبة ورابطة قوية في المعنى.

ومما هو مهم الحديث عنه في موضوع الفصل والوصل ما يسمى **فاء الفصيحة**؛ قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ ﴾ (البقرة: من الآية 60) . نكتفي في التعريف بهذه الفاء بما ذكره الشيخ ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية، حيث يقول: «والفاء في قوله (فَٱنفَجَرَتْ)قالوا هي فاء الفصيحة ومعنى فاء الفصيحة أنها الفاء العاطفة إذ لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفا على المذكور قبلها فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما يكون ما بعد الفاء معطوفا عليه وهذه طريقة السكاكي فيها وهي المثلى .وقيل أنها التي تدل على محذوف قبلها فإن كان شرطا فالفاء فاء الجواب وإن كان مفردا فالفاء عاطفة ويشملها اسم فاء الفصيحة وهذه طريقة الجمهور على الوجهين فتسميتها بالفصيحة لأنّها أفصحت عن محذوف، والتقدير في مثل هذا فضرب فانفجرت »[2]، ومن وظائف الوصل التبليغية: إبراز المعطوف ووضعه موضع الاهتمام، منح المعطوف نوعا من الاستقلالية[3] ،أمن اللبس، التمييز تشريفا، التناسب، التفسير، تقرير المعنى، الاختصاص، التوكيد، ونشير هنا إلى أنّ أدوات الوصل تساهم في توجيه وظائف البنيات اللغوية ومعانيها، وإلى بعض هذا وغيره يشير الشيخ ابن عاشور في النماذج الآتية.

النماذج:

1- ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ ﴾(البقرة: من الآية 29)«وإفادة التراخي الرتبي هو المعتبر في عطف ثمّ للجمل سواء وافقت الترتيب الوجودي مع ذلك أو كان معطوفها متقدما في الوجود»[4]. هنا يشير المفسر إلى وظيفة أداة الوصل ذاتها "ثم"- التي هي جزء من وظيفة الوصل- في توجيه المعنى العام

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص97.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/518.

(3) انظر: الحمصي: مباحث في علم المعاني، ص263.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/ 383.

للآية وهو التّراخي الرّتبي .

2- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(البقرة: 34) «وعَطف(فَسَجَدُوٓا)بفاء التعقيب يشير إلى مبادرة الملائكة بالامتثال و لم يصدّهم ما في نفوسهم مـــن الـــتخوّف مـــن أن يكون هذا المخلوق مُظهر فساد وسفك دماء لأنّهم متزّهون عن المعاصي»[1]، والوصل هنا يبدي كذلك نوعا من الاهتمام (استجابة الملائكة لأمر ربهم فور تلقيه).

3- ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ (البقرة: من الآية127) «وللإشارة إلى التفاوت بين عمـــل إبـــراهيم وعمـــل إسماعـــيل أوقـــع العطف على الفاعل بعد ذكر المفعول والمتعلقات، وهذا من خصوصـــيات العربية في أسلوب العطف فيما ظهر لي ولا يحضرني الآن مثله في كلام العرب، وذلك أنك إذا أردت أن تـــدل علـــى التفاوت بين الفاعلين في صدور الفعل تجعل عطف أحدهما بعد انتهاء ما يتعلق بالفاعل الأول، وإذا أردت أن تجعل المعطوف والمعطوف عليه سواء في صدور الفعل تجعل المعطوف مواليا للمعطـــوف عليه»[2]. الوصل بالطريقة التي ذكرها المفسر؛ أي بترتيب المفردات الموصولة بشكل خاص لـــــه علاقة بأشكال الرتب ودلالاتها الوظيفية، فعمل إبراهيم أعظم من عمل إسماعيل –عليهما السلام– وكلاهما عظيم، ورفع القواعد في حد ذاته عمل متميز ويستحق الاهتمام، وهذا ما نلمسه من وصل الآية بما سبقها.

4-﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (البقرة:171) «وإنمـــا عطفـــه بالـــواو هنا و لم يفصله كما فصل قوله (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا)(البقرة:17) لأنه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلة لهم في تلقي دعوة الإسلام ولو لم يعطفه لما صحّ ذلك .»[3]، ورد الوصل هنا لتأدية وظيفة الاستقلالية والتميز.

---

(1) المصدر السابق، 423/1.

(2) نفسه، 718/1.

(3) نفسه، 111/2.

5- ﴿ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴾(البقرة:من الآية187) «واعلم أن ثم في عطف الجمل للتراخي الرتبي وهو اهتمام بتعيين وقت الإفطار» [1].الوصل للاهتمام بوقت الإفطار الذي هو من شروط صحة ركن الصوم.

6- ﴿ فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ (البقرة:من الآية222) «... فكان مقتضى الظاهر أن تكون جملة ولا تقربوهن مفصولة بدون عطف، لأنها مؤكدة لمضمون جملة فاعتزلوا النساء في المحيض ومبينة للاعتزال وكلا الأمرين يقتضي الفصل، ولكن خولف مقتضى الظاهر اهتماما بهذا الحكم ليكون النهي عن القربان مقصودا بالذات معطوفا على التشريعات » [2].

7- ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾(البقرة:241) « عطف على جملة (وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ)(البقرة:234) جعل استيفاء لأحكام المتعة للمطلقات، بعد أن تقدم حكم متعة المطلقات قبل المسيس وقبل الفرض، فعمم بهذه الآية طلب المتعة للمطلقات كلهن. فاللام في قوله (وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ) لام الاستحقاق.والتعريف في المطلقات يفيد الاستغراق. »[3]، وصلت هذه الآية بما قبلها للاهتمام بالأحكام التي تنص عليها ولتفصّلها.

8- ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾(البقرة:من الآية 268) «عطف على جملة (ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ) لإظهار الفرق بين ما تدعو إليه وساوس الشيطان وما تدعو إليه أوامر الله تعالى » [4]، استعمل الوصل في الآية كوسيلة للتمييز بين الوعدين.

9- ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ ﴾(البقرة:من الآية282) «عطف على (فَاكْتُبُوهُ)،وهو غيره وليس بيانا له إذ لو كان بيانا لما اقترن بالواو» [5] يؤدي الوصل هنا وظيفة الاستقلالية والتميز.

(1) المصدر السابق، 184/2.

(2) نفسه، 366/2.

(3) نفسه، 474/2.

(4) نفسه، 60/3.

(5) نفسه، 105/3.

10- ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾ (البقرة: من الآية 284) « وعطف قوله (وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ)بالــواو دون الفاء للدلالة على أنّ الحكم الذي تضمنه مقصود بالذات، وأنّ ما قبله كالتمهيد له» [(1)]. جاء الوصل في هذه الآية ليؤدي وظيفة الاهتمام بالحكم الذي تقرّه وليبرزه.

4- التعريف و التنكير ودلالاتهما الوظيفية

4-1التعريف :

المعرفة هوكل اسم خصّ الواحد من جنسه.

أ- التعريف بـــ(ال)

يدل التعريف بـــ(ال) على العهد أو الجنس نحو: "جاء الرجل" أي الرجل المعهود الذي أخبرتك عنه، و"جـــاء الـــرجل"أي الكامل في الرجولة. وتقول"أحب الكتاب" فقد تشير بذلك إلى كتاب معين أو إلى جنس الكتاب[(2)]، و"ال" التي هي للجنس قسمان منها ما يراد به الماهية ومنها ما يراد به الاستغراق لجميع الأفــراد، يقــول الشــيخ ابــن عاشــور عـــند تفسيره للآية الكريمة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (البقرة: من الآية25) :« إنّ "أل المعرّفة" تأتي للعهد وتأتي للجنس مرادا به الماهية وللجنس مرادا به جميع أفراده التي لا قرار له في غيرها فإذا أرادوا منها الاستغراق نظروا فإن وجدوا قرينة الاستغراق ظاهرة من لفظ أو سياق نحو:﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (العصر: 2، 3)...اقتنعوا بصيغة المفرد لأنّه الأصل الأخف وإن رأوا قرينة الاستغراق خفية أو مفقودة عدلوا إلى صيغة الجمع لدلالة الصيغة على عـــدة أفراد لا على فرد واحد ولما كان تعريف العهد لا يتوجه إلى عدد من الأفراد غالبا تعين أن تعريفها للاستغراق»[(3)]؛ والألف واللام في الصالحات للجنس المفرد لا للعموم[(*)] ، والاستغراق نوعـــان: حقيقي

(1) المصدر السابق ، 130/3.

(2) انظر: فاضل صالح السمرائي: **الجملة العربية والمعنى**، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص86.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 353/1.

(*) لأنــه لا يمكن عمل جميع الصالحات. يقول أبو حيان الأندلسي: «والفرق بين لام الجنس إذا دخلت على المفرد وبينها إذا دخلت على الجمع أنها في المفــرد يحــتمل أن يــراد بهــا واحد من الجنس وفي الجمع لا يحتمله» **تفسير البحر المحيط**، وبهامشه النهر الماد لأبي حيان، وكتاب الدر اللقيط لتلميذه تاج الدين بن مكتوم القيسي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط2 ، 1992، 111/1.

وعـــرفي وفي هـــذا الصدد يوضح ابن عاشور-وهو يتحدث عن"ال التعريف"في كلمة(ٱللَّٰعِنُونَ) في قولـــه تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾(البقرة:من الآية159):«والتعريف في(ٱللَّٰعِنُونَ) للاســـتغراق وهو استغراق عرفي أي يلعنهم كل لاعن... واعلم أنّ لام الاستغراق العرفي واسطة بين لام الحقـــيقة ولام الاستغراق الحقيقي. وإنما عدل إلى التعريف مع أنه كالنكرة مبالغة في تحققه حتى كأنه صار معـــروفا لأن المنكر مجهول ، أو يكون التعريف للعهد أي يلعنهم الذين لعنوهم من الأنبياء الذين أوصوا بإعلان العهد وأن لا يكتموه . »[1].

والألف واللام في الخبر تكون على رأي الجرجاني على معنى الجنس، ولها في ذلك وجوه[2]:

1/ قصر جنس المعنى على المخبر عنه لقصد المبالغة، نحو: زيد هو الجواد، وعمرو هو الشجاع.أي الكامل.

2/ أن تَقْصُر جنس المعنى الذي تفيده بالخبر عن المخبر عنه لا لقصد المبالغة، بل لاعتباره لا يوجد إلا منه، ولا يكون ذلك إلا إذا قيدت المعنى بشيء يخصصه، وذلك كنحو أن يقيد بالحال، والوقت، كقولك: هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرا.

3/ ألا يقصد قصر المعنى في جنسه على المذكور، وهو الذي عليه قول الخنساء:

إذا قبحَ البكاءُ على قتيل   رأيتُ بكاءك الحسنَ الجميلا

أرادت أن تقره في جنس ما حُسنُه الحُسْن الظاهر الذي لا ينكره أحد.

ويضـــيف الجرجاني غرضا آخر للخبر المعرف بالألف واللام وهو بيان أن المسند إليه تنطبق عليه الصفة الموجودة في المسند،كقولك: هو البطل المحامي...تريد أن تقول لصاحبك: هل سمعت بالبطل المحامي؟[3].

ونشـــير هنا إلى أنّ تعريف المبتدأ وتنكيره عند "المتوكل"لا يعتمد المعيار التركيبي المعروف("دخول الألف والـــلام"، "الإضافة"...)، بل يعتمد معيارا تداوليا وهو "إحالية" المبتدأ؛ يقول:« نعتبر أن عبارة ما عبارةٌ "إحالـــية" إذا كـــان المخاطب قادرا على التعرف على ما تحيل عليه العبارة أي إذا كانت المعلومات التي تحملها العبارة كفيلة بجعل المخاطب يهتدي إلى المحال عليه المقصود»[4]، وهذا هو معنى التعريف عموما

(1) المصدر السابق، 68/2، 69.

(2) انظر: الدلائل، ص204، 206.

(3) انظر: المرجع نفسه، ص207.

(4) المتوكل:**المبتدأ في اللغة العربية نحو وصف وظيفي-تداولي**، مجلة:في اللسانيات واللسانيات العربية،جمعية الفلسفة بالمغرب،1988،ص 100.

مهما كانت وسيلته. ونحاول أن نختصر الوظائف التداولية للبنيات اللغوية التي يعرف فيها المبتدأ أو الخبر أو الفاعل، فمن وظائف تعريف المبتدأ: الإشارة إلى معهود بين المتكلم والمخاطب، الدلالة على جنس المسند إليه، الدلالة على فرد مبهم (غير معين) من أفراد الجنس، الدلالة على الشمل والاستغراق، توخّي أقصر طريق لإحضار المسند إليه في ذهن السامع، تعظيم المضاف إليه، أو تحقيره، إذا تعذر التفصيل أو امتُنِع.

ومن وظائف تعريف الخبر: إفادة السامع بأمر معهود من المسند إليه، إفادة كمال الصفة في الخبر، قصر الخبر على المبتدأ وتخصيصه به حقيقة أو ادعاء، قصر المبتدأ على الخبر، إظهار الخبر في صورة المعهود من المسند إليه، إفادة استحقاق المبتدأ للخبر.

ومن وظائف تعريف الفاعل: أ-بالعلمية: إحضاره بعينه في ذهن السامع باسم مختصّ به، تعظيمه، إهانته واحتقاره، التلذّذ بذكره، التبرّك به.

ب- بالإشارة: تمييزه أكمل تمييز، بيان حاله في القرب أو التوسط أو البعد، تعظيمه أو تحقيره أو غير ذلك مما تدل عليه قرائن الكلام.ومن أراد التفصيل أو التمثيل لهذه الوظائف يرجع إلى كتب البلاغة وعلم المعاني. وفي النماذج التي بين أيدينا من تفسير التّحرير والتنوير ما يوضح الكثير من هذا ويزيد عليه.

النماذج:

1- ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: 53) « والمراد من "ٱلْكِتَـٰبَ" التوراة التي أوتيها موسى فالتعريف للعهد »[1]، فالتعريف بال أغنانا عن ذكر التوراة لما عهدناه مما أوتيه موسى عليه السلام.

2- ﴿ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ (البقرة: من الآية 91)، « واللاّم في الحق للجنس والمقصود اشتهار المسند إليه...فليست اللام هنا مفيدة للحصر لأنّ تعريف المسند باللام لا تطرد إفادته الحصر على ما في دلائل الإعجاز.وقيل يفيد الحصر باعتبار القيد أعني قوله مصدقا أي هو المنحصر في كونه حقا مع كونه مصدقا... »[2]، ال في كلمة"ٱلْحَقُّ" دلّت على أنّ الحقّ المقصود هنا معروف ومعهود ولا داعيَ لذكر محددات له أو موضّحات.

3- ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة: من الآية120) «والتعريف في ٱلْهُدَىٰ تعريف الجنس الدال

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 501/1.

(2) المصدر نفسه، 608/1.

علـــى الاستغراق ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل وتعريف الجزأين وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصر وتأكيده للعناية به ... »[1]، دل التعريف بـــ ال على أن هدى الله هو كل الهدى وأفاد مع ضمير الفصل القصر أي لا هدى غيره.

4- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ ﴾ (البقرة: 159) «والتعـــريف في الناس للاستغراق لأنّ الله أنزل الشرائع لهدي الناس كلهم وهو استغراق عرفي أي الناس المشرّع لهم »[2]، التعريف لاستغراق الأفراد الذين بلغوا بالبينات والهدى.

5- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ ﴾ (البقرة: 183) « فالتعـــريف في ٱلصِّيَام في الآية تعريف العهد الذهني، أي كتب عليكم جنس الصيام المعروف.وقد كان العرب يعرفون الصوم»[3]، ال أدت وظيفة الإحالة على نفس الصوم الذي كان معروفا قبل الإسلام.

6- ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣ ﴾ (البقرة:193) « فالتعريف في ٱلدِّين تعريف الجنس، لأنّ الدين من أ سماء المواهي التي لا أفراد لها في الخارج فـــلا يحتمل تعرفه معنى الاستغراق.واللام الداخلة على اسم الجلالة لام الاختصاص أي حتى يكون جنس الـــدين مختصا بالله تعالى.»[4]؛ فاللام الأولى لام التعريف في"ٱلدِّين" لجنس الدين المحدد والواحد، واللام الثانية في "لِلَّهِ" جيء بها لتؤدي وظيفة التخصيص؛ أي تخصيص هذا الدين بالله سبحانه وتعالى.

7- ﴿ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠ ﴾ (البقرة:من الآية 210) « والتعريف في (ٱلۡأَمۡر) إما للجنس مرادا منه الاستغراق أي قضيت الأمور كلها، وإما للعهد أي أمر هؤلاء أي عقابهم أو الأمر المعهود للناس

---

(1) المصدر السابق، 694/1 .

(2) نفسه، 67/2.

(3) نفسه، 155/2.

(4) نفسه، 208/2.

كلهم وهو الجزاء .» [1].

8- ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ . . . ﴾ (البقرة: من الآية 285) «وأل في ٱلرَّسُول للعهد، وهو علم بالغلبة على محمد ﷺ » [2]، دلت ال على العهدية فالرسول معهود ومعروف عند المخاطبين.

ب- التعريف بـ(الموصول)

التعريف بالموصول للفاعل يكون في البنيات اللغوية لتؤدي الوظائف الآتية: الاستعاضة عن عدم علم المخاطب أو المتكلم بغير الصلة من الأحوال المختصة بالفاعل، نحو:رجع الذي سافر أمس، استهجان التصريح باسمه"الفاعل"، زيادة التقرير، التفخيم والتهويل، ومما ذكره المفسر من وظائف يوضحه النموذجان:

1- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (البقرة:6) .

« فالإتيان بذكرهم [ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ]بالتعريف بالموصول إما أن يكون لتعريف العهد مرادا منه قوم معهودون كأبي جميل، والوليد بن المغيرة ...وإمّا أنّ الموصول لتعريف الجنس المفيد للاستغراق على أن المراد بالكفر أبلغ أنواعه بقرينة قوله (لَا يُؤۡمِنُونَ) فيكون عاما مخصوصا بالحس لمشاهدة من آمن منهم أو يكون مرادا به الخصوص بالقرينة »[3].

2- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ (البقرة: من الآية16) «والموصول في قوله (ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ) بمعنى المعرّف بلام الجنس فيفيد التركيب قصر المسند على المسند إليه وهو قصر ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلاّلة والحرص عليها» [4]. فالتعريف بالموصول هنا شبيه بالتعريف بلام الجنس. وهو يؤدي وظيفة زيادة الإقرار بما فعلوا .

قبل أن نتطرق للتنكير نشير إلى أن المعارف عند ابن يعيش خمس، وعند ابن هشام ست[5].

(1) المصدر السابق، 287/2.

(2) نفسه، 132/3.

(3) نفسه، 248/1.

(4) نفسه، 299/1.

(5) انظر: شرح المفصل، 424/1. وانظر: **شرح شذور الذهب**، تحقيق محمد محمد تامر، وآخران، الزهراء، 2004، ص130- 150.

2-4 التنكير:

النكرة هو كل اسم شائع في جنسه ولا يُخصّ به واحد دون آخر، نحو:رجل وفرس. ويدل التنكير على الواحد أو الجنس، ويوضح هذا قول سيبويه: « يقول الرجل"أتاني رجل"يريد واحدا في العدد لا اثنين فتقول:"ما أتاك رجل"أي أتاك أكثر من ذلك. ثم يقول"أتاني رجل لا امرأة"فتقول:"ما أتاك رجل" أي امرأة أتتك. ويقول: "أتاني اليوم رجل"أي في قوته ونفاذه فتقول "ما أتاك رجل"أي أتاك الضعفاء. فإذا قال: "ما أتاك أحد"صار نفيا عاما لهذا كله»[1]. ونجد الجرجاني يبدي بعض أسرار التنكير في حديثه عن تنكير لفظة(حَيَوٰة) في الآية: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾ (البقرة: من الآية96) فإنه نكّر لفظة حياة لأن المعنى على الازدياد من الحياة لا على الحياة من أصلها، فالحرص يكون على ما يستقبل لا على الماضي، فهم يحرصون مهما عاشوا على أن يزدادوا إلى حياتهم حياة أي جزءا من حياة وليست الحياة المعروفة. ومثل هذا في الآية الكريمة :﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ (البقرة: من الآية179) لأن القصاص لا ينشأ عنه الحياة من أصلها وإنما ينشأ عنه ما يستأنف منها، والحياة التي يردُّها القصاص إنما هي لمن يردعه خوف القصاص، أي يعلم أنه إذا قَتل قُتل، بمعنى أنها ليست شاملة لكل الناس ولهذا اختير التنكير[2]، ومن الوظائف التواصلية التداولية التي يؤديها تنكير المبتدأ: إفادة الإفراد، إفادة النوعية، التعظيم، التحقير، التكثير، التقليل، إفادة التعميم، تفخيم معنى الدعاء.

ومن وظائف تنكير الخبر: التفخيم والتعظيم، إرادة كمال الصفة فيه، التحقير، عدم الحاجة إلى غرض من أغراض التعريف.

ومن وظائف تنكير الفاعل: الدلالة على الإفراد، إفادة النوعية، التعظيم، التحقير، التكثير، التقليل. ويذكر لنا الشيخ ابن عاشور في تفسيره الكثير من هذه الوظائف، ننقل بعضها في النماذج الآتية.

النماذج:

1- ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ ﴾ (البقرة: من الآية7) «...ووصف العذاب بالعظيم دليل على أن تنكير عذاب للنّوعية وذلك اهتمام بالتنصيص على عظمه...» [3]، وظيفة إفادة التعظيم للعذاب فرضت أن تكون البنية

(1) الكتاب، 27/1.

(2) انظر: الدلائل، ص290، 291.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/ 258.

اللغوية للفظة عَذَاب نكرة.

2- ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾(البقرة: 23) « التنكير للإفراد أو النّوعية أي بسورة واحدة من نوع السّور، وذلك صادق بأقل سورة ترجمت باسم يخصّها» [1]، أفاد التنكير في كلمة "سورة" الإفراد والتقليل والنوعية.

3-﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾(البقرة: من الآية25) « وتنكير جنات وتعريف الأنهار جيء به هكذا للتفنّن ولعدم إعادة التنكير مرّة ثانية»[2]، اختلفت اللفظتان من حيث التعريف والتنكير لدفع السّأم الذي قد ينجم عن إعادة التنكير وهو غرض تواصلي.

4- ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا ﴾(البقرة: من الآية48) « وتنكير النّفس في الموضعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس »[3].فالتنكير في "نَفْس"صيغ في البنية اللغوية لتؤدي وظيفة التعميم .

5- ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾(البقرة: من الآية89)« وقد عدل عن أن يقال فلمّا جاءهم الكتاب ليكون اللفظ أشمل فيشمل الكتاب والرسول الذي جاء به فإنه لا يجيء كتاب إلا مع رسول » [4].

6- ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ ﴾(البقرة: من الآية246) « وتنكير نبيء لهم للإشارة إلى أنّ محل العبرة ليس هو شخص النبيء فلا حاجة إلى تعيينه، وإنما المقصود حال القوم وهذا دأب القرآن في قصصه، وهذا النبيء هو صمويل وهو بالعربية شمويل بالشين المعجمة ولذلك لم يقل:إذ قالوا لنبيهم، إذ لم يكن هذا النبيء معهودا عند السامعين حتى يعرف لهم بالإضافة.» [5]، ورد التنكير هنا لعدم الحاجة إلى غرض من أغراض التعريف، وليحيل على الحديث عن حال القوم وما

(1) المصدر السابق، 337/1.

(2) نفسه، 355/1.

(3) نفسه، 485/1.

(4) نفسه، 602/1.

(5) نفسه، 485/2 .

قالوه لا على النبي ذاته.

7- ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ ﴾ (البقرة:263) «وتنكير (قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ) للتقليل، أي أقل قول معروف خير من صدقة يتبعها أذى.» [1]، التنكير هنا كاف لتؤدي لفظة قَوْل وظيفة تواصلية هي التقليل.

8- ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ (البقرة:من الآية 279) «وتنكير حرب لقصد تعظيم أمرها» [2]، وظيفة التنكير هي التعظيم.

5- القصر ودلالاته الوظيفية

القصر أو (الحصر) يتضمن معنى التوكيد و التخصيص. يقول الدكتور مهدي المخزومي:« القصر: طريقة من طرائق التوكيد، يهدف به المتكلم إلى تثبيت غرضه في ذهن السّامع، وإزالة ما في نفسه من شكّ فيه، والتوكيد بالقصر أقوى طرائق التوكيد، وأدلها على تثبيت ما يراد تثبيته أو تقريره.» [3]، وينقسم باعتبار طرفيه إلى: قصر صفة على موصوف، و قصر موصوف على صفة.وباعتبار الحقيقة والواقع إلى: قصر حقيقي، وقصر إضافي. وباعتبار حال المخاطب إلى: قصر قلب، وقصر إفراد، وقصر تعيين. وجملة القصر تكون اسمية للدّوام.

وسائله ووظائفه التواصلية: للقصر أساليب ووسائل عديدة، تؤدّي وظائف تواصلية مختلفة حسب مقامات الخطاب وحال المخاطبين نقتصر هنا على ذكر بعض منها:

1- النفي والاستثناء: ويكون هذا التركيب اللغوي لتأدية وظائف تواصلية تداولية منها: دفع الإنكار والشك، تحديد المعنى وتعيينه ابتداء من غير أن يكون ثمة منكر ينكر أو شاك يشك، تمكين المعنى وتقريره في النفس.

2-القصر بـ(إنّما): ومن الوظائف التي يؤديها -بالإضافة إلى وظيفة التخصيص-: التنبيه على خطأ أو غفلة بتذكير المخاطب بأمر ثابت معلوم، الادّعاء والمبالغة، التعريض.

3-القصر بالعطف بـ(لا)أو (بل):ومن الوظائف التي يؤديها: تصحيح خطأ المخاطب وقلب اعتقاده

---

(1) المصدر السابق، 47/3.

(2) نفسه، 94/3.

(3) مهدي المخزومي: **في النحو العربي، قواعد وتطبيق** ، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان،ط2، 1986/1406، ص210.

(تكون لقصر القلب دائما.)

4-القصـــر بضمير الفصل و بـــ لام الجنس في المسند : ومن وظائفه: إبطال ادّعاء وإثبات عكسه، إبراز حقيقة وتقريرها.

5-القصر بتقديم ما حقّه التأخير: ويكون لزيادة التمكين والتقرير.

النماذج:

1- ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ (البقرة:11) «وأفاد إنّما هنا قصر الموصوف على الصفة ردّ ا على قـــول من قال لهم لا تفسدوا... فردوا عليهم بقصر القلب وليس هو قصرا حقيقيا لأن قصر الموصوف علـــى الصـــفة لا يكون حقيقيا ولأنّ حرف إنّما يختص بقصر القلب كما في دلائل الإعجاز واختير في كلامهـــم حـــرف إنّمـــا لأنّه يخاطب به مخاطب مصرّ على الخطأ كما في دلائل الإعجاز » [1].الوظيفة التواصلية للقصر هنا هي تصحيح خطأ المخاطبين وقلب اعتقادهم.

2- ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢﴾ (البقرة:12) « ر دّ عليهم في غرورهم وحصرهم أنفســـهم في الصّـــلاح فرد عليهم بطريق من طرق القصر هو أبلغ فيه من الطريق الذي قالوه لأنّ تعريف المســـند يفـــيد قصر المسند على المسند إليه فيفيد قوله (أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ) قصر الإفساد عليهم ...وقـــد أكّد قصر الفساد عليهم بضمير الفصل... »[2]، القصر هنا لإبطال ادعائهم الصلاح وإثبات أنهم مفسدون.

3- ﴿ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾ (البقرة: من الآية28) «وتقديم المتعلق على عامله مفيد القصر وهو قصر حقيقي سيق للمخاطبين»[3]، القصر لزيادة تأكيد وتقرير حقيقة الرجوع إلى الله تعالى.

4- ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ (البقرة: من الآية29) «وجملـــة(هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم) قصر حقيقي سيق للمخاطبين من المشركين الذين لاشكّ عندهم في أنّ الله خالق ما في الأرض...» [4].

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 285/1.

(2) المصدر نفسه، 1/ 285، 286.

(3) نفسه، 377/1.

(4) نفسه، 379/1.

أفادت بنية القصر هذه إبراز حقيقة أن الله هو الخالق وحده.

5- ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ (البقرة: من الآية102) «والذي يظهر في تفسير هذه الجملة أن قولهما(إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ)قصر ادعائي للمبالغة» [1]، القصر في هذه الآية للادعاء والمبالغة.

6- ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ (البقرة: من الآية102) «وقد أفادت الآية بجمعها بين إثبات الضر ونفي النفع الذي هو ضده مفاد الحصر، كأنه قيل ويتعلمون ما ليس إلا ضرا » [2]. ورد الجمع بين الإثبات والنفي في التركيب ليؤدّي وظيفة الحصر.

7- ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة: من الآية120) «ففيه طريقان من طرق الحصر هما ضمير الفصل وتعريف الجزأين وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق القصر وتأكيده للعناية به فأيهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر وللخبر أيضا...فقد اجتمع في هذه الجملة عدة مؤكدات هي حرف إنّ والقصر، إذ القصر تأكيد على تأكيد كما في المفتاح فهو في قوة مؤكّدين ،مع تأكيد القصر بضمير الفصل وهي تنحل إلى أربعة مؤكدات لأن القصر بمنزلة تأكيدين» [3].

6- وسائل التوكيد ودلالاتها الوظيفية :

توكيد الكلام هو تثبيته، وللتوكيد أساليب عديدة منها:

1- التوكيد بإنّ: الأصل في (إنّ) إفادة توكيد نسبة المسند إلى المسند إليه.

2- التوكيد بالقَسم: يؤدَّى القسم بأحرف وأسماء وأفعال.

3- التوكيد بـ(أمّا): وقد يبلغ التوكيد بأمّا درجة القصر.

4- التوكيد بـ(قد): تختصّ (قد) بالدخول على الفعل المثبت، ووظيفتها العامة هي توكيده ماضيا أو مضارعا.

5- التوكيد بالسين أو سوف: تدخل السين و سوف على الفعل المضارع.

6- التوكيد باللام: تؤكّد مضمون الجملة إذا كانت لام الابتداء .

---

(1) المصدر السابق، 643/1.

(2) نفسه، 645/1.

(3) نفسه، 694/1.

7- التوكيد بالنّون: تلحق هذه النون فعل الأمر والفعل المضارع الدال على الاستقبال.

8- تكرار الخطاب بلفظه أو بمعناه.

9- اختيار ألفاظ أو صيغ أو أدوات دون أخرى.

وهناك وسائل أخرى للتوكيد نجد بعضها في الآيات المرفقة مع النماذج التفسيرية الآتية [*].

الوظائف التواصلية لتوكيد الجملة :

- الردّ على المنكر.
- إزالة الشّك والتردّد عن نفس المخاطب.
- إفادة الارتباط والائتلاف(تدخل "إنّ"على كلام يعلّل ما قبله ويبين سببه أو يقويه).
- تثبيت المستفهم على جواب لا شك فيه.
- تعليل كلام سابق وتقويته والاحتجاج له.(يكثر هذا الغرض مع التوكيد بـــ(إنّ)).
- إفادة التهكم.(يكثر ذلك مع التوكيد بإنّ).
- توجـــيه الانتـــباه إلى اللّفظ الذي يليها؛ أي تجعله في موضع العناية والاهتمام وتختص بهذه الوظيفة "أمّا"). نحو قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ ﴾(الضحى:9).
- تأكيد الوعد أو الوعيد.(يختص بهذه الوظيفة السّين وسوف من بين صور التوكيد).
- تقريب الماضي من الحال.(يختص بهذه الوظيفة (قد) من بين صور التوكيد).
- تقوية العناية بالفعل.(تختص نون التوكيد بهذه الوظيفة).

النماذج:

1- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ ﴾(البقرة:6) «وتصـــدير الجملـــة بحرف التأكيد إمّا لمجرّد الاهتمام بالخبر، وغرابته دون رد الإنكار أو الشك لأنّ الخطاب للنبي ﷺ وللأمة ...وقد تكون إنّ لرد الشك تخريجا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر...وقد نقل عن المبرد أن إنّ لا تأتي لرد الإنكار بل لرد الشّك»[1]، فالوظيفة التواصلية التي يؤديها حرف التوكيد هي الاهتمام بالخبر.

(*) انظر: النموذج 7، ص 104.

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 247/1 ، 248.

2- ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (البقرة: من الآية17) «هذه الجملة تتضمن تقريرا لمضمون (ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ) (البقرة: من الآية17)...والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التي صاروا إليها فإنّ للدلالة الصّريحة من الارتسام في ذهن السّامع ما ليس للدلالة الضمنية... وقد يذهل السّامع عما صاروا إليه عند هاتة الحالة فيكون قوله بعد ذلك(وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ) تذكيرا بذلك وتنبيها إليه »[1]، وظيفة تكرار المعنى هنا زيادة الإيضاح، والتذكير، والتنبيه إلى ما سبق.

3- ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ (البقرة: من الآية24) « ولذلك حسن موقع لن الدالة على نفي المستقبل فالنفي بها آكد من النفي بلا، ولهذا قال سيبويه لا لنفي يفعل، ولن لنفي سيفعل ...»[2]، استُعملت الأداة "لن" هنا بدل "لا" لتؤدي وظيفة زيادة توكيد النفي.

4- ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (البقرة: من الآية25) « وقوله (من تحتها) يظهر أنه قيد كاشف قصد منه زيادة إحضار حالة جري الأنهار ...فهذا الوصف جيء به لتصوير الحالة لقصد الترغيب»[3].زيادة إحضار الحالة قصد منها وظيفة تواصلية هي توكيد الأمر والترغيب فيه.

5- ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (البقرة: من الآية 74) « والتوكيد بإنَّ للاهتمام بالخبر وهذا الاهتمام يؤذن بالتعليل...»[4]، وظيفة التوكيد بإنّ هنا تعليل كلام سابق وتقويته والاحتجاج له.

6- ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (البقرة: من الآية80) «وذكر الاتخاذ دون أعاهدتم أو عاهدكم لما في

(1) المصدر السابق، 310/1.

(2) المصدر نفسه، 342/1.

(3) نفسه، 1/ 355.

(4) نفسه، 565/1.

الاتخاذ من توكيد العهد و(عند)لزيادة التأكيد يقولون اتخذ يدا عند فلان» [1].

استعمل لفظا "الاتخاذ" و"عند" للعهد لزيادة توكيده.

7- ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾(البقرة: من الآية120) «وقد اشتملت جملة(وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم) إلى آخرها على تحذير من الطمع في استدناء اليهود أو النصارى بشيء من استرضائهم طمعا في إسلامهم بتألف قلوبهم فأكد ذلك التحذير بعشرة مؤكدات وهي القسم المدلول عليه باللام الموطئة للقسم .وتأكيد جملة الجزاء بإنّ.وبلام الابتداء في خبرها.واسمية جملة الجزاء وهي (مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ) . وتأكيد النفي بمن في قوله مِن وَلِىٍّ.والإجمال ثم التفصيل بذكر اسم الموصول وتبيينه بقوله مِنَ ٱلْعِلْمِ. وجعل الذي جاء (أي أنزل إليه) هو العلم كله لعدم الاعتداد بغيره لنقصانه.وتأكيد من ولي بعطف ولا نصير الذي هو آيل إلى معناه وإن اختلف مفهومه، فهو كالتأكيد بالمرادف.» [2].

7- اختيار الصيغ"بناء وزمنا"ودلالاته الوظيفية

تُفضَّل صيغة دون أخرى سواء من حيث البناء الصرفي أو الزّمن لتأدية وظائف لغوية خاصة في ظروف ومقامات معيّنة، وممّا يبرز ذلك:

7-1 اختيار صيغة بعينها:

أ- إفادة الثبوت والتجدد بين الاسم والفعل:

قد يصلح الفعل في مواقع ومواقف لتأدية وظيفة لا يؤديها الاسم والعكس [3]، فمما يدل عليه الاسم في عمومه الثبوت بخلاف الفعل فهو يدل على التجدد، وعن هذا يقول الجرجاني -وهو يعدد الفروق في الخبر- :«...فالذي يليه من فروق الخبر هو الفرق في الإثبات إذا كان بالاسم وبينه إذا كان بالفعل، وهو فرق لطيف تمس الحاجة في علم البلاغة إليه، وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء . وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شيء، فإذا قلت: (زيد منطلق)، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا

---

(1) المصدر السابق، 580/1.

(2) نفسه، 695/1.

(3) انظر: عبد الفتاح لاشين: التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، ص98.

فشيئاً..وأما الفعل فإنه يقصد فيه إلى ذلك فإذا قلت (زيد هاهو ذا ينطلق) فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءاً فجزءاً وجعلته يزاوله ويزجيه »[1].

ب- الصلة بين المظهر الصوتي والمحتوى الدلالي :

أقــر علمـــاء اللغة بأن هناك علاقة وطيدة بين بناء الكلمة ومعناها، فهذا ابن جني يعقد بابا في كتابه الخصائص بعنوان: قوة اللفظ لقوة المعنى، وذكر فيه أن زيادة اللفظ قد تكون وسيلة إلى زيادة المعنى ومثل لــه بقــولهم: خشن واخشوشن، فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو، وكــذلك أعشب واعشوشب وحلى واحلولى وخلق واخلولق، ونحوها؛ فالصيغة الثانية تدل على التكثير؛ أي شدة الخشونة، وكثرة العشب...ومثله باب فَعَل وافتعل، نحو: قدر واقتدر، قال سبحانه:﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (القمر: من الآية42) قـــال: فمقتدر هنا أوفق من قادر من حيث كان الموضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ وشبهه بقوله تعالى:﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾(البقرة: من الآية286)وعلله بأن كسب الحسنة بالمقارنة مع اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر[2]، فكل زيادة في بناء اللفظ تنجم عنها زيادة في معناه.

ج- العدول عن معتاد الصيغ :

العدول هو الخروج عن الأصل ويتمثل في ترك الصيغة الشائعة واستعمال صيغة أخرى أقل تواترا لغرض وظيفي قد يكون توخيا للدقة، أو تجنبا للثقل أو السأم أو لدعم المعنى أو تكثيره وفي هذا يقول ابن جني: « ونحـــو من تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله وذلك فُعال في معنى فعيل نحو: طُوال فهو أبلغ معنى من طويل...ففُعال –لعمري- وإن كانت أخت فعِيل في باب الصفة فإن فعيلا أخص بالباب من فعـــال، ألا تـــراه أشد انقيادا منه؛ تقول: جميل، ولا تقول: جُمال...فلما كانت فعِيل هي الباب المطرد وأريـــدت المـــبالغة عدلت إلى فُعال فضارعت فعال بذلك فُعَّالا. والمعنى الجامع بينهما خروج كل واحد منهما عن أصله، أما فعَّال فبالزيادة، وأما فُعَال فبالانحراف به عن فعِيل»[3].

النماذج:

1- ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ ﴾ (البقرة: من الآية3) الإقامة تدل على المواظبة والتكرر«الإقامة مصدر أقام الذي هو

---

(1) الدلائل، ص200.

(2) انظر: الخصائص، 265/3.

(3) المرجع نفسه، 268/3.

معـــدى قـــام ، عـــدي إليه بالهمزة الدالة على الجعل »[1]، اختيار فعل أقام بدل قام هنا لإفادة المواظبة والتكرر، وهو المطلوب في أداء فريضة الصلاة.

2- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ (البقرة:11)«والإفســـاد فعـــل ما به الفساد والهمزة فيه للجعل أي جعل الأشياء فاسدة في الأرض»[2]، زيدت الهمزة لفعل فسد لإفادة معنى الجعل والمساهمة.

3- ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾ (البقرة: من الآية16) « أشـــار أهـــل اللّسان إلى أنّ فاعل هذه المطاوعة هو الذي قبل الفعل والتزمه فدلّوا بذلك على أنه آخذ شيئا لرغبة فيه»[3]،صيغة افتعل تدل على المطاوعة واللين.

4- ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۖ ﴾ (البقرة: من الآية25) « وقوله(مُّطَهَّرَةٌ)هو بزنة الإفراد ولكن العرب تعدل عـــن الجمع مع التأنيث كثيرا لثقلهما لأنّ التأنيث خلاف المألوف والجمع كذلك فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالإفراد »[4]،المألوف هو مطهّرات وعدل عنه تجنّبا للثقل.

5-﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (البقرة:34)« والذي أراه أحسن الوجوه في معنى(وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) أن مقتضى الظاهر أن يقول "وكفـــر" كما قال"أبى واستكبر" فعدل عن مقتضى الظاهر إلى(وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)لدلالة كان في مثل هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسمها، والمعنى أبى واستكبر وكفر»[5].

6- ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾(البقرة:من الآية35) « فالنهي عن القربان أبلغ من

---

(1) المصدر السابق، 231/1.

(2) نفسه، 1/ 284.

(3) نفسه، 298/1.

(4) نفسه، 357/1.

(5) نفسه، 427/1.

النّهـــي عن الأكل لأنّ القرب من الشيء ينشئ داعية وميلا» [1]، اختار تقربا بدل تأكلا توخّيا للدقة في تأدية المعنى المقصود.

7- ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ ﴾(البقرة: 36) «فالـــذي أراه أن جمع الضمير مراد به التثنية لكراهية توالي المثنيات بالإظهار والإضمار من قوله(وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً)(البقرة: من الآية35) والعرب يستثقلون ذلك» [2]، ورد الفعل بصيغة الجمع تجنبا للثقل الذي ينجم عن تثنيته.

8- ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾(البقرة: من الآية40) «وقوله تعالى: وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ. هو فعل مهموز من"وفى"...ولما كان المجرد متعديا للمفعول و لم يكن في المهموز زيادة تعدية للتساوي بين قـــولك وفيته حقه وأوفيته حقه تعينت الزيادة لمجرّد المبالغة في التّوفية...» [3]، الزيادة في بناء الفعل كانت لأداء وظيفة المبالغة والتأكيد.

9- ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾(البقرة: من الآية 55) « وإنما عدي نؤمن باللام لتضمينه معنى الإقرار بالله ولن نقرّ لك بالصدق والذي دلّ على هذا الفعل المحذوف هو اللام وهي طريقة التضـــمين »[4]، الفعل نؤمن ضُمّن معنى الفعل نقرّ ليكون أكثر دقّة في التعبير عن الإيمان الذي هو الصدق في الإقرار بالله ووحدانيته.

10- ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾(البقرة: من الآية59) « وتبديل القول تبديل جميع مـــا قالـــه الله لهـــم، وما حدثهم الناس عن حال القرية وللإشارة إلى جميع هذا بني فعل قيل إلى المجهول إيجازا. » [5]. لم يذكر مقول القول للإيجاز، ولتحقيق هذا بني الفعل قال إلى المجهول.

---

(1) المصدر السابق، 432/1.

(2) نفسه، 1/ 435.

(3) نفسه، 1/ 452.

(4) نفسه، 506/1.

(5) نفسه ، 516/1.

11- ﴿ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾(البقرة: من الآية71)«و(مُسَلَّمَةٌ) أي سليمة من عيوب نوعها فهو اسم مفعول مـــن سلمت المبني للمفعول وكثيرا ما تذكر الصفات التي تعرض في أصل الخلقة بصيغة البناء للمجهول في الفعل والوصف إذ لا يخطر على بال المتكلم تعيين فاعل ذلك ومن هذا معظم الأفعال التي التزم فيها البناء للمجهـــول » [1]،ورد اسم المفعول المصوغ من المبني للمجهول بدل الصيغ الأخرى(اسم الفاعل، الصفة المشبهة...) لعدم الحاجة لذكر الفاعل.

12- ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾(البقرة: من الآية124) «والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة» [2]،الزيادة في بناء الفعل ٱبۡتَلَىٰ دلّت على المبالغة.

13- ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ ﴾(البقرة: من الآية228) « و"أحـــق"قيل:هو بمعنى اسم الفاعل مسلوب المفاضلة، أتى به لإفادة قوة حقّهم، وذلك ممّا يستعمل فيه صيغة أفعل، كقوله تعالى: ﴿ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ (العنكبوت: من الآية45)لاســـيما إن لم يذكـــر بعدها مفضل عليه بحرف من، وقيل: هو تفضيل على بابه، والمفضل عليه محذوف »[3].

14- ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾(البقرة: من الآية229) «ويجوز أن يكون إمساك وتســـريح مصـــدرين جُعلا بدلين من فعليهما، على طريقة المفعول المطلق الآتي بدلا من فعله، وأصلهما النصب، ثم عدل عن النصب إلى الرفع لإفادة معنى الدوام، كما عدل عن النصب إلى الرفع في قوله تعالى: (قَـــالَ سَـــلامٌ)(هود: من الآية69)... فيكون مفيدا معنى الأمر، بالنيابة عن فعله، ومفيد الدوام بإيراد المصدرين مرفوعين، والتقدير فأمسكوا أو سرحوا.» [4].

2-7 اختيار زمن بعينه ترد فيه الصيغة :

تحترم تراكيب اللغة العربية زمن ورود الصيغ ودلالاته؛ فالمتكلم الفصيح يختار عن قصد زمنا معينا ترد

---

(1) المصدر السابق، 555/1.

(2) نفسه، 1/ 701.

(3) نفسه، 395/2.

(4) نفسه، 2/ 406.

فيه الصيغة لتأدية وظيفة لغوية لا تؤدى بغيره، ومن الوظائف اللغوية التي يؤديها الفعل حسب زمنه:

1- مما يؤديه الفعل المضارع-حسب الحال والمقام- الوظائف التبليغية الآتية: الدلالة على تكرار الفعل ووقوعه مرة بعد أخرى، الدلالة على التجدد، الدلالة على الحال والحدوث، يستعمل لاستحضار الحالة (فظيعة أو منشودة...)، إذا كان منفيا يدل على الاستمرار إلى زمن الحال، وإذا كان مسبوقا بقد دل على التكثير مثل ربما.

2- ومما يؤديه الفعل الماضي-حسب الحال والمقام كذلك- الوظائف التبليغية الآتية: الدلالة على الشمولية لاقتضائه تحقق وقوع الفعل أو قرب وقوعه، التنبيه على تحقيق الفعل، نفيه لا يستلزم الاستمرار إلى زمن الحال بخلاف نفي المضارع.وفي النماذج التي فسرها الشيخ ابن عاشور ما يدل على كل هذا.

النماذج:

1-﴿ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾(البقرة: 3) «صيغة المضارع الدالة على التجدد إيذانا بتجدّد إيمانهم بالغيب...إذ لم يكونوا متصفين بذلك إلا بعد أن جاءهم هدى القرآن »[1]، فقد كانوا يكفرون بالبعث والميعاد [2].

2- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴾(البقرة:8)« وقوله (وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ)جيء في نفي قولهم بالجملة الاسمية ولم يجيء على وزان قولهم ءَامَنَّا بأن يقال وما آمنوا لأنهم لما أثبتوا الإيمان لأنفسهم كان الإتيان بالماضي أشمل حالا لاقتضائه تحقّق الإيمان فيما مضى بالصراحة ودوامه بالالتزام، لأنّ الأصل ألا يتغير الاعتقاد بلا موجب، كيف والدين هوهو، ولما أريد نفي الإيمان عنهم كان نفيه في الماضي لا يستلزم عدم تحققه في الحال بل الاستقبال فكان قوله(وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ) دالا على انتفائه في الماضي بالأولى... »[3].

3- ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾(البقرة: من الآية15)«وجيء في قوله(ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ)بإفادة التجدّد من الفعل المضارع؛

---

(1) المصدر السابق ، 229/1.

(2) انظر: المصدر نفسه، 230/1.

(3) نفسه، 264/1، 265.

أي تجدد إملاء الله لهم زمانا إلى أن يأخذهم العذاب »[1]؛ فالله سبحانه وتعالى يترل بهم الهوان ما بقوا يستهزئون بالمسلمين[2].

4- ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ (البقرة: من الآية30) « وأوثر التعبير بالفعل المضارع في قوله (يُفۡسِدُ) و (يَسۡفِكُ) لأنّ المضارع يدل على التجدّد والحدوث دون الدّوام لأنّهما ليس بمستمرين من البشر» [3].دل المضارع على أن الإفساد والسفك أفعال طارئة غير دائمة عند الإنسان.

5- ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا ذَلُولٞ تُثِيرُ ٱلۡأَرۡضَ وَلَا تَسۡقِي ٱلۡحَرۡثَ مُسَلَّمَةٞ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلۡـَٰٔنَ جِئۡتَ بِٱلۡحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ ﴾ (البقرة:71)« واختير الفعل المضارع في تثير وتسقي لأنه الأنسب بذلول إذ الوصف شبيه بالمضارع ولأن المضارع دال على الحال »[4]، دل الفعلان تثير وتسقي على زمن الحال؛ ففي هذه الحالة البقرة لا يذللها العمل وتحرث الأرض غير أنها لا ترفع المياه لسقي الزروع.

6- ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ٧١ ﴾(البقرة:من الآية 71) «وذهب قوم إلى أن كاد إن نفيت بصيغة المضارع فهي لنفي المقاربة وإن نفيت بصيغة الماضي فهي للإثبات وشبهته إن جاءت كذلك في الآيتين (لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ)(النور: من الآية40) (وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ) وأن نفي الفعل الماضي لا يستلزم الاستمرار إلى زمن الحال بخلاف نفي المضارع» [5]، دلّ نفي كاد في صيغة الماضي على إثبات عدم فعلهم لعدم وجود البقرة الموصوفة غير أن هذا النفي لم يستمر ووجدوها بعد عسر فذبحوها.

7- ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧ ﴾ (البقرة: من الآية87) «وجاء في تقتلون بالمضارع عوضا عن الماضي لاستحضار الحالة الفظيعة وهي حالة قتلهم رسلهم » [6].

(1) المصدر السابق، 294/1.

(2) انظر: محمد سليمان الأشقر: زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني، ص5.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 403/1.

(4) المصدر نفسه، 555/1.

(5) نفسه، 559/1.

(6) نفسه، 598/1.

8- ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: من الآية 91)« والإتيان بالمضارع في قوله(تَقْتُلُونَ) مع أن القتل قد مضى لقصد استحضار الحالة الفظيعة وقرينة ذلك قوله من قبل» [1].

9- ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾ (البقرة: من الآية 144) « وجيء بالمضارع مع قد للدلالة على التجدد والمقصود تجدّد لازمه ليكون تأكيدا لذلك اللازم وهو الوعد، فمن أجل ذلك غلب على قد الداخلة على المضارع أن تكون للتكثير مثل ربما يفعل» [2].

10- ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ (البقرة: 166) «وجيء بالفعل بعد إذ هنا ماضيا مع أنّه مستقبل في المعنى لأنه إنما يحصل في الآخرة تنبيها على تحقق وقوعه فإن درجت على أنّ إذ لا تخرج عن كونها ظرفا للماضي على رأي جمهور النحاة فهي واقعة موقع التحقيق مثل الفعل الماضي الذي معها فتكون ترشيحا للتبعية، وإن درجت على أنها ترد ظرفا للمستقبل وهو الأصح ونسبه في التسهيل إلى بعض النحاة » [3]، أورد "تبرأ" بصيغة الماضي بدل "يتبرأ" المضارع للإشارة إلى أنه واقع بهم لا محالة.

11- ﴿ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (البقرة: من الآية 210) « ...والفعل الماضي هنا مراد منه المستقبل، ولكنه أتى فيه بالماضي تنبيها على تحقيق وقوعه أو قرب وقوعه.» [4]، جاء قُضِيَ بدل يُقضَى للدلالة على القرب والتحقّق الأكيد للفعل .

8- نوع الجملة ودلالاته الوظيفية :

نقصد بنوع الجملة هنا الجملة الفعلية والجملة الاسمية.

من الوظائف التداولية لاختيار الجملة الفعلية للتعبير بها: الاهتمام بشأن الفعل دون الفاعل، الدلالة على التجدّد والحدوث. ومن الوظائف التداولية لاختيار الجملة الاسمية: الاهتمام بشأن الفاعل، الدلالة على الدّوام والثبات.

---

(1) المصدر السابق، 608/1.

(2) نفسه، 27/2.

(3) نفسه، 96/2 .

(4) نفسه، 287/2.

النماذج:

1- ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (البقرة:8) «الجملة الفعلية تدلّ على الاهتمام بشأن الفعل دون الفاعل فلذلك حكي بها كلامهم لأنّهم لما رأوا المسلمين يتطلبون معرفة حصول إيمانهم قالوا آمنّا والجملة الاسمية تدلّ على الاهتمام بشأن الفاعل أي أن القائلين آمنا لم يقع منهم إيمان فالاهتمام بهم في الفعل المنفي تسجيل لكذبهم وهذا من مواطن الفروق بين الجملتين الفعلية والاسمية »[1]، لما كان الاهتمام بالفعل قولهم (ءَامَنَّا) كانت الجملة فعلية، ولما كان الاهتمام بالقائلين جاءت اسمية (وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ).

2- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة: 62)« والتعبير في نفي الخوف بالخبر الاسمي وهو"لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ "لإفادة نفي جنس الخوف نفيا قارا، لدلالة الجملة الاسمية على الدّوام والثبات، والتعبير في نفي خوف بالخبر الفعلي وهو يَحۡزَنُونَ لإفادة تخصيصهم بنفي الحزن في الآخرة أي بخلاف غير المؤمنين»[2]، النفي الدائم للخوف- أظن في الدنيا وفي الآخرة- استعملت له الجملة الاسمية لدلالتها على الدّوام، واستعملت الفعلية لنفي الحزن عن المؤمنين في الآخرة وهنا دلت على زمن محدّد.

3- ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (البقرة: من الآية 83)« وقوله (وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ) جملة حالية ولكونها اسمية أفادت أن الإعراض وصف ثابت لهم وعادة معروفة منهم كما أشار إليه في الكشاف ...»[3].

9- الدلالات الوظيفية لبعض الأدوات:

في الجملة عناصر وظيفية أساسية (المسند والمسند إليه) وعناصر إضافية(الظرف، الحال، الأدوات...)

---

(1) المصدر السابق، 1/ 265.

(2) نفسه، 540/1،541.

(3) نفسه، 584/1.وانظر: الزمخشري: تفسيرالكشاف، 78/1.

تتــباين أهميتها في التواصل حسب المقام والغرض من الكلام. يقول د.يحيى أحمد: « المسند وهو ينقل أقل درجة من دينامية الاتصال. المسند إليه وهو ينقل أعلى درجة من دينامية الاتصال. وبعد هاتين الوحدتين أو قــبلهما أو بينهما تأتي الوحدة الانتقالية *Transition* وتكون غالبا من العناصر الإضافية (الظرف، الحــال) أو العناصر التي نحتاج إليها لاستقامة الجملة نحويا(أدوات النسخ، أدوات الشرط الخ»[1].نشير هنا إلى أن الكاتــب يستخدم المسند بمعنى المسند إليه والعكس[2]، بمعنى أن المسند هو الذي ينقل أعلى درجة مــن دينامية الاتصال، والحادثة التي رواها عبد القاهر عن الكندي الفيلسوف وأبي العباس النحوي، تبين بوضوح أهمية الأدوات ووظائفها في التواصل وتوجيه مقاصد الكلام [3].

النماذج:

1- ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾(البقرة:12) «وحــرف ألا للتنبيه إعلانا لوصفهم بالإفســاد...وموقع حرف الاستدراك هنا لأنّ الكلام دفع لما أثبتوه لأنفسهم من الخلوص للإصلاح فرفع ذلــك الــتوهم بحرف الاستدراك »[4].الوظيفة التواصلية لاستعمال الأداة "ألا" هنا هو التنبيه على أن ما أثبتوا من صلاح لأنفسهم هو الخطأ.

2- ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾(البقرة: من الآية24) « ولذلك حسن موقع لن الدالة على نفي المستقبل فالنفي بها آكد من النفي بلا، ولهذا قال سيبويه لا لنفي يفعل، ولن لنفي سيفعل...» [5]، تدل لن هنا على تأكيد نفي الفعل في المستقبل.

3- ﴿ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾(البقرة: من الآية61) « والتعــبير بلــن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدّة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده فإن التأبيد يفيد استغراق النفي في جميع أجزاء الأبد أولها وآخرها فلن في نفي الأفعال مثل لا التبرئة في نفي

---

(1) الاتجاه الوظيفي، ودوره في تحليل اللغة، ص78.

(2) انظر: المرجع نفسه، هامش ص78.

(3) انظر: مضمون الحادثة في الفصل الأول، ص45.

(4) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/286.

(5) المصدر نفسه، 1/342.

النكرات »[1]. فهم قد أكدوا ضجرهم وعدم صبرهم وتحملهم بالنفي المؤبد بلن.

4- ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ (البقرة: من الآية80) « وعبّر عن نفيهم بحرف لن الدال على تأبيد النّفي تأكيدا لانتفاء العذاب عنهم بعد تأكيد، ولدلالة لن على استغراق الأزمان تأتّى الاستثناء من عموم الأزمنة بقوله:(إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً) على وجه التفريع ...والوصف بمعدودة مؤذن بالقلة »[2].

5- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: من الآية120) «والنفي بلن مبالغة في التأييس لأنها لنفي المستقبل وتأبيده »[3]، النفي بلن للتعبير على أن يأسهم بلغ حدا لا يطاق.

6- ﴿ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ﴾ (البقرة: من الآية137)« والباء في قوله(بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ) للملابسة وليست للتعدية أي إيمانا مماثلا لإيمانهم»[4]، الوظيفة التبليغية للباء هي إفادة التطابق المشترط في الإيمان.

7- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾ (البقرة: من الآية167) «و(لو) في قوله"لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً" مستعملة في التمني وهو استعمال كثير لحرف(لو) وأصلها الشرطية حذف شرطها وجوابها، استعيرت للتمني بعلاقة اللزوم لأن الشيء العسير المنال يكثر تمنيه، وسد المصدر مسد الشرط والجواب، وتقدير الكلام لو ثبتت لنا كرة لتبرأنا منهم .»[5]، استعملت لو هنا لوظيفة التمني لشيء صعب المنال.

8- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (البقرة:168) « ومِن في قوله(مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ) للتبعيض، فالتبعيض راجع إلى كون المأكول

---

(1) المصدر السابق، 522/1 .

(2) نفسه، 579/1.

(3) نفسه، 693/1.

(4) نفسه، 741/1.

(5) نفسه، 98/2.

بعضا من كلّ نوع »[1]، لا يمكن أن يأكل الناس كل ما في الأرض وللتعبير عن هذا استعملت "مِن".

9 - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ (البقرة:170) «وإنما خُص هذا النوع بحرفي (إنْ – ولو) في كلام العرب لدلالتهما على ندرة حصول الشرط أو امتناعه، إلا أنه إذا كان ذلك الشرط نادر الحصول جاءوا معه بإنْ...، وإذا كان ممتنع الحصول في نفس الأمر جاءوا معه بلو كما في هذه الآية، وربما أتوا بلو لشرط شديد الندرة، للدلالة على أنه قريب من الممتنع، فيكون استعمال لو معه مجازا مرسلا تبعيا .»[2]، صُدِّرت هذه البنية اللغوية بلو لتدل على امتناع حصول الشرط.

10- ﴿ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾(البقرة: من الآية 177)« وعلى في قوله(عَلَىٰ حُبِّهِۦ)...تفيد مفاد كلمة مع وتدل على معنى الاحتراس كما هي في قوله تعالى:﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا ﴾ (الإنسان من الآية8) »[3].

11- ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾ (البقرة:من الآية184) «وجيء في الشرط بكلمة (إنْ) لأن علمهم بالأمرين من شأنه ألا يكون محققا؛ لخفاء الفائدتين[فوائده في الدنيا وثوابه في الأخرى].»[4].دلت إنْ هنا على استبعاد تحقق الشرط.

12- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾ (البقرة:من الآية 206) « وقوله"بالإثم" الباء فيه للمصاحبة أي أخذته العزة الملابسة للإثم والظلم وهو احتراس لأن من العزة ما هو محمود قال تعالى:﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(المنافقون:من الآية8)؛ أي فمنعته من قبول الموعظة وأبقته حليف الإثم الذي اعتاده لا يرعوي عنه وهما قرينان.»[5]. تدل الباء على أن كثيرا من العزة

---

(1) المصدر السابق ، 2 / 102.

(2) نفسه، 109/2.

(3) نفسه، 130/2.

(4) نفسه، 168/2.

(5) نفسه، 271/2.

قرين للإثم مع ما في هذا من احتراس.

13- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ (البقرة:214) «ومــتى اســتفهام مستعمل في استبطاء زمان النصر »[1]. دلت "متى" في هذا المقام على شدّة انتظار النصر.

14- ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ (البقرة: 274) «...وأدخــل الفــاء في خبر الموصول للتنبيه على تسبّب استحقاق الأجر على الإنفاق لأن المبتدأ لما كان مشتملا على صلة مقصود منها التعميم، والتعليل، والإيمــاء إلى علــة بناء الخبر على المبتدأ-وهي ينفقون-صحّ إدخال الفاء في خبره كما تدخل في جواب الشــرط، لأن أصــل الفــاء الدلالة على التسبب وما أدخلت في جواب الشرط إلا لذلك»[2]، الوظيفة التبليغية للفاء في هذه البنية اللغوية هي الدلالة على أنّ الإنفاق يؤدي إلى الأجر والأمن وعدم الحزن.

15- ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة:من الآية286) «وفي التفريع بالفاء إيذان بتأكيد طلب إجابة الدّعاء بالنصر»[3].

10- خروج الأساليب والأدوات عن معناها الأصلي لغرض تواصلي :

النماذج:

1- ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا ﴾ (البقرة: من الآية28) « والاســتفهام هــنا مستعمل في الإنكار والتعجيب بدليل(وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا)»[4]. خرج الاستفهام بكيف عن معناه الأصلي ليؤدي وظيفة تواصلية تتمثّل في التحذير من الكفر بالله وإنكاره.

---

(1) المصدر السابق، 316/2.

(2) نفسه، 77/3.

(3) نفسه، 142/3.

(4) نفسه، 374/1.

2- ﴿ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾(البقرة: من الآية30) « والاستفهام مشوب بالتعجب، فمراد الله من خلق الأرض صلاحها»[1] دلت أداة الاستفهام على التعجب من الإفساد في الأرض.

3- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾(البقرة:168) «فـــإنّ تفيد معنى التعليل والربط في مثل هذا وتغني غناء الفاء وهو شأنها بعد الأمر والنهي على ما في دلائل الإعجاز، ومثله قول بشار:

بكّرا صاحبيَّ قبل الهجير   إنّ ذاك النجاحَ في التبكيرِ »[2].

خرجت "إنّ" هنا عن المعنى المألوف لها لتُغنيَ عن الفاء الرابطة والمسببة.

المبدأ الثالث: تحقيق الكفايتين التداولية والنفسية

1- الكفاية التداولية :

تتحقق الكفاية التداولية في اللغات الطبيعية، والتي من ضمنها اللغة العربية[*]، إذا كان هناك تفاعل بين البنـــية اللغـــوية بخصائصـــها ووظيفتها في إطار المبادئ والقواعد التي تحكم التفاعل اللغوي، فالتراكيب وأشكالها تابعة لوظيفتها التداولية في الواقع اللغوي، « ويترتب عن ذلك أن العبارات اللغوية يجب أن تعد لا كـــذوات منعزلة بل كأدوات يستعملها المتكلم داخل سياق تحدده العبارات السابقة»[3]. وفي التراث العـــربي نجـــد الـــنحاة والبلاغيين قد راعَوا في تحليلاتهم اللغوية التفاعل القائم بين بنية الخطاب أو المقال ومقتضيات واقع إنجازه أي المقام، فاستنتجوا ورصدوا وظائف تداولية للغة والتي منها ظاهرة "التخصيص" وظاهـــرة "العناية" وظاهرة "التوكيد" وظاهرة "الحصر"[4]، والمفهوم الوظيفي الذي يقدمه"فرباس" للجملة والذي يسميه دينامية الاتصال يحدده انطلاقا من السياق الفعلي لها[5]، فأداة التعريف مثلا تجعل الكلمة في

(1) المصدر السابق، 403/1.

(2) نفسه، 104/2.

(*) وحول كون اللغة العربية لغة طبيعية يلجأ عبد القادر الفاسي الفهري إلى افتراض نفي أن تكون العربية غير طبيعية أو معقدة. انظر: **اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية**، دار توبقال ، الدار البيضاء، المغرب ، 1985، ص134.

(3) المتوكل: قضايا اللغة العربية، ص19.

(4) انظر: المتوكل: الوظائف التداولية، ص8.

(5) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي، ودوره في تحليل اللغة، ص77.

بعـــض التراكيب أقل دينامية أو أقل تفاعلا فهي يشار بها إلى شيء معهود أو معروف لدى المخاطب[1]، و«توزيـــع درجات دينامية الاتصال في الجملة هو حيلة تضافر ثلاثة عوامل هي : السياق، نسق الجملة، والبنية الدلالية.أما المجال الذي تتوزع خلاله دينامية الاتصال فهو الحدث الكلامي بأكمله.» [2]، ويظهر لنا مدى مراعاة تحقق الكفاية التداولية في تحليلات الشيخ ابن عاشور–وإن لم يقصد ذلك– في إبرازه التفاعل والتناسق الموجود بين البنيات اللغوية بوجوهها المختلفة ووظيفتها التواصلية التي وجدت من أجلها وذلك أثناء الواقع التواصلي وفي إطار التداول.

النماذج:

1- ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾(البقرة:2)«فـــإنّ قوله تعالى ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ مـــع قرب الكتاب للنّاطق بآياته عدول عن إشارة القريب إلى البعيد فأفاد التعظيم »[3]، أشار بذلك التي تشير للبعيد إلى قريب (القرآن الكريم قريب من الناطق بآياته) لتعظيمه، وهذا العدول أظهر مدى التفاعل بين البنية والوظيفة أثناء الكلام .

2- ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾(البقرة:34)«...وأمّـــا الإتيان بخبر كان (مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ) دون أن يقول وكان كافرا...على أن الواحد يـــزداد تمسّـــكا بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة...ولم يكن يومئذ جمع من الكافرين بل كان إبليس وحـــيدا في الكفر...» [4]، عبّر بصيغة الجماعة لغرض وظيفي تداولي هو أن الجماعة عند تأييدها لموقف تزيد من تمسّك صاحبه به .

3- ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾(البقرة:من الآية51)« وقوله وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ حال مقيدة لاتخذتم ليكون الاتخاذ مقترنا بالظلم من مبدئه إلى منهاه وفائدة الحال الإشعار بانقطاع عذرهم فيما صنعوا » [5]، دلّ وجود عبارة الحال على أن اتخاذ العجل هو ظلم لا عذر لهم فيه.

---

(1) انظر: المرجع السابق، ص79.

(2) نفسه، ص80.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 297/1.

(4) المصدر نفسه، 427/1.

(5) نفسه، 500/1.

4- ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾(البقرة: من الآية55) «ووجه العدول عن أن يقول عياناً إلى قوله جهرة لأن جهرة أفصح لفظا لخفته، فإنه مبدوء بحرف حلق والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق من وقوعه في وسط الكلام ولسلامته من حرف العلة وكذلك يجتبي البلغاء بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع وللقرآن السّهم المعلى في ذلك وهو في غاية الفصاحة »[1]، اختار لفظ "جَهْرَةً" لأنها تؤدي الغرض التواصلي، وفيها مراعاة لحال الناطق بها، والمستمع لها.

5- ﴿ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾(البقرة: من الآية61)« ومقتضى الظاهر أن يقال أن يخرج لنا فعدل عن ذلك إلى الإتيان بفعل مجزوم في صورة جواب طلبهم إيماء إلى أنهم واثقون بأنّه إنْ دعا ربّه أجابه حتى كأنّ إخراج ما تنبت الأرض يحصل بمجرد دعاء موسى ربّه »[2]، يظهر التفاعل بين البنية والوظيفة في هذا التركيب في دلالة الفعل عند عدم تحليته بأنْ على ثقتهم بمكانة موسى عند الله ﷻ.

6- ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾(البقرة: من الآية61)؛ و اقتران الجملة بإنَّ المؤكدة لتنزيلهم منزلة من يشك لبعد عهدهم بما سألوه حتى يشكون هل يجدونه من شدّة شوقهم، والمحب بسوء الظّنّ مغرى »[3]، نُزِّلوا باستعمال إنّ منزلة الشاكّ في الاستجابة لسؤاله، ولهذا كان التأكيد.

7- ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾(البقرة: من الآية 71)« وذهب قوم منهم أبو الفتح بن جني وعبد القاهر وابن مالك في التسهيل إلى أنّ أصل كاد أن يكون نفيها لنفي الفعل بالأولى كما قال الجمهور إلا أنها قد يستعمل نفيها للدلالة على وقوع الفعل بعد بطء وجهد وبعد أن كان بعيدا في الظن أن يقع وأشار عبد القاهر إلى أن ذلك استعمال جرى في العرف »[4]، استعمال كاد دلّ على أنّ فعل الذبح وقع بعدما ظنوا عدم وقوعه، وهنا يظهر تفاعل البنية مع الوظيفة.

---

(1) المصدر السابق، 507/1.

(2) نفسه، 1/ 522.

(3)نفسه، 526/1.

(4)نفسه، 558/1.

8- ﴿ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ ﴾ (البقرة: من الآية 75)«والفاء لتفريع الاستفهام الإنكاري أو التعجّبي على جملة(ثُمَّ قَسَتۡ)(البقرة: من الآية 74) أو على مجموع الجمل السابقة لأنّ جميعها مما يقتضي اليأس من إيمانهم بما جاء بـــه الـــنبي ﷺ فكأنّه قيل فلا تطمعوا أن يؤمنوا لكم، أو فاعجبوا من طمعكم ...» [1]، يُفهم من سياق ومقام الكلام أنّ الاستفهام يدلّ على النفي.

9- ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ (البقرة: من الآية 112) « وجمع الضمير في قوله(وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ)اعتباراً بعموم مَنْ ، كما أفرد الضمير في قوله (وجهه وهو محسن) اعتبارا بإفراد اللفظ وهذا من تفنّن العربية لدفع سآمة التكـــرار.»[2]، روعي في هذا التركيب حال المخاطبين وذلك بدفع السأم عنهم، وفي هذا نلمس التفاعل بين بنية اللغة وخصائصها.

10- ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ (البقرة: من الآية 119)« وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة تشريفا للنبي ﷺبعزّ الحضور لمقام التكلم مع الخالق تعالى وتقدس كأن الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة فلذا لم يقل له إن الله أرسلك » [3]، جيء بصيغة المخاطب لإظهار مكانة النبي ﷺ عند الله سبحانه وتعالى.

11- ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾(البقرة: من الآية 120) «والتصريح بلا النافية بعـــد حرف العطف في قوله(وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ)للتنصيص على استقلالهم بالنفي وعدم الاقتناع باتباع حرف العطـــف لأنهم كانوا يظن بهم خلاف ذلك لإظهارهم شيئا من المودة للمسلمين » [4]، استقل نفي رضا النصارى بغية إظهار موقفهم وكشف ما أسرّوا.

12- ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﴾ (البقرة: من الآية 124)« وتقديم المفعول وهو لفظ إبراهيم لأنّ المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز فلذلك لم يقل و إذا ابتلى الله

(1) المصدر السابق، 566/1.

(2) نفسه، 675/1 .

(3) نفسه، 691/1.

(4) نفسه، 693/1.

إبراهيم » [1]،التقديم هنا للاهتمام والتشريف، وإظهار المكانة.

13- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ (البقرة: 159) « وقوله (أُوْلَٰٓئِكَ) إشارة إلى الذين يكتمون، وسط اسم الإشارة بين اسم إنّ وخبرها للتنبيه على أن الحكم الوارد بعد ذلك قد صاروا أحرياء به...»[2]، للتعبير على أنّ اللعنة حَرِية بالكاتمين لما أنزل الله استعمل اسم الإشارة فاصلا بين المبتدأ وخبره، وفي هذا الفصل كذلك إبراز لهذا الحكم.

14- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ (البقرة:172) « والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لأنّ في الاسم الظاهر إشعارا بالإلهية فكأنه يومئ إلى ألا تشكر الأصنام »[3]، في إظهار لفظ الجلالة تعظيم لـه وفيه إشارة إلى وجوب شكر رازق الطيبات وعبادته وتحريم شكر الأصنام وعبادتها.

15- ﴿ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ (البقرة:من الآية 253) « وجيء بالإشارة لما فيه من الدلالة على الاستحضار حتى كأن جماعة الرسل حاضرة للسامع...وقرن اسم الإشارة بكاف البعد تنويها بمراتبهم كقوله (ذلك الكتاب).» [4]، في الإشارة للقريب بصيغة البعيد تشريف وتنويه.

2- الكفاية النفسية :

يكـــون النحو كافيا نفسيا إذا طابقت نماذجه النماذج النفسية(الواقعية النفسية)؛ أي يطابق ما في ذهن المتكلم ما في ذهن السامع أثناء إنتاج الكلام وفهمه، فيكون السلوك اللغوي، أو الكلام الملفوظ ظلا يتبع الكـــلام النفســـي، ويتولى هذا العقلُ بصنع الفكرة قبل النطق بها. ولذا « يلغي النحو الوظيفي من نموذج النحو القواعد التي شكك في "واقعيتها النفسية" كالقواعد التحويلية على سبيل المثال » [5]، وذلك لكون

(1) المصدر السابق، 702/1.

(2) نفسه، 67/2.

(3) نفسه، 114/2.

(4)نفسه، 05/3.

(5) أحمد المتوكل: دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي، ص10.

القواعد التحويلية ترى أن الكثير من البنيات اللغوية تنتج عن طريق التحويل بواسطة الحذف أو الزيادة أو التقديم أو التأخير...بخلاف النّحو الوظيفي الذي يرى أنها تُنتج هكذا ولا تحويل فيها، والشكل الذي قيلت به هو أصلها الذي يطابق واقعها النفسي والتداولي.من ذلك الحذف في التركيب مثلا يكون أولى للفهم وآنس للنفس من الإظهار أو النطق. يقول "الرماني" عن حذف الجواب في قوله تعالى:﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾(الزمر:73):« وإنما صار الحذف في هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان» [1].

النماذج:

1- ﴿ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾(البقرة: من الآية25) « وقوله(وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) احتراس من توهّم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللّذات في الدّنيا »[2]، في الآية مراعاة لما قد تذهب إليه أنفس المخاطبين وذلك بقطع ما قد يتوهمون.

2- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾(البقرة: 34) «...وغـــير أسلوب إسناد القول إلى الله فأتي به مسندا إلى ضمير العظمة(وَإِذْ قُلْنَا) وأتي به في الآية السابقة مسندا إلى ربّ النبي(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ)(البقرة: من الآية30)للتفنّن ولأنّ القول هنا تضمّن أمرا بفعل فيه غضاضـــة على المأمورين فناسبه إظهار عظمة الآمر وأمّا القول السابق فمجرد إعلام من الله بمراده ليظهر رأيهم »[3]، يوضح هذا التحليل أنّ اختلاف البنيات اللغوية يكون تابعا لوظائفها التواصلية، وهذا ما يبين تفاعل البنية كيفما كان شكلها مع وظيفتها.

3-﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ

(1) شفيع السيد: **البحث البلاغي عند العرب**، تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1996، ص18.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 357/1.

(3) المصدر نفسه، 421/1 .

﴿٤٠﴾ (البقرة: 40) « افتتاح خطابهم بهذا التذكير[بالنعم]تهيئة لنفوسهم إلى تلقي الخطاب بسلامة طوية وإنصاف (أوفوا بعهدي) » [1] التذكير بالنّعم قبل الأمر المراد فيه تحضير للنفوس لقبوله.

4- ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ (البقرة:من الآية 51)«وحذف المفعول الثاني لاتخذتم لظهوره وعلمهم به ولشناعة ذكره وتقديره معبودا أو إلها »[2]، لم يذكر المفعول الثاني تنزُّها عن ذكره ولكي لا يظن المخاطَب في كونه معبودا.

5- ﴿ ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (البقرة:من الآية 52) «وقوله لعلّكم تشكرون رجاء لحصول شكركم وعدل عن لام التعليل إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة » [3].عبر عن احتمال تخلف شكرهم انطلاقا من معرفة خبايا أنفسهم بأداة الترجي دون حرف التعليل، وهذه البنية أدت بدقة وظيفة تصوير حالهم.

6- ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا ٱدۡخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ فَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ رَغَدٗا وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُولُواْ حِطَّةٞ نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطَٰيَٰكُمۡۚ وَسَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ ﴾ (البقرة:من الآيتين 58، 59) « وفائدة إظهار لفظ القول دون أن يقال فبدلوه لدفع توهّم أنهم بدلوا لفظ حطّة خاصة وامتثلوا ما عدا ذلك لأنه لو كان كذلك لكان الأمر هيّنا »[4].

7- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة: 62)«فمجيء (إنَّ)هنا لمجرّد الاهتمام بالخبر وتحقيقه لدفع توهم أن ما سبق من المذمات شامل لجميع اليهود » [5]، ليؤكد خروج الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر وعملوا الصالحات من جملة اليهود ممّا سبق من الذّم استعمل "إنّ".

---

(1) المصدر السابق، 1/ 452.

(2) نفسه، 499/1.

(3) نفسه، 501/1.

(4) نفسه، 516/1.

(5) نفسه، 531/1.

8- ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة:من الآيتين 87، 88)« ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه» [1]، وقع الالتفات للإشعار بقبح كفرهم .

9- ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (البقرة:98) «...ولهذا ذكر اسم الجلالة بلفظه الظاهر و لم يقل فإنّي عدوّ أو فإنه عدو لما يشعر به الظاهر هنا من القدرة العظيمة على حد قول الخليفة "أمير المؤمنين يأمر بكذا"حثا على الامتثال»[2]، أُظهر لفظ الجلالة للفت الانتباه وشدّ الأنفس ولإبراز العظمة.

10- ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ (البقرة: من الآية165) « وجواب لو محذوف لقصد التفخيم وتهويل الأمر لتذهب النفس في تصويره كل مذهب ممكن » [3]، ذِكر جواب لو ينهي مخاوفهم ويحدد ما هُدِّدوا به، ولذا كان الحذف أكثر تأثيرا على أنفسهم .

11- ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (البقرة: 166) «وجملة(رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ)حالية... وهي مغنية عن الاستئناف الذي يقتضيه المقام لأن السامع يتساءل عن موجب هذا التبرؤ فإنه غريب فيقال رأوا العذاب فلما أريد تصوير الحال وتهويل الاستفظاع عدل عن الاستئناف إلى الحال » [4]، عدل عن الاستئناف إلى الحال لنقل فضاعة الموقف.

12- ﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ (البقرة:من الآية211) ،

(1) المصدر السابق، 599/1.

(2) نفسه، 624/1.

(3) نفسه، 94/2.

(4) نفسه، 97/2.

«وإظهـــار اسم الجلالة هنا مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: فإنه شديد العقاب، لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة» [1].

13- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (البقرة:من الآية217) « وقـــوله: "قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ " إظهار لفظ القتال في مقام الإضمار ليكون الجواب صريحا حتى لا يتوهم أن الشهر الحرام هو الكبير وليكون الجواب على طبق السؤال في اللفظ » [2]، أُظهر لفظ القتال للدقة ولإزالة اللبس.

14- ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ (البقرة:من الآية 253) « وقـــد خص الله من جملة الرسل بعضا بصفات يتعين بها المقصود منهم، أو بذكر اسمه، فذكر ثلاثا إذ قال: منهم من كلم الله، وهذا موسى عليه السلام لاشتهاره بهذه الخصلة العظيمة في القرآن، وذكر عيسى عليه السلام، ووسط بينهما الإيمان إلى محمد ﷺبوصفه، بقوله:(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ). وقوله:(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ) يتعين أن يكون المـــراد من البعض هنا واحدا من الرسل معينا لا طائفة ... وعليه فالعدول من التصريح باسم أو بالوصف المشهور به لقصد دفع الاحتشام عن المبلغ الذي هو المقصود من هذا الوصف وهو محمد ﷺ، والعرب تعبر بالبعض عن النفس كما في قول لبيد:

تَرّاكُ أمكنة إذا لم أرضَها   أو يَعْتلق بعضَ النفوس حمامُها

أراد نفسه » [3].

15- ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ (البقرة:من الآية 286) « وقوله (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا) الخ فصل بين الجملتين المتعاطفتين، بإعادة النداء، مع أنه مستغنى عنه، لأن مخاطبة المنادى مغنية عن

(1) المصدر السابق، 293/2.

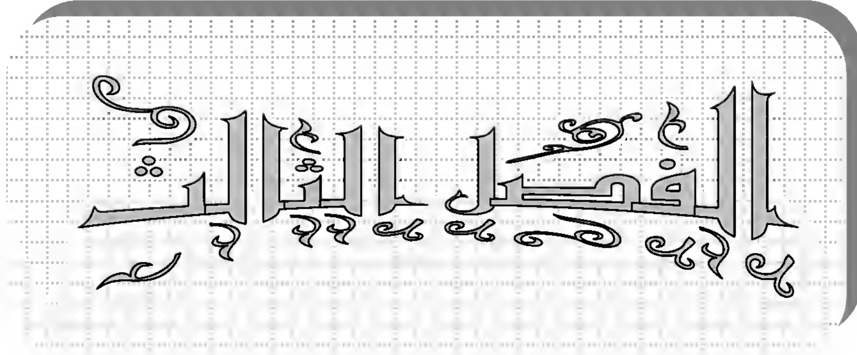
(2) نفسه، 325/2.

(3) نفسه، 06/3.

إعادة النداء لكن قصد من إعادته إظهار التذلل » [1].قصد بإعادة النداء التأكيد على فضل الدعاء وإظهار التذلل إلى الله سبحانه وتعالى.

---

(1) المصدر السابق ، 140/3.



السِّمات الوظيفية عند ابن عاشور

(ملامح المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير)

بعدما تطرقنا لمبادئ النحو الوظيفي في الفصل الثاني لا حظنا أنّ أغلبها طبّق في تفسير الشيخ ابن عاشور والشـــواهد علـــى ذلك كثيرة وهي مسجلة مرتبة حسب أرقام الآيات في سورة البقرة وهي نماذج حيّة – تجنبنا فيها التكرار إلا ما ندر رغم دلالة العديد منها على سمات وظيفية كثيرة– تدلّ على وظيفية الشيخ ابـــن عاشور، وبعد الاستقراء والتمحيص في هذه النماذج وجدنا أنه يعتبر أنّ الوظيفة الأساسية للغة هي التواصـــل ونلمـــس هذا من خلال كل شواهده التفسيرية، ولا يخفى أن هذا المبدأ الوظيفي تقره المدارس الحديـــثة الوظيفية وغير الوظيفية، يقول المسدي: «ولما انصبت الرؤية العلمية الحديثة على الحد بالوظيفة أكثـــر مـــن الحد بالبنية العضوية...فإن اللغة قد غدت وحدها الكفيلة بإعطاء المرء مقوماته الإنسانية عبر تمكيـــنه مـــن إجراء العملية التواصلية »[1]، وما يعكس النهج الوظيفي للشيخ ابن عاشور في تفسيره وفي نظراته اللغوية ملامح المنحى الوظيفي وسمات الوظيفية التي تظهر من خلال ما يأتي:

1– الربط بين البنية والوظيفة:

تـــرى جـــل المدارس الوظيفية أنّ البنية انعكاس للوظيفة ووجدت من أجلها فكما هي الألفاظ خدم للمعاني البنية خدم للوظيفة ولا يمكن وجود الأولى إلا للثانية، وهذا المبدأ اعتُبر أساسا ونقطة انطلاق لكل تحليل وظيفي؛ فتحليل البنى يكون انطلاقا من تعبيرها عن وظيفة خصت بها في ظروف مقامية خاصة وفي سياقات معينة، وعلى أساس من هذا يكون الكلام وبنية التركيب وشكله « ويبدو لنا شخصيا أن إشارة العـــرب القـــدماء إلى أن الوظائـــف الدلالية لها دور في تحديد رتبة المكونات لا تخلو من معقولية ، على مستوى الحدس على الأقل » [2]، والوظيفية العربية ممثلة في الشيخين الجرجاني والسكاكي لم تكن تهمل في تحليلها توجيه الوظيفة للكلام وبنياته اللغوية وما تفرضه الوظائف التداولية من بنيات خاصة « ويعني هذا بعبارة أخرى أنهم اعتبروا في تحليلهم لهذه المجموعة من الظواهر أن الوظائف التداولية(التخصيص، العناية، الحصـــر...)تحـــدد بنية الجملة التي تسند إلى أحد مكوناتها.فالمكون"**قصيدة**" في الجملة:**قصيدةً** ألفت (لا كتابا)، مثلا، يحتلّ الموقع الصدر لأنه حامل لوظيفة تداولية معينة: وظيفة **التخصيص**» [3]، وقد ذكرنا فيما سبق أن الشيخ ابن عاشور كان متأثرا أيما تأثر بالشيخين الجرجاني والسكاكي وهما أحسن ممثل للوظيفية العربية، فقد لاحظنا اهتمامه الشديد بالارتباط التداولي بين البنية والوظيفة بمثل ما وجدناه عند الشيخين

---

(1) اللسانيات وأسسها المعرفية، ص36.

(2) المتوكل : الوظائف التداولية، ص50.

(3) المرجع نفسه، ص8 .

وأحيانا بصورة أدق وأوضح [1].

2- الانطلاق من الواقع الاستعمالي (المقام وسياق الحال):

المقام: هو مجموع العلاقات والملابسات والظروف الاجتماعية التي تكون أساسا لدراسة السلوك اللغوي مـــرتبطا بالسلوك الاجتماعي، وهو غالبا ما يعرف بسياق الحال(المقام)، وهو كل ما يشترك بين المرسل والمتلقـــي في الوضـــعية الثقافية والنفسية، والتجارب والمعارف [2]، ويحدد معنى المقام قاليسون وكوست *Galisson et Coste*: « المقـــام هو مجموع شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجة عن القول ذاته.» [3].

وقـــد حظي المقام في كل الدراسات اللغوية السابقة باهتمام كبير وذلك لتأثيره البارز في إنتاج الكلام أولا وتوجـــيه معناه ثانيا؛ فمن قواعدهم في البلاغة: لكلّ مقام مقال –مراعاة سياق الحال...وفي النحو: التخصـــيص- العناية- الحصر... وفي التفسير: أسباب الترول، وفي الأصول: المطلق المقيد، العام الخاص، الضرورات تقدر بمقاديرها، وفي كل هذا دلالة على أنّ الجمل لا تولد وحدها بدون سياق أو إحالة قبلية أو بعدية سواء كانت لغوية أو غير لغوية.

وعناصـــر المقـــام كما حصرها "فند ليش *Wunderlich* "هي: المشاركون في التبليغ: -المتكلمون والمســـتمعون - مكـــان الـــتفاعل - القـــول(اللغوية،شـــبه اللغوية وغير اللغوية) - مقاصد المتكلمين *Intention*- تـــرقبات *Attentes* المـــتكلم والمستمع- مساهمة المشاركين في الموضوع- معارفهم اللغوية- المعايير الاجتماعية - شخصياهم وأدوارهم [4].

وممـــن دعا إلى دراسة المعنى وتحليله بالاعتماد على المقام *(Context of situation)* اللغوي المعاصر فيرث (*Firth* ت1960)فقد دعا إلى الاعتماد على المقام لكشف ظروف الكلام وملابساته، وكل هذا أشار إليه علماء اللغة العرب القدامى ويظهر من خلال اهتمامهم بطرفي الخطاب(المخاطِب والمخاطَب)، من ذلك قول الشاعر:

على الحَكم المَأْتي يوماً إذا قضى ** قضيته أن لا يجورَ ويقْصِدُ

---

(1) انظر: النماذج المحللة في الفصل الثاني.

(2) انظر: عبد الجبار توامة: **زمن الفعل في اللغة العربية، قرائنه وجهاته**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 10،11.

(3) قاليسون وكوست في: الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص41.

(4) انظر: المرجع نفسه، ص40، 41 .

فقـــد ذكر القدماء أنه ينبغي القطع وعدم الوصل بين الفعلين أن / لا يجورَ / و / يقصدُ / بعدم الإشراك بينهما في النصب حتى لا ينتقض المعنى، وسياق الحال يوضح ذلك. ولا يعني أنهم في تحليلهم هذا يركزون علـــى العلامة الإعرابية بقدر ما يركّزون على الوظيفة التداولية لهذا التركيب في حدود ما يقتضيه سياق الحال أو المقام الذي يرد فيه، « ومعلوم أن الوظيفة لا تتشكل أو تؤدّى إلا في سياق، وهو ما يدعى عند علمــاء اللغـــة المعاصرين بالموقف الكلامي، وعند علماء العرب بقرينة المقام.» [1]، وعن اهتمام اللغويين العـــرب بالمقـــام يقول المتوكل:« واللافت للنظر في معالجتهم لهذه الظواهر[التخصيص، العناية، التوكيد، الحصـــر] أنهـــم عللوا الخصائص البنيوية المميزة للبنيات المعنية بالأمر انطلاقا من أنماط المقامات التي تنجز فيها» [2].

ومـــن أمـــثلة التحليلات الوظيفية عند علماء اللغة العرب ضرورة حمل حتى على الابتداء وعدم نصب ما وليها من الفعل.كقول حسان بن ثابت:

يُغشَون حتى ما تَهِرُّ كلابُهم   لا يسألون عن السّواد المُقبِل[3].

لأن المقـــام مدح، وغرض الشاعر تقرير كرم آل ممدوحيه عند السامع فاتخذ من عدم نباح كلابهم كناية على كثرة ضيوفهم، وأنهم في سعة ولا يخافون كثرة الجموع إن نزلوا منازلهم .ولو نصب (لا تهرّ) لجعله غاية للغشيان وهو مناف للمعنى المقامي المقصود[4].

وللسّـــياق دور كـــبير في توجيه معنى العبارات ودلالات المفردات فما نجده حسنا وفصيحا في سياق تواصلي معين يكون مرفوضا ومحالا في سياق آخر، هذا « ولابد من ملاحظة الضغوط السياقية في الجملة الكلامـــية، فـــتوزيع الوحدات الصغرى فيها يخضع لضغوط متجانسة.»[5]، كما أن السياق و العناصر الخارجة عن الإطار التركيبي للّغة يساعدان على تحديد وظائف البنيات اللغوية.

والمنحـــى الوظيفـــي يربط بين النظام اللغوي وكيفية استعماله لتأدية وظيفة التواصل، انطلاقا من ظروف المقام، ويتمثل هذا الرّبط في ثلاثة مظاهر [6] :

(1) صاحب أبو جناح: دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، ص208.

(2) المتوكل: الوظائف التداولية، ص8.

(3) انظر: الدلائل: ص441.

(4) انظر: الكتاب، 19/3، وانظر:عز الدين مجدوب: المنوال النحوي العربي، ص169.

(5) محمد الخناش: البنيوية في اللسانيات، ص335 .

(6) انظر: يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص71، 72 .

1- الخـــيارات المتعدّدة المتاحة للمتكلم من الأبنية والتراكيب المختلفة، فكل تركيب يؤدي وظيفة مختلفة عن وظيفة التركيب الآخر.

2- امتداد جذور اللغة إلى البنى الاجتماعية، فلا يمكن فصل اللغة عن الثقافة: التراث والعادات والتقاليد.

3- مساهمة عناصر اللغة مجتمعة في أداء الوظيفة التبليغية التي يريد المتكلّم توصيلها.

وهذه المظاهر الثلاثة لم يهملها لغويو مدرسة براغ فقد كانوا يجمعون في تحليلهم للكلام ومحتواه الدلالي (*Semantic content*) بـين مستويات اللغة(النحوي والأسلوبي) وحقائق العالم الخارجي (مشاعر مســتعملي اللغـــة، معطيات ومتغيرات البيئة...)؛ فلم يكن تحليلهم تجريديا يفصل المعنى عن الاستعمال اللغـــوي، وإنما اتخذ منحى وظيفيا، وهذه الفكرة شاعت أكثر ووظفت توظيفا مثاليا مع مدرسة لندن من خلال نظرية سياق الحال[1].

ولكـــي يـــتم تحليل معنى الجملة حسب مقتضيات سياق "الحال"، ينبغي الأخذ بعين الاعتبار العناصر التالية[2]:

1- الحقائـــق المـــتعلقة بالمشاركين في الحدث اللغوي، كأن نذكر مثلا إذا كان المشارك طفلا أو رجلا ناضجا ذا مكانة اجتماعية مرموقة، أو امرأة. ويندرج تحت هذا العنوان الخلفية الثقافية للمتكلمين.

2- الأحداث اللغوية نفسها، أي العبارات المنطوقة بالفعل وكيفية نطق الجملة أو الجمل من حيث التنغيم والنـــبر الخلافي، وما يصاحب هذه الأحداث اللغوية من مظاهر لغوية غير منطوقة، كحكة اليدين وتعابير الوجه.

3- الأمور المادية التي لها صلة مباشرة بالحدث اللغوي *(Relevant objects)*.

4- أثر العبارات اللغوية المنطوقة فعلا(أي ما يستتبع المنطق من سلوك اعتمادا على العبارات المنطوقة)فقد تؤثـــر جملة ما على أحد السامعين، ولكن لا تترك نفس الأثر في سامع آخر لاختلاف العادات والتقاليد.

والـــنماذج التي يراعي فيها ابن عاشور الواقع الاستعمالي وسياق الحال اللذين يحققان ما يسمى في الدرس الوظيفي المعاصر بالكفاية التداولية كثيرة ومنها اخترنا:

*﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (البقرة:8) «وفي التعبير بيقول في مثل هذا المقـــام إيماء إلى أن ذلك قول غير مطابق للواقع لأن الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلق الغرض

(1) انظر: المرجع السابق، ص75.

(2) انظر: المرجع نفسه، ص82، 83.

بذكر نصه وحكي بلفظ يقول، أومأ ذلك إلى أنه غير مطابق لاعتقاده أو أن المتكلّم يكذبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله (وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ)»[1].

*﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ﴾ (البقرة: من الآية24) «مفعـــول تفعلوا محذوف يدلّ عليه السياق؛ أي فإن لم تفعلوا ذلك، أي الإتيان بسورة مثله »[2].

*﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (البقرة: 63) «وضمائر الخطاب لتحميل الخلف تبعات السلف كيلا يقعوا في مثلها وليستغفروا لأسلافهم عنها »[3]، يُفهم هذا انطلاقا من السياق الذي وردت فيه الآية.

*﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا ﴾ (البقرة: من الآية83) «وقولــه(لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ) خـــبر في معنى الأمر ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى أنه يخبر عنه.»[4]، سياق الحال وما ورد من آيات أخرى جاءت بصيغة الأمر هو الذي يحيل على هذا المعنى.

*﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ (البقرة: من الآية144) «وقد دل التعريف في قوله(أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ) على القصر أي يعلمون أنّ الاستقبال للكعبة هو الحق دون غيره»[5]، من السياق الذي وردت فيه الآية يتضح المقصود بالحق.

*﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ (البقرة: 155) « (وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ) معطوفة على(وَلَنَبۡلُوَنَّكُم) والخطاب للرّسول

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/ 263.

(2) المصدر نفسه، 342/1 .

(3) نفسه، 541/1، 542.

(4) نفسه، 582/1.

(5) نفسه، 34/2 .

عليه السلام بمناسبة أنه ممن شمله قوله (وَلَنَبْلُوَنَّكُم) وهو عطف إنشاء على خبر ولا ضير فيه عند من تحقق أساليب العرب ورأى في كلامهم كثرة عطف الخبر على الإنشاء وعكسه »[1].

*﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (البقرة:166)

«وجملة(رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ) حالية أي تبرءوا في حال رؤيتهم العذاب...فموقع الحال هنا حسن جدا وهي مغنية عن الاستئناف الذي يقتضيه المقام لأن السامع يتساءل عن موجب هذا التبرؤ فإنه غريب فيقال رأوا العذاب فلما أريد تصوير الحال وتهويل الاستفظاع عدل عن الاستئناف إلى الحال»[2].

*﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ (البقرة:من الآية166) «فالباء في(هم) للملابسة أي تقطعت الأسباب ملتبسة بهم أي فسقطوا ، وهذا المعنى هو محل التشبيه لأنّ الحبل لو تقطع غير ملابس للمرتقي عليه لما كان في ذلك ضر إذ يمسك بالنخلة ويتطلب سببا آخر يترل فيه، ولذلك لم يقل وتقطعت أسبابهم أو نحوه، فمن قال إن الباء بمعنى عن أو للسببية أو التعدية فقد بعد عن البلاغة »[3].

*﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ (البقرة:من الآية217) « فالنكرة هنا للعموم بقرينة المقام، إذ لا خصوصية لقتال قوم دون آخرين، ولا لقتل في شهر دون غيره »[4].

*﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾(البقرة:من الآية282) «واعلم أنه ليس التكرير بمقصور على التعظيم بل مقامه كل مقام يراد منه تسجيل انتساب الفعل إلى صاحب الاسم المكرر...وقد وقع التكرير متعاقبا في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (آل عمران:78).» [5].

---

(1) المصدر السابق، 56/2 .

(2) نفسه، 97/2.

(3) نفسه، 98/2.

(4) نفسه، 326/2 .

(5) نفسه ، 120/3.

ويقـــدِّر بعضهم نسبة تأثير عناصر الموقف الخارجي في توجيه معنى الكلام وتحديد وظيفته بدرجة عالية، تـــبلغ ســـبعين في المائة من درجة تأثير الكلام في مواقف الخطاب، بخلاف الدلالة التعبيرية فتأثيرها يتدنى مستواه إلى الثلاثين في المائة (1).

والمنحى الوظيفي لا يفصل بنية الجملة عن وظيفتها بل يرى أنهما يخلقان معا في لحظة واحدة لحظة تفاعل المـــتكلم مع الحدث فلا يُصدر المتكلم الجملة عارية ثم يكسيها ثوب المعنى، يقول هاليدي: « إن السياق جزء من التخطيط الكلي...ليس هناك انفصال بين ماذا نقول وكيف نقول اللغة إنما تكون لغة من طريق الاستعمال في سياق الحال. وكل ما فيها مرتبط بالسياق.» (2)، فالتعدّي واللزوم مثلا عند هاليدي يتمثل في العلاقات التي تنشأ بين النشاط*Process type* "والمشاركين" *Participants* (3)، ومثال تحليل الجملة عند الوظيفيين السياقيين:

منح	المدير	سكرتيرته	إجازة	مرضية
نشاط مجاوز	عامل	مستفيد	هدف	صفة

فالنشاط هو منح، والمشاركون هم: المدير، سكرتيرته، إجازة. والوظائف اللغوية تؤدى عن طريق الجملة بكل عناصرها المتكاملة (4).

3- المزج بين النحو والبلاغة -علم المعاني خصوصا- في التحليل الوظيفي:

مـــا سماه البلاغيون بعد عبد القاهر بعلم المعاني سماه هو علم معاني النحو، ومن هذه التسمية نستشف العلاقـــة الحقيقية بين علم المعاني والنحو فقد مزج بينهما وسماهما باسم علم واحد (5)، وهذه التسمية هي تسمية وظيفية تمزج بين الفنَّيْن وتركز في تحليل البنيات والتراكيب اللغوية على علاقتها بوظائفها التداولية؛

---

(1) انظـــر: نهاد الموسى: نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، المجلة العربية للدراسات اللغوية، م144، ص13. نقلا عن: (صاحب أبو جناح: دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها، ص215).

(2). Halliday1978, P33 . نقلا عن:(يحيى أحمد: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص84).

(3) انظر: الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، ص90.

(4) انظر: المرجع نفسه ، ص92، 93.

(5) انظر: الفصل الأول، ص52.

فالفصل بينهما مخلّ بروح الدراسة اللغوية، وقد عاب إبراهيم مصطفى على الذين فصلوا بين الدّرسيْن واعتبر فصلهم هذا مزهقا لروح الفكرة ومضلّلا [1]، وممن دعَوا إلى المزج بين النحو وعلم المعاني ورفضوا الفصل بينهما الدكتور جعفر دك الباب حين يقول: « فإننا نرفض فصل دراسة علم المعاني عن دراسة علم النحو بمفهومه الواسع (صرف العربية ونحوها)، وندعو إلى توحيدهما معا في علم واحد » [2]، وعلى أساس من هذا المزج قامت نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر، حيث يقول:« وإذ قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه»[3]؛ فالنظم هو تجسيد معاني النحو التي يبنى عليها الكلام بحسب أوجه وأشكال بنياته المترتبة عن اختلاف الوظائف المنوطة بها (مقاصدها وأغراضها)، والنظم عنده « أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها »[4].

فالعناية بالنحو والبلاغة معا واعتبارهما كلا واحدا متكاملا أمر لا مناص منه في عملية التواصل التي هي الوظيفة الأساسية للغة، يقول الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح: « إذا اكتفينا في تعليم العربية بجانب السلامة اللغوية، أي بجعل الطالب قادرا على تطبيق القواعد النحوية وحدها دون مراعاة ما تستلزمه عملية الخطاب، أي دون القواعد البلاغية كان تعليمنا هذا ناقصا، وتجاهلنا بذلك أن الملكة اللغوية بكاملها وفي جملتها هي مهارة التصرف في بنى اللغة بما يقتضيه حال الحديث، أي القدرة على التبليغ الفعّال بما تواضع عليه أهل اللغة، وبعبارة أخرى أيضا القدرة على الاتصال اللغوي في جميع الأحوال بما يقتضيه الوضع اللغوي وهذه الأحوال معا من لفظ سليم ومناسب »[5]، والشيخ ابن عاشور اقتفى أثر من مزجوا بين النحو والبلاغة وخصوصا علم المعاني وطبق ذلك في تحليلاته اللغوية الوظيفية، ومما لمسنا فيه هذا المزج في تفسيره النماذج الآتية:

*﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾(البقرة: من الآية17)« ومفعول لا يبصرون محذوف لقصد عموم نفي

---

(1) انظر: إحياء النحو، ص19.وانظر الفصل الأول، ص60.

(2) النظرية اللغوية العربية الحديثة، ص156.

(3) الدلائل، ص132.

(4) المرجع نفسه، ص127.

(5) الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، ص26.

المبصرات فترل الفعل مترلة اللاّزم ولا يقدّر لـــه مفعول كأنّه قيل لا إحساس لا بصر لهم »[1]، حديثه عن وظيفة الحذف ونزول الفعل المتعدي مترلة اللازم فيه مزج بين علم المعاني والنحو.

*﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾(البقرة: من الآية71) « عطفت الفاء جملة(فَذَبَحُوهَا) على مقدر معلوم وهو فوجدوها أو فظفروا بها أو نحو ذلك و هذا من إيجاز الحذف الاقتصاري ولما ناب المعطوف في الموقع عـــن المعطـــوف عليه صحّ أن نقول الفاء فيه للفصيحة لأنها وقعت موقع جملة محذوفة فيها فاء للفصيحة، ولـــك أن تقـــول إن فاء الفصيحة ما أفصحت عن مقدر مطلقا...» [2]، تحدث هنا عن الحذف والعطف والتقدير.

*﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾(البقرة: من الآية 83) « وقولـــه (وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا)هـــو مما أخذ عليهم الميثاق به وهو أمر مؤكد لما دل عليه تقديم المتعلق على متعلقه وهما (بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا)وأصله وإحسانا بالوالدين، والمصدر بدل من فعله والتقدير وأحسنوا(بِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا)ولا يـــريبكم أنه معمول مصدر وهو لا يتقدم على عامله على مذهب البصريين لأنّ تلك دعوى واهية » [3]. يتمثل المزج بين علم المعاني والنحو في الحديث عن التقديم، وعن التعلق، وعن معمول المصدر وموقف البصريين من تقديمه.

*﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾(البقرة: من الآية117)« هو بالرفع خبر لمحذوف على طريقة حذف المسند إليه لاتباع الاستعمال كما تقدم في قوله تعالى(صُمٌّ بُكْمٌ)وذلك من جنس ما يسمونه بالنعت المقطوع »[4]، حذْف المسند إليه درس في علم المعاني، والخبر والنعت المقطوع درسان نحويان.

4- مشابهة الدرس الوظيفي المعاصر في أكثر مبادئه:

لاحظنا في النماذج التطبيقية في الفصل الثاني - وهو التطبيق العملي لأكثر مبادئ النحو الوظيفي- أنّ تحليلات الشيخ ابن عاشور للآيات القرآنية كانت في أغلبها لا تبتعد عما أقره الدرس الوظيفي التداولي

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 312/1.

(2) المصدر نفسه، 556/1.

(3) نفسه، 583/1.

(4) نفسه، 686/1.

المعاصـــر بمثل ما وجدناه عند من تأثر بهم من علماء العربية القدامى وخصوصا من مثلوا الوظيفية العربية أحســـن تمثـــيل[1]، كالجرجاني والسكاكي من بعده، ويجدر بنا الإقرار « أنّ اللغويين العرب القدامى لم يكونـــوا بعـــيدين عـــن "روح" الدرس الوظيفي-التداولي المعاصر، لكن هذا لا يعني "تطابق" التصورات والمبادئ والمنطلقات»[2]، والدكتور أحمد المتوكل من الأوائل الذين كشفوا عن التشابه الحاصل بين الفكر اللغـــوي العـــربي القديم وما توصل إليه الفكر اللساني الوظيفي التداولي المعاصر وخاصة ما تعلق بآليات التحليل اللغوي المعتمدة في رصد الترابط القائم بين البنية والوظيفة [3]، وذلك بعد بحث ودراسة معمّقين[*] في التـــراث اللغوي العربي والدرس اللساني الوظيفي المعاصر مما دفع به إلى أن يدعو إلى ضرورة أن يكون بينهما قرض واقتراض، إذ نجده يقول:« توصلنا في هذه المحاولة إلى أن النظرية الثاوية خلف مختلف العلوم اللغـــوية (الـــنحو، اللغـــة، البلاغة، فقه اللغة...) نظرية تداولية وأنها بالتالي قابلة للتحاور (بمعنى القرض والاقتراض) مع النظريات التداولية الحديثة ومنها نظرية النحو الوظيفي. وسيمكننا عقد الحوار بين الفكر اللغوي العربي القديم والنحو الوظيفي، فضلا عن تمحيص مشروعيته، من تحقيق هدفين اثنين :

-إغناء النحو الوظيفي بتحليلات ومفاهيم يستلزمها وصف الوظائف الخمس[**] في اللغة العربية خاصة، دون أن يمس اقتراض هذه التحليلات والمفاهيم بالمبادئ المعتمدة في النحو الوظيفي أوبنية النحو المقترحة.

- وتقويم مجموعة من الأوصاف المقترحة في النحو العربي أو البلاغة العربية بالنسبة لوظيفة المبتدأ و وظيفة الـــبدل ("والتابع"بصفة أعم) وظواهر(التخصيص) و(الحصر) و(العناية) و(التوكيد)و غيرها.» [4]، وهذه الظواهر الأخيرة هي من أهم الوظائف التواصلية التداولية التي تؤديها البنيات اللغوية.

ويعتـــرف بفضـــل تراثنا العربي كل من اطلع على كنوزه وأسراره، يقول مارتينيه –وهو يجيب عن أسئلة الوعر- :« وأنا أقول إنّ كثيرا من البحوث العربية ساعدت بل ساهمت في بناء ما يسمى علم اللسانيات الحديث» [5]. وبفعل تأثر الشيخ ابن عاشور بالأفذاذ من علماء هذه اللغة نصل إلى أن تحليلاته اللغوية في

(1) انظر: الفصل الأول، ص43، وما بعدها.

(2) مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص43.

(3) انظر: المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص41.

(*) تكشف ذلك أبحاثه ودراساته.

(**) الوظائف التداولية الخمس هي: المبتدأ، المحور، البؤرة، المنادى، الذيل.(انظر: أحمد المتوكل: الوظائف التداولية).

(4) الوظائف التداولية، ص11.

(5) مازن الوعر: دراسات لسانية تطبيقية، ص285.

تفسيره لم تكن بعيدة عن روح الدرس الوظيفي التداولي المعاصر، ولم تكن بعيدة عن كثير من منطلقاته ومبادئه المنهجية، ومما يعكس التشابه في المبادئ المنهجية الوظيفية النماذج التي تعرضنا لها في الفصل الثاني والتي تبين ذلك بوضوح، ونكرر هنا للتمثيل النموذجين الآتيين:

*﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ (البقرة:8) «الجملة الفعلية تدل على الاهتمام بشأن الفعل دون الفاعل فلذلك حكي بها كلامهم لأنهم لما رأوا المسلمين يتطلبون معرفة حصول إيمانهم قالوا آمنّا والجملة الاسمية تدل على الاهتمام بشأن الفاعل أي أن القائلين آمنا لم يقع منهم إيمان فالاهتمام بهم في الفعل المنفي تسجيل لكذبهم وهذا من مواطن الفروق بين الجملتين الفعلية والاسمية، وهو مصدَّق بقاعدة إفادة التقديم الاهتمام مطلقا وإن أهملوا التنبيه على جريان تلك القاعدة عندما ذكروا الفروق بين الجملة الفعلية والاسمية في كتب المعاني وأشار إليه صاحب الكشاف هنا بكلام دقيق الدلالة» [1]، وهاته دعوة للانتباه للجانب الوظيفي للتراكيب وتبعية البنية للوظيفة.

*﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة:من الآية 228) «عطف على الجملة قبلها، لشدة المناسبة، وللاتحاد في الحكم وهو التربّص، إذ كلاهما انتظار لأجل المراجعة، ولذلك لم يقدم قوله(ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ)على قوله (وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ) لأنّ هذه الآي جاءت متناسقة، منتظمة على حسب مناسبات الانتقال على عادة القرآن في إبداع الأحكام، وإلقائها، بأسلوب سهل لا تسأم له النفس، ولا يجيء على صورة التعليم والدرس » [2]، يظهر في هذا الوصف اللغوي للشيخ ابن عاشور أنّه يوضح ما تحقق في هذا التركيب القرآني من كفاية تداولية؛ وذلك بحديثه عن شدة المناسبة بين الجملتين، وما تحقق فيه من كفاية نفسية وذلك بحديثه عن أسلوب الآي؛ وهو الأسلوب السهل الذي لا تسأم له النفس .

5- تعليل الظواهر المبنوية:

يعلّل الاتجاه الوظيفي الظواهر المبنوية انطلاقا من الوظيفة المحددة لها وهي إتاحة التواصل بأيّ شكل من أشكاله المختلفة حسب المقام وحال المخاطبين، هذه الوظيفة التي بدورها تحدد الخصائص المبنوية(الصرفية، التركيبية، المعجمية...) للعبارات اللغوية؛ « فالبنية التركيبية والصرفية تعكس إلى حد بعيد الخصائص المرتبطة بوظيفة التواصل، بحيث يمكن اعتبار بعض مقومات هذه البنية وسائل للتعبير عن الأغراض

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 265/1.

(2) المصدر نفسه، 388/2.

التواصلية التي يسعى المتكلم إلى تحقيقها في طبقات مقامية معينة»[1]، وقريب من هذا ما نجده عند سيبويه، فاللغة عنده لا تنفك عن ملابسات استعمالها؛ فتحلل بنياها وتفسر ظواهرها انطلاقا من معطيات نظامها الداخلـــي، ومـــا تســـتمد به من معطيات السياق الاجتماعي [2]،على خلاف ما كان قد ظهر في القرن الخـــامس الهجري من ضعف اللغة، «وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو، ومدلول الألفـــاظ المفـــردة، والجمل المركبة، والانصراف عن معاني الأساليب ومغازي التركيب، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه» [3]، وكثير هم أولئك الذين يدعون إلى عدم الاشتغال بقوانين النحو وحدوده، والتقـــيد بما تمليه على حساب كشف أسرار اللغة والبيان العالي لأساليبها، فغير بعيد مما دُعي إليه آنفا نجد بـــنت الشاطئ -في معرض حديثها عن حذف أو تقدير جواب الشرط- تقول:« ...وإنما أطلت الوقوف هنا، قصدا إلى التنبيه إلى ما يلقانا في ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم، لم تأت على المقرر من قواعد النحاة وأحكـــام البلاغيين المدرسيين، فيشغلنا عن البيان العالي، تسوية الصنعة النحوية أو البلاغية، بالتأويل فيه والتقدير...» [4].

كما لا يعتمد تعليل الظواهر المبنوية على ما يميزها من خصائص بنوية كترتيب ألفاظها وعباراتها فحسب، بـــل يعـــتمد كـــذلك علـــى مدى تحقيقها للترتيب والقبول في عقل ونفس المخاطِب والمخاطَب؛ يقول الجـــرجاني:« فلو أن واضع اللغة كان قد قال"ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأمـــا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتيب المعـــاني في الـــنفس؛ فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض،...ليس الغرض بنظم الكلم أن تـــوالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. »[5]، وهـــذا ما يعني في نظرية النحو الوظيفي مدى تحقيق الكفايتين التداولية والنفسية. فالجرجاني يراعي مدى اختـــيار الأســـاليب أو البنيات اللغوية الملائمة لتحقيق الوظيفة التواصلية المنوطة بها ويشير إلى هذا بقوله: «واعلم أنّ غرضي في هذا الكلام الذي ابتدأته والأساس الذي وضعته أن أتوصل إلى بيان أمر المعاني كيف

---

(1) المتوكل: اللسانيات الوظيفية، ص65.

(2) انظر: محمد حماسة عبد اللطيف: **النحو والدلالة**، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 2000.ص116.

(3) الجرجاني: أسرار البلاغة، من مقدمة الكتاب للشيخ محمد رشيد رضا، ص -ز-.

(4) عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ :**التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف، مصر، ط4 ، 1982، 30/2.

(5) الدلائل، ص102.

تتّفق وتختلف، ومن أين تجتمع وتفترق، وأفصل أجناسها وأنواعها، وأتتبع خاصها ومشاعها، وأبين أحوالها في كرم منصبها من العقل وتمكنها في نصابه وقرب رحمها منه أو بعدها حين تنسب عنه...»[1]، والشيخ ابـــن عاشور يراعي كل هذا في تحليلاته اللغوية، فنجده يعلل الظواهر المبنوية لعبارات اللغة وجملها ويخرج كـــنوز اللغة ويكشف عن أسرارها بالنظر إلى وظائفها، وظروف إنتاجها، وللتمثيل على ذلك أخذنا من تفسيره النماذج الآتية:

*﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ (البقرة: 37) «جـــاء بالفاء إيـــذانا بمبادرة آدم بطلب العفو. والتّلقي استقبال إكرام ومسرة، قال تعالىَ:﴿ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ (الأنبياء: من الآية103) ووجه دلالته على ذلك أنه صيغة تَفَعَّلَ من لقيه وهي دالة على التكلف لحصوله وتطلبه وإنما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب بخلاف لاقى فلا يدل على كون الملاقى محبوبا» [2].

*﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (البقرة: 63) «وضـــمائر الخطـــاب لتحمـــيل الخلف تبعات السلف كيلا يقعوا في مثلها وليستغفروا لأسلافهم عنها » [3].

*﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (البقـرة: مـن الآيـة167) «وعـــدل عن الجملة الفعلية بأن يقال (وما يخرجون) إلى الاسمية للدلالة على أن هذا الحكم ثابت أنه من صفاتهم، وليس لتقديم المسند إليه هنا نكتة، إلا أنه الأصل في التعبير بالجملة الاسمية في مثل هذا إذ لا تتأتى بســـوى هذا التقديم، فليس في التقديم دلالة على اختصاص لما علمت ولأن التقديم على المسند المشتق لا يفـــيد الاختصاص عند جمهور أئمة المعاني، بل الاختصاص مفروض في تقديمه على المسند الفعلي خاصة، ولأجل ذلك صرح صاحب الكشاف تبعا للشيخ عبد القاهر بأن موقع الضمير هنا كموقعه في قول المعذل البكري : هم يفرشون اللبد كل طمرة وأجرد سبّـــاق يبذ المغاليا

(1) الأسرار، ص19.

(2) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/437.

(3) المصدر نفسه، 1/ 541، 542.

في دلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص اهـ.

وادعى صاحب المفتاح أن تقديم المسند إليه على المسند المشتق قد يفيد الاختصاص كقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾(هود: 91) »[1].

*﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ (البقرة:من الآية177) « وتعريف (والكتاب) تعريف الجنس المفيد للاستغراق أي آمن بكتب الله مثل التوراة والإنجيل والقرآن، ووجه التعبير بصيغة المفرد أنها أخف مع عدم التباس التعريف بأن يكون للعهد؛ لأن عطف النبيين على الكتاب قرينة على أن اللام في الكتاب للاستغراق فأوثرت صيغة المفرد طلبا لخفة اللفظ... والذي ينبغي اعتماده أن استغراق المفرد والجمع في المعرف باللام وفي المنفي بلا التبرئة سواء، وإنما يختلف تعبير أهل اللسان مرة بصيغة الإفراد ومرة بصيغة الجمع تبعا لحكاية الصورة المستحضرة في ذهن المتكلم والمناسبة لمقام الكلام... »[2].

6 – الإفادة من العلوم اللغوية في التحليل والتفسير:

اللغة ظاهرة اجتماعية لا يخلو منها مجال من مجالات الحياة، مما يؤكد أنه لامناص من أن تتصل بعلوم هذه المجالات، وتحقق وظيفتها الأساسية وهي عملية الإبلاغ في صلب المجتمع بكل مقوماته الثقافية والحضارية، ولا يمكن فصل علوم اللغة بعضها عن بعض ولا عن باقي العلوم الأخرى، وتماشيا مع هذا نجد الشيخ ابن عاشور يأخذ من كل فن لغوي –وغير لغوي أحيانا– ويفيد به القارئ والمستبصر فيتطرق في تفسيره لقضايا لغوية في الدلالة والمعجم وفي البلاغة، وفي النحو، وفي الصرف وفي علم الأصول، وقضايا متعلقة بعلوم أخرى منشورة في كل أجزاء التفسير، وتجنبا للإطالة نركّز في بحثنا هذا على قليل مما هو متعلق بعلوم اللغة.

وطبيعة اللغة تفرض قيام الاتصال بين علم اللغة والعلوم الأخرى، ثم « إنّ الدعوة إلى (استقلال) علم اللغة، و(شكليته) أثبتت عجزها عن فهم (طبيعة) اللغة فهما صحيحا، ولا مناص من الاعتراف بضرورة الاستعانة بعدد من العلوم استعانة أساسية، وبخاصة علم النفس والرياضة والفلسفة والنقد الأدبي. وقد يكون مفيدا أن نؤكد مرة أخرى أنّ كبار اللغويين كانوا يصدرون عن تأثر بعلماء من ميادين أخرى،

(1) المصدر السابق، 100/2، 101.

(2) نفسه، 129/2، 130.

تأثر سوسير بدوركايم، وتأثر سابير بفرانز بوعز، وتأثر بلومفيلد بالسلوكيين، وتأثر شومسكي بديكارت والعقلـــيين. وهذه الظاهرة كافية في الدلالة على (صحة) الاتجاه العربي القديم حين اتصل بالفقه و الكلام والمنطق وعلوم العصر على العموم.» [1].

والنص الذي يتناوله ابن عاشور بالدراسة والتحليل وهو النص القرآني نص اجتماعي نزل في بيئة ومجتمع عربيين أبهر ببيانه علماء اللغة فأخذوا منه الكثير من شواهد لغتهم، وعليه اعتمدوا في وضع قواعدهم ولذا نشـــأت كـــل العلوم اللغوية العربية في كنف القرآن الكريم وفي مناخه الفكري العربي الإسلامي، يقول د.عـــبده الراجحـــي:« إنّ النحو العربي كان صورة صحيحة للمناخ الفكري العام في الحياة الإسلامية، وبخاصة في مراحل النشأة.» [2].

وكـــل العلوم اللغوية تسعى جاهدة إلى توضيح معانيه وتفسير ظواهره وهذا هو الذي جعلها متكاملة لا يمكن فصلها، تشترك في دراسة نص واحد وهو النص القرآني، ويرى أحد الباحثين أنّ ظاهرة التكامل هذه تحمل مدلولين [3]:

- شمولية القرآن الكريم مما جعل آليات قراءته وفهمه متعدّدة متضافرة.
- أنّ "الوظيفـــية العربية" لا يرى وجهها الأنصع، ولا تدرك حقيقتها، إلا إذا نظر إليها في إطارها الثقافي العام ونسقها الكلي الجامع لشتى العلوم العربية/الإسلامية.

وما دامت الوظيفية لا تفصل الكلام عن مقام إنتاجه وحال المتكلم/المستمع أثناء الاتصال؛ فالمتكلم يختار مـــن البِنيات والتراكيب الدقيقة دلاليا والسليمة نحويا ما يناسب نفسية من يخاطب ومقام الحديث وبهذا يكون الكلام مؤثرا ويتحقق ما تفرضه البلاغة التي هي « العمدة في الإيصال على اختلاف أنواعه وأشكاله مشـــافهة وتحريرا، نثرا أم شعرا، في مقام انقباض أو مقام أنس، ففي كل هذه المستويات البلاغة موجودة لأن المعبر يتحتم عليه أن يختار العبارة التي تناسب المقام وتستجيب لحال الحديث » [4]، كما لا يخفى أن لـــلأدب العـــربي القديم وخاصة الشعر الجاهلي أهمية كبيرة في توضيح معاني القرآن الكريم؛ وذلك لكونه متزلا بلغة العرب ويراعي سجاياهم وبيئاتهم واختار الله سبحانه وتعالى لغتهم لتكون لغة لكتابه؛ « لأنها

(1) عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث، ص161.

(2) المرجع نفسه، ص159.

(3) انظر: مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص43.

(4) الحاج صالح: الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، ص26.

أصــلح اللغــات، جمــع معان، وإيجاز عبارة وسهولة على جري الألسن وسرعة حفظ وجمال وقع على الأسمــاع»[1]، ومــا يدل على أنّ الشيخ ابن عاشور يفيد من كلّ علوم اللغة في تفسيره كثير، ونكتفي بالنماذج الآتية :

*﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (البقرة: من الآية25) «...وقــوله(مُّطَهَّرَةٌ)هو بزنة الإفــراد ولكــن العرب تعدل عن الجمع مع التأنيث كثيرا لثقلهما لأن التأنيث خلاف المألوف والجمع كــذلك فإذا اجتمعا تفادوا عن الجمع بالإفراد »[2]، نجده هنا قد علّل الظاهرة اللغوية صرفيا، انطلاقا من أصول العرب في كلامها.

*﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (البقرة: من الآية128) «حــق رأى أن يــتعدى إلى مفعــول واحد...فإذا دخل عليه همز التعدية تعدى إلى مفعولين، وأما تعدية أرى إلى ثلاثة مفاعــيل فهو خلاف الأصل وهو استعمال خاص...وكذلك فعل علم وأخواته من باب ظن كله ومثله بــاب كان وأخواتها، ألا ترى أنك لو عدلت عن المفعول الثاني في باب ظن أو عن الخبر في باب كان إلى الإتــيان بمصدر في موضع الاسم في أفعال هذين البابين لاستغنيت عن الخبر و المفعول الثاني فتقول كان حضــور فلان؛ أي حصل وعلمت بمجيء صاحبك وظننت طلوع الشمس...وبهذا يتبين أن الصواب أن يعــد الخبر في باب كان والمفعول الثاني في باب ظن أحوالا لازمة لتمام الفائدة وأنّ إطلاق اسم الخبر أو المفعول على ذلك تسامح وعبارة قديمة »[3]، يقر الشيخ هنا قاعدة نحوية ما شاعت عند علماء النحو.

*﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ﴾ (البقرة:من الآية135) «ووجه الحصر حاصل من جزم تهتدوا في جــواب الأمر فإنه على تقدير شرط فيفيد مفهوم الشرط أن من لم يكن يهوديا لا يراه اليهود مهتديا ومن لم يكن نصرانيا لا يراه النصارى مهتديا أي نفوا الهدى عن متبع ملة إبراهيم وهذا غاية غرورهم»[4]، جمع الشيخ هنا بين النحو والدلالة.

---

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 187/13.

(2) المصدر نفسه، 357/1.

(3) نفسه، 722/1.

(4) نفسه، 736/1.

*﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (البقرة: 163) «والإخبار عن إلهكم بإله تكرير ليجرى عليه الوصف بواحد والمقصود وإلهكم واحد لكنه وسط لفظ إله بين المبتدأ والخبر لتقرير معنى الألوهية في المخبر عنه كما تقول عالم المدينة عالم فائق، وليجيء ما كان أصله خبرا مجيء النعت فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف لأنه صار نعتا إذ أصل النعت أن يكون وصفا ثابتا وأصل الخبر أن يكون وصفا حادثا، وهذا استعمال متبع في فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى عليه وصف أو متعلق كقوله إلها واحدا »[1]، هنا مَزْج بين البلاغة والنحو والعقائد.

*﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ﴾ (البقرة:من الآية189) « و(اتقى) فعل منزل منزلة اللازم، لأن المراد به من اتصف بالتقوى الشرعية بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات. »[2]، مزج هذا التحليل بين النحو وقواعد شرعية.

*﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ ﴾(البقرة:244) « وقدم وصف سميع، وهو أخص من عليم، اهتماما به هنا لأن معظم أحوال القتال في سبيل الله من الأمور المسموعة، مثل جلبة الجيش، وقعقعة السلاح، وصهيل الخيل .»[3]، مزَج الشيخ هنا بين البلاغة وعلم المعاجم.

7- إبراز مغازي التراكيب وأسرار الأساليب:

يسعى الشيخ ابن عاشور إلى إبراز ما يخفى على القارئ غير المتخصص أو حتى المتخصص أحيانا من معاني الكثير من التراكيب اللغوية وما وراء رسم حروفها، وهذا الذي خفيَ قد يكون هو الغاية من توظيف هذه التراكيب في هذا المقام أو ذاك، وهو الذي أريد به الإفصاح والبيان عن غرض المتكلم ومقصده، هذا البيان الذي هو وظيفة اللغة منذ نشأتها، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾(الرحمن3، 4). ومما يساهم في توضيح معاني تراكيب اللغة مقامات استعمالها وظروف إنتاجها، فقد يرتبط فهم الكلام وتفسيره وتأثيره بنوع النشاط الذي يمارسه الإنسان في حياته اليومية، ففهم الآيات: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾(سورة الغاشية:17-20) من الطبيعي أن يختلف بين "أهل المدر"،

---

(1) المصدر السابق، 2/ 74، 75.

(2) نفسه، 198/2.

(3) نفسه، 480/2.

و"أهل الوبر" ، فقد يتساءل الأول ما علاقة الإبل بالسّماء والجبال والأرض ولكن لا يصعب فهمها عند الـثاني بل يتمثلها خياله ربما بعد تلقيها مباشرة وذلك لكونها ارتبطت بمصدر رزقه وسبيل عيشه اليومي فمطعمـه وملبسه ومشربه من المواشي، « ولذا يصرفون عنايتهم إلى أكثرها نفعا وهي الإبل، ثم إذا كان انـتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر، وأهم مسارح النظر عندهم السماء، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم، وإلى حصن يتحصنون فيه، ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال، فما ظنك التفات خاطرهم إليها إذا تعذر مكثهم في مترل، ومن لأصحاب مواش بذلك، كان عقـد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور »[1]؛ فالبدوي لا يستغرب هذا العد، ولا هذا الترتيب؛ لأن صور هذه المخلوقات ملازمة لعينيه وعالقة بخياله، وعلى العكس من ذلك المدري، لذا فإنه يظن هذا النسق والترتيب معيبا [2]، فالسكاكي بتحليله هذا وتوضيحه للوظيفة التي أدتها الآيات وهي بهذا الشكل والترتيب يكون قد كشف لنا عمّا قد يغيب عن أفهامنا ولا ندرك مغزاه، ومن النماذج التي يبرز فيها الشيخ ابن عاشور بعض أسرار التراكيب نقتصر على:

*﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَـٰرِهِمۡ غِشَـٰوَةٞۖ ﴾ (البقرة: من الآية7) «وفي تقـديم السمع علـى البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر، فإن التقديم مؤذن بأهمية المقـدم وذلك لأنّ السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع...» [3].

*﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ (البقرة:170) « وإنمـا خـص هذا النوع بحرفي (إن – ولو) في كلام العـرب لدلالتهما على ندرة حصول الشرط أو امتناعه، إلا أنه إذا كان ذلك الشرط نادر الحصول جاءوا معه بإنْ ...،وإذا كان ممتنع الحصول في نفس الأمر جاءوا معه بلو كما في هذه الآية، وربما أتوا بلو لشرط شديد الندرة، للدلالة على أنه قريب من الممتنع، فيكون استعمال لو معه مجازا مرسلا تبعيا ... » [4].

---

(1) السكاكي: مفتاح العلوم، ص257.

(2) انظر: محمد خطابي: **لسانيات النص** ، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت،1991، ص122.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 258/1.

(4) المصدر نفسه، 109/2.

*﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ ﴾ (البقرة: 210) « وحـــرف(هل) مفيد للاستفهام ومفيد التحقيق ويظهر أنه موضوع للاستفهام عـــن أمر يراد تحقيقه، فلذلك قال أئمة المعاني إنّ هل لطلب تحصيل نسبة حكمية تحصل في علم المستفهم وقال الزمخشري في الكشاف: إنّ أصل هل أنّها مرادفة قد في الاستفهام خاصة.» [1].

8- إجلاء الحقيقة الكامنة أمام المشككين:

تتّســـع اللغة للتعبير عن كل المقاصد والأغراض سواء كانت تدعو للإيمان أو للكفر وقد يحاول بعض دعـــاة الكفر والإلحاد تغييب المقصد الحقيقي لبعض الآيات والتشكيك في المعنى الذي تهدف إلى ترسيخه أو الـــدفاع عنه...والشيخ هنا يكشف عن سوء صنيعهم وتلبيسهم...وقد لا يتأتى ذلك إلا بالكشف عن صـــور البيان ووجوه الإعجاز البلاغي فيه، « من حيث إنّ الكشف عن وجوه الإعجاز البلاغي للقرآن يؤول في كثير من الأحيان إلى تفسير بياني لبعض آياته، كما كان الدافع في بعض من الحالات رد مزاعم الطاعـــنين، وجلاء الحقيقة أمام المشككين الذين دقت على أفهامهم أسرار بيانه، وخفيت عليهم لطائف نظمه»[2]، وهاهي ذي نماذج من تفسير الشيخ ابن عاشور توضح ذلك:

*﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (البقرة: 51، 52)« وعطفـــت جملة(ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ)من بعده بحرف ثم الذي هو في عطف الجمل للتراخي الترتيـــبي للإشارة إلى ترتيب في درجات عظم هذه الأحوال وعطف (ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ) أيضا لتراخي مرتبة العفو العظيم عن عظم جرمهم فروعي في هذا التراخي أنّ ما تضمنته هذه الجمل عظائم أمور في الخير وضده تنبيها على عظم سعة رحمة الله بهم قبل المعصية وبعدها » [3].

*﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ (البقرة:من الآية75)«والـــلام في قـــوله(لَكُمْ) لتضمين يؤمنوا معنى يقرّوا وكأنّ فيه تلميحا إلى أنّ إيمانهم بصدق الرّسول حاصل ولكنهم يكابرون ويجحدون على نحو قوله تعـــالى:

---

(1) المصدر السابق، 2/ 282.

(2) شفيع السيد: البحث البلاغي عند العرب، ص49.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 1/499.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ ﴾الآية(البقرة:من الآية: 146)فما أبدع نسج القرآن»[1]

*﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (البقرة: 81) «والقصر المستفاد من التعريف في قوله(فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ)قصر إضافي لقلب اعتقادهم »[2].

*﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (البقرة: من الآية87) « وقدم الظرف ليكون مواليا للاستفهام المراد منه التعجيب ليظهر أن محل التعجب هو استمرار ذلك منهم الدال على أنه سجية لهم وليس ذلك لعارض عرض في بعض الرسل وفي بعض الأزمنة والتقدير أفاستكبرتم كلما جاءكم رسول فقدم الظرف للاهتمام لأنه محل العجب »[3].

*﴿ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ ﴾ (البقرة: من الآية137) «وجاء الشرط هنا بحرف إنْ المفيدة للشك في حصول شرطها إيذانا بأن إيمانهم غير مرجو »[4].

*﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (البقرة:138) «...وفي تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله له عابدون إفادة قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعبودية لكنّهم عبدوا المسيح »[5].

*﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (البقرة:171) «وإنما عطفه بالواو هنا ولم يفصله كما فصل قوله (مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا) (البقرة:من الآية17) لأنه أريد هنا جعل هذه صفة مستقلة لهم في تلقي دعوة الإسلام ولو لم يعطفه

---

(1) المصدر السابق، 567/1.

(2) نفسه، 581/1.

(3) نفسه، 598/1 .

(4) نفسه، 741/1.

(5) نفسه، 745/1.

لما صحّ ذلك .» [1].

*﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾ البقـــرة: 175) «...وإن جعلـــته مبـــتدأ مستقلا مع جملته فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان سبب انغماسهم في عـــذاب الـــنار، لأنه وعيد عظيم جدا يستوجب أن يسأل عنه السائل فيبين بأهم أخذوا الضلال ونبذوا الهدى واختاروا العذاب ونبذوا المغفرة، ومجيء المسند إليه حينئذ اسم إشارة لتفظيع حالهم؛ لأنه يشير لهم بوصفهم السابق وهو كتمان ما أنزل الله من الكتاب.» [2].

*﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ (البقرة:من الآية209)

« وجيء في الشرط بإنْ لندرة حصول هذا الزلل من الذين آمنوا أو لعدم رغبة المتكلم في حصوله إن كان الخطاب لمن آمن بظاهره دون قلبه.» [3].

*﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَـٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ ﴾ (البقرة:210، 211) « وعلـــى احتمال أن يكون الضمير في(يَنظُرُون) لأهل الكتاب: أي بني إسرائيل فالعدول على الإضمار هنا إلى الإظهار بقوله "بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ "لزيادة النداء على فضـــيحة حالهم ويكون الاستدلال عليهم حينئذ أشد: أي هم قد رأوا آيات كثيرة فكان المناسب لهم أن يبادروا بالإيمان بالرسول محمد ﷺ،لأنهم أعلم الناس بأحوال الرسل.» [4].

9- إظهار لطائف نظم القرآن ونكته :

القرآن محكم البناء اختيارا وترتيبا وعدّا كل ذلك جاء قصدا لمعنى وتأدية لوظيفة تواصلية معينة والمتتبع لتفسير التحرير والتنوير يجد أنّ الشيخ ابن عاشور قد تعرض لنكت ولطائف لم نجدها عند غيره، والقرآن لم تحصر معانيه بل يُتوصل إليها وتستنبط حسب تفكير وثقافة المستمع وإلاّ كُشفت أسراره وقُتل جانب

---

(1) المصدر السابق، 111/2.

(2) نفسه، 125/2.

(3) نفسه، 280/2.

(4) نفسه، 288/2.

التجديد فيه وبهذا لا يصلح للزمن القادم،« ومن بلاغة القرآن صلوحية آياته لمعان كثيرة يفرضها السامع.» [1]، ومن لطائف نظم القرآن ونكته عند ابن عاشور ما وجدناه في تفسير الآيات الآتية:

*﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (البقرة: 88)«ففيه التفات من الخطاب إلى الغيبة وإبعاد لهم عن مقام الحضور فهو من الالتفات الذي نكتته أن ما أجري على المخاطب من صفات النقص والفظاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه.» [2].

*﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (البقرة:173) «...ولما كان القصر هنا حقيقيا لأنّ المخاطب به هم المؤمنون وهم لا يعتقدون خلاف ما يشرع لهم لم يكن في هذا القصر قلب اعتقاد أحد وإنما حصل الرد به على المشركين بطريقة التعريض ..» [3].

*﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ﴾ (البقرة:من الآية177) « وتعريف (وَٱلۡكِتَٰبِ) تعريف الجنس المفيد للاستغراق أي آمن بكتب الله مثل التوراة والإنجيل والقرآن، ووجه التعبير بصيغة المفرد أنها أخف مع عدم التباس التعريف بأن يكون للعهد؛ لأن عطف النبيين على الكتاب قرينة على أنّ اللام في الكتاب للاستغراق فأوثرت صيغة المفرد طلبا لخفة اللفظ.» [4].

*﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾ (البقرة:من الآية 178)« (واتباع) (وأداء) مصدران وقعا عوضا عن فعلين والتقدير: فليتبع اتباعا وليؤدِّ أداءً فعدل عن أن ينصب على المفعولية المطلقة إلى الرفع لإفادة معنى الثبات والتحقيق الحاصل بالجملة الاسمية...فنظم الكلام: فاتباع

---

(1) المصدر السابق، 112/2.

(2) نفسه، 599/1.

(3) نفسه، 115/2.

(4) نفسه، 129/2، 130.

حاصل ممن عفي له من أخيه شيء، وأداء حاصل من أخيه إليه.» [1].

*﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة:من الآية 228) «عطف على الجملة قبلها، لشدة المناسبة، وللاتحاد في الحكم وهو التربص، إذ كلاهما انتظار لأجل المراجعة، ولذلك لم يقدم قوله﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ (البقرة:من الآية229) على قوله "وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ" لأنّ هذه الآي جاءت متناسقة، منتظمة على حسب مناسبات الانتقال على عادة القرآن في إبداع الأحكام، وإلقائها، بأسلوب سهل لا تسأم له النفس، ولا يجيء على صورة التعليم والدرس.» [2].

*﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ﴾(البقرة:من الآية246) « وقوله:(هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ) الآيــة، استفهام تقريري وتحذير، فقوله:(أَلَّا تُقَٰتِلُواْ)، مستفهم عنه بهل وخبر لعسى متوقع، ودليل على جواب الشرط(إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ) وهذا من أبدع الإيجاز ... فجملة:(أَلَّا تُقَٰتِلُواْ)يتنازع معناها كل من هل وعسى وإنْ، وأعطيت لعسى، فلذلك قرنت بأنْ»[3].

*﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾(البقرة:من الآية282) «ولإظهــار اسم الجلالة نكتة أخرى وهي التهويل. وللتكرير مواقع يحسن فيها، ومواقع لا يحسن فيها»[4].

10- اهتمامه بالجانب التداولي للتراكيب:

نقصد بالتداول كما ذكرنا سابقا التفاعل الذي تحدثه العبارة أو الجملة تجاه منتجها، ويهتم الشيخ ابن عاشــور بإبراز هذا التفاعل كثيرا وفي أغلب تحليلاته في تفسيره، فهو يربط العبارات بمقام إنتاجها ووضع المنتج والمتلقي أثناء الإنتاج، يقول المتوكل: «ومما يؤكد تداولية معرفية المبتدأ أن إحالته مرتبطة بالمقام، أو علــى وجــه الــتحديد بما سميناه بــ"الوضع التخابري" بين المتكلم والمخاطب، أي بالقدرة من "المعرفة المشاركة" الذي يتقاسمانه. فنفس العبارة تكون كافية إحاليا في وضع تخابري وتكون غير كافية إحاليا في

(1) المصدر السابق،141/2، 142.

(2) نفسه، 388/2.

(3) نفسه، 485/2.

(4) نفسه، 118/3.

وضـــع تخابري آخر.» [1].ومما يحقّق الكفاية التداولية أيضا فصاحة اللسان، وذلك لما تحققه من تأثير على المســـتمعين، وتبليغ للمراد، ولهذا عُدّ الذي لا يقدر على النطق الجيد والأداء السليم ليس بفصيح كل هذا كان دافعا لسيدنا موسى عليه السلام -وقد أُمر بتبليغ رسالته إلى قومه- إلى أن يدعو الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ ﴾(طه:27، 28).

والقرآن الكريم ذاته ذو طابع تداولي، وتتجلى تداوليته في [2]:

1- تنوع تراكيبه وأساليبه بحسب أحوال المخاطبين: بين مؤمن به، وبين شاك متردّد، وبين كافر لا يرجى منه إيمان، ومعاند يرجى رجوعه عن عناده...

2- انفتاحه على الوقائع الحياتية؛ لأنّه نزل في معترك الأحداث...ولهذا أثر على جماعة من السلف وجوب معرفة أسباب النزول على المفسر.

3- نزولـــه في بيئة عربية، ذات نظـــام قبلي له أنماط اجتماعية خاصة ومستوى معيّن من التفكير، فلا بدّ لدارس القرآن الكريم من الاطلاع على واقع العرب ونظام تفكيرهم.

ومن الأمثلة التي تبدي اهتمام الشيخ ابن عاشور بالجانب التداولي في القرآن الكريم سجلنا ما يأتي:

*﴿ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ (البقرة:من الآية57) «وقولـــه (كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ) مقول قول محذوف لأنّ المخاطبين حين نزول القرآن لم يؤمروا بذلك فدل على أنه من بقية الخبر عن أسلافهم » [3].

*﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: من الآية165) «فالفاعل المحذوف حذف هنا لقصد التعميم أي كيفما قدرت حب محب لله فحب هؤلاء أندادهم مساو لذلك الحب، ووجه هذا التعميم أن أحوال المشركين مختلفة، فمنهم من يعبد الأنداد من الأصنام أو الجن أو الكواكب ويعترف بوجود الله ويسوي بين الأنداد وبينه، ويسميهم شركاء أو أبناء لله تعالى، ومنهم من يجعل لله تعالى الإلهية الكبرى ويجعل الأنداد شفعاء

---

(1) أحمد المتوكل: المبتدأ في اللغة العربية نحو وصف وظيفي- تداولي، ص101.

(2) انظر: مسعود صحراوي: "المنحى الوظيفي "في التراث اللغوي العربي، ص39 وما بعدها.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 510/1.

إلـــيه، ومــــنهم مــــن يقتصــــر علـــى عبادة الأنداد وينسى الله تعالى قال تعالى: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ ﴾(الحشر: من الآية19) ، ومن هؤلاء صابئة العرب الذين عبدوا الكواكب» [1].

*﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾(البقرة:170) «وقوله: أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَهۡتَدُونَ) كلام من جانب آخر للرد على قولهم نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإن المتكلم لما حكاه عنهم رد قـــولهم هذا باستفهام يقصد منه الرد ثم التعجيب، فالهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجيب إيماء، والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي.» [2].

*﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ﴾(البقـرة: 175) «...وإن جعلـــته مبـــتدأ مستقلا مع جملته فالجملة مستأنفة استئنافا بيانيا لبيان سبب انغماسهم في عـــذاب الـــنار، لأنه وعيد عظيم جدا يستوجب أن يسأل عنه السائل فيبين بأنهم أخذوا الضلال ونبذوا الهدى واختاروا العذاب ونبذوا المغفرة، ومجيء المسند إليه حينئذ اسم إشارة لتفظيع حالهم؛ لأنه يشير لهم بوصفهم السابق وهو كتمان ما أنزل الله من الكتاب.» [3].

*﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَـٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ ﴾(البقرة: من الآية209)

« وجيء في الشرط بإنْ لندرة حصول هذا الزلل من الذين آمنوا أو لعدم رغبة المتكلم في حصوله إن كان الخطـــاب لمـــن آمن بظاهره دون قلبه ... وذكر الطيبي عن الأصمعي قال كنت أقرأ :والسارق والسارقة فاقطعـــوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله غفور رحيم، بجنبي أعرابي فقال كلام من هذا ؟فقلت كلام الله ..قال: ليس هذا كلام الله فانتبهت فقرأت﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾(المائدة: من الآية38) فقال أصبت هـــذا كـــلام الله فقلت أتقرأ القرآن؟ قال لا. قلت من أين علمت؟ قال يا هذا عز فحكم فقطع ولو غفر ورحم لما قطع.» [4].

(1) المصدر السابق، 91/2 .

(2) نفسه، 106/2.

(3) نفسه، 125/2.

(4) نفسه، 280/2، 281.

11- اعتناؤه بالواقع النّفسي للخطاب:

راعى الشيخ ابن عاشور في تحليله اللغوي لآيات القرآن الكريم كوامن النفس وانطباعها سواء بالنسبة للقارئ لكتاب الله أو بالنسبة لمستمعه لحظة تلقيه له، وفهمه إياه أو تأثّره النفسي به. وهو يرى أن اللغة ظاهرة إنسانية ترتقي بالارتقاء الحضاري لأهلها وتتماشى مع مستوى عقولهم وفكرهم النفساني [1].

ونجد الجرجاني يحدثنا عن تأثير التمثيل النفسي في المتلقي ويوضح علل وأسباب هذا التأثير بقوله: « فأول ذلك وأظهره أنّ أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكنى، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام.»[2]، فالكلام البليغ عنده ما كان له وقْع في أنفس وأذهان الآخرين. ومما يُرى فيه اهتمام ابن عاشور بالواقع النفسي[*] للبلاغ اللغوي ما لمسناه في تفسيره للآيات التالية:

*﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾(البقرة:من الآيتين 14، 15) «...ولأجل اعتبار الاستئناف قدم اسم الله تعالى على الخبر الفعلي، و لم يقل(يستهزئ الله بهم) لأنّ مما يجول في خاطر السائل أن يقول: من الذي يتولى مقابلة سوء صنيعهم؟ فاعلم أنّ الذي يتولى ذلك ربّ العزة تعالى، وفي ذلك تنويه بشأن المنتصر لهم وهم المؤمنون، كما قال تعالى:﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾(الحج:من الآية38) »[3].

*﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾(البقرة: من الآية22) « وابتدأ بالأرض لأنّها أوّل ما يخطر

---

(1) انظر: محمد الطاهر ابن عاشور: **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق ودراسة محمد الطاهر ميساوي، دار النفائس، الأردن ،ط2 ،2001، ص72، 73 .

(2) أسرار البلاغة، ص102.

(*) نشير هنا إلى أننا نجد بعض التداخل بين واقعي الخطاب النفسي والتداولي لكون كل منهما ينطلق من مقام الخطاب وملابساته.

(3) ابن عاشور: التحرير والتنوير، 293/1.

ببال المعتبر ...» [1].

*﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ (البقرة: من الآية35) «...ونداء آدم قبل تخويله سكنى الجنة نداء تنويه بذكر اسمه بين الملأ الأعلى، وضمير أنت واقع لأجل عطف وزوجك على الضمير المستتر في اسكن يقصدون بذلك زيادة إيضاح المعطوف فتحصل فائدة تقرير مدلول المعطوف لئلا يكون تابعه المعطوف عليه أبرز منه في الكلام » [2].

*﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾ (البقرة: من الآية61) «والتعبير بلن المفيدة لتأبيد النفي في اللغة العربية لأداء معنى كلامهم المحكي هنا في شدة الضجر وبلوغ الكراهية منهم حدها الذي لا طاقة عنده »[3].

*﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ ﴾ (البقرة: من الآية212) «وجيء في فعل التزيين بصيغة الماضي وفي فعل السخرية بصيغة المضارع قضاء لحق الدلالة على أنّ معنى فعل التزيين أمر مستقر فيهم؛ لأن الماضي يدل على التحقق، وأن معنى يسخرون متكرر متجدد منهم؛ لأن المضارع يفيد التجدد، ويعلم السامع أن ما هو محقق بين الفعلين هو أيضا مستمر؛ لأن الشيء الراسخ في النفس لا تفتر عن تكريره، ويعلم أن ما كان مستمرا هو أيضا محقق؛ لأنّ الفعل لا يستمر إلا و قد تمكن من نفس فاعله وسكنت إليه.» [4].

*﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة: من الآية247) « وتأكيد الخبر بإنَّ: إيذان بأن من شأن هذا الخبر أن يتلقى بالاستغراب والشّك، كما أنبأ عنه قولهم (أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا).» [5].

---

(1) المصدر السابق، 333/1.

(2) نفسه، 428/1 .

(3) نفسه، 522/1.

(4) نفسه، 296/2.

(5) نفسه، 489/2.

*﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤ ﴾(البقرة:من الآية 284) « وعطف قوله (وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ)بالــواو دون الفاء للدلالة على أن الحكم الذي تضمنه مقصود بالذات، وأن ما قبله كالتمهيد له »[1].

(1) المصدر السابق، 130/3.

الخاتمة

لكل جهد ثمرة، وثمرة جهدي هذا أن استفدت معرفة مبادئ ومنطلقات الاتجاه الوظيفي عامة ومبادئ النحو الوظيفي خاصة، ومما زاد من ترسيخ إقراري بأهم هذه المبادئ أن رأيتها حية مطبقة في تفسير الشيخ ابن عاشور، وفي كل التراث العربي وخصوصا من أخذ عنهم وتأثر بهم من الحذاق من علماء هذه اللغة، كما أني بواسطة هذا العمل العلمي المتواضع اطلعت على كثير من كنوز اللغة العربية، في كل علومها(النحو، البلاغة، التفسير، علم الأصول ، المعجم، علم الأصوات...)ووصلت إلى حقيقة مفادها أن ما احتوته لا يزال مغيّبا يناشد من هجروه من أبناء هذه اللغة الإحياءَ والبعث من جديد ومن هذه الكنوز السِّفر العظيم "تفسير التحرير والتنوير"ذو المنحى الوظيفي العربي الذي لا يفصل الخطاب عن مقامه ويرى البنية انعكاسا لوظيفتها في تحقيق التواصل، كما يهتم بطرفي الخطاب وما يقوم بينهما من علاقات، هذا المنحى الذي كان قد أسّس بنيانه الإمام الجرجاني وتلاه السكاكي، ثم من تبعهم على نهجهم من علماء البلاغة والأصول. ولست مبالغا إنْ نصحت لطلبة العلم وباحثي اللغة بقراءة هذا التفسير والاستفادة منه واقتناء جواهره، ففيه الأسلوب السهل، والعبارة الموجزة، والفكرة النادرة.

ومن النتائج التي توصلت إليها كذلك من خلال بحثي هذا ما أوجزه فيما يأتي:

1- معرفة أكثر المنطلقات والمبادئ المنهجية للتيارين اللغويين الغربيين المعاصرين الشكلي والوظيفي.

2- الوقوف على كثير من خلفيات المنهج الوظيفي العربي وأبعاده.

3- الاستفادة من المنحى الوظيفي "النحو الوظيفي" في دراسة تراكيب اللغة، ووصف نظامها.

4- الوصول إلى نظرة توضح الدور المنوط بالنحو العربي، والذي لا يجعل منه آلة تقف عند العلم بقوانين وقواعد صارمة لا يجوز تخطيها، بل تجعل منه ميدانا رحبا لدراسة اللغة وتحليل ظواهرها انطلاقا من واقعها وسياقها الحالي.

5- تحديد المنهج الأليق بدراسة تراكيب اللغة العربية، والذي نزعم أنه المنهج الوظيفي كما وصفناه في كل مراحل بحثنا والذي يرفض التعقيد والتجريد والرسوم والحدود.

6- التفريق بين المنهج الوظيفي والمنهج الشكلي من حيث تطبيقهما على تراكيب اللغة(في الوصف والتفسير).

7- الوقوف على المنهج اللغوي للشيخ ابن عاشور في تفسيره، وهو منهج يطبق أكثر المبادئ الوظيفية (مبادئ النحو الوظيفي) وأهمها لا كلها، فلا نجده يسعى إلى تحقيق الكفاية النمطية، ولا نلمس عنده تجريدا وصورنة كاستعمال الرموز الرياضية وقواعد المنطق مثلما هو عند أصحاب نظرية النحو الوظيفي، ويظل عائقا تواصليا، يعتبره بعضهم عيبا في هذا المنهج.

8- ضبط بعض السمات الوظيفية عند ابن عاشور.

9- استنتاج بعض سمات وملامح من ينحو المنحى الوظيفي في وصف اللغة وتحليل تراكيبها وكشف أسرارها وتفسير ظواهرها.

10- التأكيد على الصلة والتكامل بين النحو والبلاغة، وتخطئة من يفصل بينهما.

11- محاولة اكتشاف وكشف التكامل بين فروع المعرفة اللغوية العربية(النحو، البلاغة، علم أصول الفقه، التفسير...).

12- استثمار ما وصل إليه البحث اللّساني العربي عامة في مجال تحليل تراكيب اللغة.

هذا ولا نبغي ببحثنا تعصير التراث انبهارا بأفكار غيرنا أو انسلاخا من جلدتنا وذلك بخروجنا عن أصالتنا، بل نريد به بعثا وإحياء يقرّ انتماءه الحضاري ويقدر خصوصياته الابستيمولوجية والمنهجية، كما نريد تيسيرا وتجديدا يستجيب لمتطلبات التطور الحضاري والتواصل الفكري لكي لا نبقى على هامش الطريق، ولا نساير ركب الأمم.

وفي الأخير أرجو أن أكون قد قدمت ولو قليلا، وأن تكون عثراتي سبيلا لنهوضي، وأن ألقى المباركة والتشجيع لأواصل هذا المشروع وأحقق ما يرضي أساتذتي ويفيد مُحِبي لغتي، ويُفحم المستخفين باللسان العربي.

وأسأل الله العليّ القدير أن يوفقني لإصابة الحق في القول والعمل وأن يجعل أعمالي خالصة لوجهه الكريم.

مَصَادِرُ البَحث وَمَرَاجِعُهُ (*):

أولا : القرآن الكريم ، برواية حفص.

ثانيا : المصادر و المراجع :

أ/ الكتب العربية:

1- أيوب (عبد الرحمن): **دراسات نقدية في النحو العربي**، مطبعة مخيمر، القاهرة، 1957.

2- الآمدي (سيف الدين محمد بن علي): **الإحكام في أصول الأحكام**، تحقيق عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، المجلد1، ط1، 1981.

3 - الأندلسي (أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف ، ت754): **تفسير البحر المحيط**، وبهامشه النهر المـاد من البحر لأبي حيان ، وكتاب الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذه تاج الدين بن مكتوم القيسي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، المجلد1، ط2 ، 1992.

4- الأشقر (محمد سليمان عبد الله): **زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني**، دار الفيحاء، دمشق، دار السلام، الرياض، ط5، 1994.

5- بنت الشاطئ(عائشة عبد الرحمن): **التفسير البياني للقرآن الكريم**، دار المعارف، القاهرة، الجزء 2، ط4، 1982.

6- بعيطيش (يحيى): **النحو العربي بين التعصير والتيسير**، (مقال)، ضمن: أعمال ندوة **تيسير النحو**، تنظيم المجلس الأعلى للغة العربية، المكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر،2001.

7- ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت 392 هـ): **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، المجلد1، 2000.

8- الجرجاني (عبد القاهر ، ت 471 هـ): **أسرار البلاغة في علم البيان**، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت).

9- ـــــــــــ : **دلائل الإعجاز في علم المعاني**، شكله وشرح غامضه وخرج شواهده ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2000.

10- دبة (طيب) : **مبادئ اللسانيات البنوية**، دار القصبة، الجزائر، 2001.

11- دي بوجراند(روبرت): **النص والخطاب والإجراء**، ترجمة:تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998/1418.

(*) اعتمدت الترتيب الأبجدي لأول الأسماء دون مراعاة (ال التعريف) وألفاظ الأب والابن.

12- دك الـــباب (جعفر): **الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني**، مطبعة الجليل، دمشق، سوريا، ط1، 1980.

13- ـــــــــــــ: **النظـــرية اللغـــوية العربية الحديثة**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، ط1، 1996.

14- دلاش (الجيلالي): **مدخل إلى اللسانيات التداولية**، ترجمة:محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992.

15- هيا ثامرمفتاح العلي: **الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومنهجه في تفسيره"التحرير والتنوير"** ،دار الثقافة، الدوحة، قطر،1994.

16 - ابن هشام (أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف، 761هـــ): **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، قدم لـــه ووضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد1، ط1، 1997 .

17- ـــــــــــــ: **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب** ، تحقيق: صلاح عبد العزيز علي السيد، دار السلام، القاهرة، مصر ، المجلد2، ط1، 2004.

18- ـــــــــــــ: **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب**، ضبطه وحققه محمد محمد تامر، وآخران، الزهراء للإعلام العربي، 2004.

19- الوعر(مازن): **دراسات لسانية تطبيقية**، طلاس للدراسات والترجمة، دمشق، سوريا، 1989

20- زكريا (ميشال): **بحوث ألسنية عربية**، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1992.

21- ـــــــــــــ: **الألســـنية(علم اللغة الحديث)، قراءات تمهيدية**، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط2، 1985.

22- الزمخشري(محمود بن علي الزمخشري الخوارزمي، ت 538): **تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار المصحف، القاهرة، ط2، 1977 .

23- الحاج صالح (عبد الرحمن): **المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم المعاصر**، ضمن: تقدم اللسانيات في الأقطار العربية ، وقائع ندوة جهوية، الرباط، أفريل، 1987.

24- حمودة(طاهر سليمان): **ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي**، الدار الجامعية، الإسكندرية،1999 .

25- حمـــودة (عـــبد العزيز):**المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس، 2001.

26- الحمصي (محمد طاهر): **مباحث في علم المعاني**، منشورات جامعة البعث، سوريا، ط2، 1995/ 1996.

27- الحناش (محمد): **البنيوية في اللسانيات**،دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1401/ 1980.

28 - حساني (أحمد): **مباحث في اللسانيات**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.

29 - حسين (عبد القادر) : **أثر النحاة في البحث البلاغي**، دار النهضة، القاهرة، مصر، (د ت) .

30- طبانة(بدوي): **البيان العربي**، المكتبة الأنجلو مصرية، ط3، 1962.

31 - ابــن يعيش(موفق الدين بن علي بن يعيش النحوي، ت643):**شرح المفصل للزمخشري**، وضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1422/ 2001.

32- (لاشــين) عــبد الفــتاح: **التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر**، دار المريخ، الرياض، السعودية،(د ت) .

33 - مجــدوب (عــز الدين): **المنوال النحوي العربي،قراءة لسانية جديدة**، كلية الآداب، سوسة، دار محمد علي الحامي، تونس، ط1، 1998.

33- المهيري (عبد القادر): **أعلام وآثار من التراث اللغوي**، دار الجنوب، تونس، 1993 .

34- ———— وآخرون: **اللسانيات الوظيفية**، ضمن: **أهم المدارس اللسانية**، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990 .

35- مهيبل (عمر): **البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991.

36 - ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ، ت711 هـــ): **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، المجلدان: 1، 6، ط1، 1997.

37- الموسى(نهاد): **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث**، بيروت، 1980.

38- المسدي (عبد السلام): **اللسانيات وأسسها المعرفية**، الدار التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1986.

39- مصطفى(إبراهيم): **إحياء النحو**، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2003/1423.

40- المخزومــي(مهــدي) : **في النحو العربي، نقد وتوجيه** ، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان،ط2، 1986/1406.

41- ———— : **في الــنحو العربي، قواعد وتطبيق** ، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1986/1406.

42- المتوكل(أحمد):**آفاق جديدة في نظرية النحو الوظيفي**،كلية الآداب، الرباط،المغرب، ط1، 1993.

43- ـــــــــ: **دراسات في نحو اللغة العربية الوظيفي**،دار الثقافة،الدار البيضاء، المغرب،(د ت)

44- ـــــــــ: **الوظيفة والبنية**، منشورات عكاظ، الرباط، 1993 .

45- ـــــــــ: **الوظائف التداولية في اللغة العربية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1985.

46- ـــــــــ: **اللسانيات الوظيفية، مدخل نظري**، منشورات عكاظ، 1989.

47- ـــــــــ : **قضـايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية**، البنية التحتية، أو التمثيل الدلالي التداولي، دار الأمان، الرباط، المغرب، 1995.

48 - نحلة (محمود أحمد) : **لغة القرآن في جزء عمّ**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981 .

49- ـــــــــ : **نظام الجملة في شعر المعلقات**، دار المعرفة الجامعية، مصر،1991.

50- سامبســون (جيفري): **المدارس اللغوية، التطور والصراع**،ترجمة أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، ط1، 1993/1413.

51 - الســاقي(فاضــل مصطفى): **أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة**، مكتبة الغانجي، القاهرة، 1977.

52- السيد(شفيع):**البحث البلاغي عند العرب**، تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي،القاهرة،ط2،1996.

53- الســيوطي(أبــو الفضــل عبد الرحمن ابن الكمال أبو بكر جلال الدين، ت 911هـ): **الأشباه والنظائر في النحو**، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد2، ط1، 2001.

54 - ـــــــــ **الإتقان في علوم القرآن**، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

55 - ســيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان، ت 180 هـ) : **الكتاب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، المجلدان1، 2، ط1، 1991.

56- السكاكي (أبو يعقوب يوسف): **مفتاح العلوم**، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987.

57 - سلطان(منير): **الفصل والوصل في القرآن الكريم**، دار المعارف، القاهرة، 1983 .

58 - السمرائي (فاضل صالح) : **الجملة العربية والمعنى**، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

59- ابن عاشور(محمد الطاهر): **مقاصد الشريعة الإسلامية**، تحقيق ودراسة محمد الطاهر ميساوي، دار النفائس، الأردن، المجلد1، ط2، 2001.

60 - ـــــــــ : **تفسير التحريـر والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، و المؤسسة الوطنية

للكتاب، ج1، 2، 3، 13، الجزائر، 1984.

61 - عبد اللطيف (محمد حماسة): **النحو والدلالة**، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 2000.

62 - العكـــبري (محب الدين عبد الله بن الحسين، ت 616 هــ) : **التبيان في إعراب القرآن**، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الجيل، بيروت، المجلد1، ط2، 1987 .

63 - عمايـــرة (خلـــيل): **في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق**، عالم المعرفة، جدة، السعودية، ط1، 1984 .

64- فاطمـــة الطـــبال بركة: **النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

65- الفهـــري (عبد القادر الفاسي): **اللسانيات و اللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية**، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، 1985 .

66- صاحب أبو جناح: **دراسات في نظرية النحو العربي وتطبيقاتها**، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1، 1998/1419.

67 - محمد قدور (أحمد): **مبادئ اللسانيات**، دار الفكر، دمشق، ط2، 1999.

68 - القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، ت 671 هــ): **الجامع لأحكام القرآن**، مكتبة رحاب، الجزائر، الجزء1، ط 4، 1410/ 1990.

69 - القرطبي (ابن مضاء): **كتاب الرد على النحاة**، دار المعارف بمصر، ط3 ، (د ت) .

70 - القـــزويني (جـــلال الدين محمد بن عبد الرحمان ، ت 739): **الإيضاح في علوم البلاغة**، شرح وتعليق عبد الحميد هنداوي، مؤسسة المختار، القاهرة، ط2،1425/ 2004.

71 - الراجحي(عبده): **النحو العربي والدرس الحديث** ،دار النهضة العربية،بيروت،1986.

72- ـــــــــــــــ : **النظـــريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية**، ضمن: تمام حسان رائدا لغويا، إعداد وإشراف: عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2002/1423.

73- الشاوش (محمد) وآخرون: **سو سير والألسنية**، ضمن: **أهم المدارس اللسانية**، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس، ط2، 1990 .

74- توامة(عبد الجبار): **زمن الفعل في اللغة العربية قرائنه وجهاته**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994.

75- ـــــــــــــــ : **المنهج الوظيفي العربي الجديد لتجديد النحو العربي**،(مقال)، ضمن: أعمال ندوة **تيسير النحو**، تنظيم المجلس الأعلى للغة العربية، المكتبة الوطنية بالحامة، الجزائر،2001 .

76-تمــام (حســان): **البـــيان في روائع القرآن، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني**، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1993.

77- ــــــــــــ: **اللغة العربية معناها ومبناها**، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1998 .

78- التفـــتازاني(ســعد الدين):**مختصر السعد شرح تلخيص كتاب مفتاح العلوم**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2003.

79- ابــن الخــوجة(محمد الحبيب):**محمد الطاهر ابن عاشور وكتابه مقاصد الشريعة**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، 2004/1425.

80- خطــابي (محمد) :**لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1991 .

81- ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون** ، دار الجيل، بيروت، (د ت).

82- خليل (حلمي): **العربية وعلم اللغة البنيوي**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 1996.

83- ضيف (شوقي) : **البلاغة العربية تطور وتاريخ**، دار المعارف بمصر ، ط6 ، 1983 .

ب/ الكتب الأجنبية :

84 -Dik (Simon):**Functional grammar**, North Holland, Amsterdam,1978.

85 - jakobson (Roman)**: Essais de linguistique general,** Paris, minuit, 1973.

86-Martinet(andret):**Eléments de linguistiquegénérale**,Paris,armand,Colin 1970.

87- Martinet(andret):**La linguistique synchronique,**P.U.F, Paris, 1970.

ج/ الأطروحات و الرسائل الجامعية :

88- بــري(حــواس): **المقاييس البلاغية في تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور**(مخطوط رسالة دكتوراه)، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر، إشراف: عبد القادر هني(1995-1996).

89- ســعدي الزبير: **العلاقات التركيبية في القرآن الكريم، دراسة وظيفية**(مخطوط رسالة دكتوراه)، معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة الجزائر ، إشراف : محمد بلقايد (1989/1410).

90- قادري (كمال): **التركيب النحوي في الآيات المدنية في القرآن الكريم**(مخطوط رسالة ماجستير)، قسم اللغة العربية، جامعة حلب، سوريا، إشراف: فخر الدين قباوة، (1409/1988).

91- توامة(عبد الجبار) :**القرائن المعنوية في النحو العربي**، (مخطوط رسالة دكتوراه)، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، إشراف: فرحات عياش، (1994-1995).

د/ المجـــلات:

92- أحمـــد (يحيى): **الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة**، مجلة عالم الفكر"الألسنية"، تصدرها وزارة الإعلام، الكويت، المجلد20، العدد3، (أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر)، 1989.

93- الوعـــر(مـــازن): **النظريات النحوية والدلالية في اللسانيات التحويلية والتوليدية**، محاولة لسبرها وتطبـــيقها على النحو العربي، مجلة اللسانيات، يصدرها معهد العلوم اللسانية والصوتية، الجزائر، العدد6، 1982.

94 – الحاج صالح (عبد الرحمن): **الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي**، المجلة العربية للتربية- تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- تونس، العدد2، 1985.

95 – المهيري (عبد القادر): **كتاب سيبويه بين التقعيد والوصف**، مجلة حوليات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية العدد 11، 1974.

96- ـــــــــــــــــ: **مســـاهمة في التعـــريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة**، مجلة حوليات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجامعة التونسية،العدد11، 1974 .

97- المتوكل(أحمد): **المبتدأ في اللغة العربية نحو وصف وظيفي- تداولي**، مجلة في اللسانيات واللسانيات العربية،جمعية الفلسفة بالمغرب،1988.

98 – صحراوي (مسعود): **"المنحى الوظيفي" في التراث اللغوي العربي"**،مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد5، العدد1، أبريل/ يونيه 2003.

99- رتـــيمة (محمـــد العيد): **النظرية البنوية الوظيفية العربية وتطبيقاتها في الدرس اللغوي**، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، الجزائر، العدد9 ،1996/1416.

هـــ/**المحاضرات:**

100- عبد الرحمن الحاج صالح: **مفهوم البنية والوظيفة عند البنويين والوظيفيين الأوربيين**، مقـــياس: المدارس اللسانية، محاضرة على طلبة الماجستير، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، بوزريعة، الجزائر، 2004/2003.

101-عـــبد الـــرحمن الحاج صالح: **مقارنة بين التحليل البنوي الأوربي، و التحليل البنوي الأمريكـــي**، مقـــياس: المدارس اللسانية، محاضرة على طلبة الماجستير، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، بوزريعة، الجزائر، 2004/2003.

فهرس المحتويات